رأس المال

DAS KAPITAL

تأليف

كارل ماركس

ترجمة

دكتور راشد البراوي

كلية التجارة — جامعة فؤاد الأول

الجزء الأول

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

مطبعة الشبكشى بالازهر بمصر

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الاهداء المترجمة

الى الذين يقدسون البحث العلمي وحرية الرأي الرشيدة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

نفدت الطبعة الأولى فى أيام

وصدرت الطبعة الثانية من :

حرب البترول فى الشرق الاوسط

تأليف

الدكتور راشد البراوى

أول بحث باللغة العربية أثار ضجة فى الدوائر الاستعمارية وأثنت عليه الصحافة العربية .

بيان بموارد الشرق الأوسط البترولية ، وشرح دقيق للسياسات الاستعمارية وإحصائيات وافية عن الشركات الاحتكارية الضخمة وعقود امتيازاتها ورؤوس أموالها وأساليبها الخفية والعلنية .

رسم الطريق أمام الشعوب العربية لتحطيم الاستعمار والاحتكار .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

للدكتور راشد البراوى

مؤلفـــات

١ — نحو عالم جديد أو تطور الفكرة الدولية

٢ — التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث

٣ — دزرائيلى

٤ — النظام الاشتراكى : عرضه وتحليل ونقد

٥ — حرب البترول فى الشرق الأوسط

« كتب مترجمة »

٦ — **الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية**

تأليف ف . لينين وأضيفت إليه إحصائيات وبيانات وافية عن الفترة ١٩١٩ — ١٩٣٩ مع تحليلها والتعليق عليها

٧ — **الاقتصاد السياسى**

(من روائع النظرية الاشتراكية للكاتب الروسى ا. ليونتيف)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

محتويات الجزء الأول

صفحة

مقدمة المترجم ى

الباب الاول

السلع والنقـــود

الفصل الاول - السلع ١ — ٤٧

(١) عاملا السلعة : القيمة الاستعمالية والقيمة (جوهر القيمة ، حجم القيمة) ١

(٢) الصفة المزدوجة للعمل الذى تتضمنه السلع ٧

(٣) شكل القيمة أو القيمة التبادلية ١٣

ا - الشكل الأولى أو المنعزل أو العرضى للقيمة ١٤

(ا) قطبا تعبير القيمة : شكل القيمة النسبى والشكل المعادل ١٤

(ب) شكل القيمة النسبى ١٥

(حـ) الشكل المعادل ٢٠

(ى) الشكل الأولى للقيمة إذا نظرنا إليه على أنه كل ... ٢٤

ب - الشكل الكلى أو الممتد من القيمة ٢٦

(ا) شكل القيمة النسبى الممتد ٢٦

(ب) الشكل المعادل الخاص ٢٧

(حـ) نقائص شكل القيمة الكلى أو الممتد ٢٧

حـ - الشكل المعمم للقيمة ٢٨

(ا) الصفة المتغيرة لشكل القيمة ٢٨

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(ب) الانتقال من شكل القيمة المعمم إلى الشكل النقدى ... ٣٢

ى ـ شكل القيمة النقدى ٣٣

(٤) السر الغامض الذى يحيط بالصفة السحرية للسلع ٣٤

الفصل الثانى — التبادل ... ... ٤٨—٥٦

الفصل الثالث — النقود أو تداول السلع ... ... ٥٧—١٠٥

(١) مقياس القيم ٥٧

(٢) واسطة التداول ٦٦

(ا) تحول السلع (س ـ ده التحول الأول للسلعة : البيع ٦٨

ه ده ـ س التحول الثانى أو الختامى للسلعة : الشراء ... ٧٢

(ب) تداول النقود ٧٦

(ح) القطع النقدية ورموز القيمة ٨٥

(٣) النقود (الاختزان ٩٠ ـ وسيلة الدفع ٩٤ ـ النقود العالمية ١٠٢) ٩٠

الباب الثانى

تحول النقود إلى رأس مال

الفصل الرابع — تحول النقود إلى رأس مال ... ... ١٠٦ — ١٣٣

(١) الصيغة العامة لرأس المال ١٠٧

(٢) متناقضات فى الصيغة العامة لرأس المال ١١٤

(٣) شراء وبيع قوة العمل ١٢٤

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب الثالث

إنتاج فائض القيمة المطلق

الفصل الخامس — عملية العمل وعملية إنتاج فائض القيمة ... ١٣٤—١٥٤

(١) عملية العمل ١٣٤

(٢) إنتاج فائض القيمة ١٤٢

الفصل السادس — رأس المال الثابت ورأس المال المتغير ... ١٥٥—١٦٦

الفصل السابع — معدل فائض القيمة ... ... ١٦٧—١٨٥

(١) درجة استغلال قوة العمل ١٦٧

(٢) تمثيل قيمة المنتج فى أجزائه النسبية ١٧٦

(٣) نظرية سينيور عن « الساعة الأخيرة » ١٧٩

المنتج (الناتج) الفائض ١٨٤

الفصل الثامن — يوم العمل ... ... ١٨٦ — ٢٥٢

(١) حدود يوم العمل ١٨٦

(٢) الجشع فى سبيل فائض العمل ١٩٠

(٣) فروع من الصناعة البريطانية ليس فيها حدود قانونية للاستغلال ١٩٧

(٤) العمل النهارى والليلى ـ نظام المناوبات ٢١٠

(٥) النضال فى سبيل يوم عمل عادى ـ القوانين الصادرة منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن السابع عشر لتطبيق مدى يوم العمل ٢١٨

(٦) النضال فى سبيل يوم العمل العادى ـ التحديد القانونى الإجبارى لوقت العمل ـ قوانين العمل الصـــادرة فى انجلترا فيما بين ١٨٣٣ ، ١٨٦٤ ... ... ٢٣٠

(٧) (تابع) النضال فى سبيل يوم العمل العادى ـ رد الفعل الناتج عن قوانين المصانع الانجليزية فى البلاد الأخرى ٢٤٧

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل التاسع — معدل ومقدار فائض القيمة ... ... ٢٥٣—٢٦١

الباب الرابع

إنتاج فائض القيمة النسبي

الفصل العاشر — نظرية فائض القيمة النسبي ... ... ٢٦٢ — ٢٧٢

الفصل الحادى عشر — التعاون ... ... ٢٧٢ — ٢٨٥

الفصل الثانى عشر — تقسيم العمل والصناعة اليدوية ٢٨٦—٣١٦

(١) أصل الصناعة اليدوية المزدوج ٢٨٦
(٢) العامل الذى يقوم بعملية تفصيلية وأداته ٢٨٨
(٣) الشكلان الأساسيان لإنتاج المصنع اليدوى (للصناعة اليدوية)
الشكل غير المتجانس والشكل العضوى ٢٩١
(٤) تقسيم العمل فى الصناعة اليدوية وتقسيم العمل فى المجتمع... ٣٠٠
(٥) الطابع الرأسمالى الذى تتميز به الصناعة اليدوية ٣٠٨

الفصل الثالث عشر — الآلات والصناعة الكبيرة... ... ... ٣١٧—٤٤٠

(١) تطور الآلات ٣١٧
(٢) القيمة التى تنقلها الآلات إلى المنتَج ٣٣٠
(٣) النتائج الأولية للصناعة الآلية بالنسبة إلى العامل ٣٣٧
(ا) استحواذ رأس المال على قوة عمل إضافية ـ استخدام
النساء والأطفال ٣٣٧
(ب) إطالة يوم العمل ٣٤٥
(حـ) زيادة حدة العمل ٣٥١

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(٤) المصنع ٣٦٢
(٥) الصراع بين العامل والآلة ٣٦٩
(٦) نظرية التعويض فيما يختص بالعمال الذين تحل محلهم الآلات ٣٧٩
(٧) نظام المصانع يجتذب العمال ويطردهم ـ الأزمة التي حدثت في تجارة القطن ٣٨٨
(٨) الثورة التي أحدثها تقدم الصناعة الكبيرة وذلك في الصناعة اليدوية والحرف اليدوية والصناعة المنزلية ٤٠٠
(ا) اختفاء التعاون القائم على أساس الحرفة اليدوية وتقسيم العمل ٤٠٠
(ب) رد الفعل لنظام المصانع على الصناعة اليدوية والصناعات المنزلية ٤٠٢
(حـ) الصناعة اليدوية الحديثة ٤٠٣
(ى) الصناعة المنزلية الحديثة ٤٠٦
(هـ) الانتقال من الصناعة اليدوية الحديثة والصناعة المنزلية إلى الصناعة الكبيرة ـ الاسراع بهذه الثورة بسبب تطبيق قوانين المصانع على النوعين الأولين ٤٠٩
(٩) قوانين المصانع . المواد الخاصة بالصحة والتعليم في هذه القوانين . تطبيق قوانين المصانع على انجلترا كلها ٤١٨
(١٠) الصناعة الكبيرة والزراعة... ... ... ٤٣٧

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . نحمده ونشكره إذ أخرجنا من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، وأمرنا بالقصد ونهانا عن الإسراف ، وجعلنا سواء فى الانتفاع بما أفاء علينا من الطيبات والخيرات ، وحثنا على التعاضد والتساند ، ولم يمز عربياً على أعجمى إلا بالعمل الصالح والتزام حدود العدالة وإحقاق الحق وكفاح الشر والطغيان .

وبعد ... فهذا كتاب « رأس المال » للكاتب الأشهر كارل ماركس نضعه بين أيدى خاصة المثقفين من قراء العربية الراغبين فى البحث العلمى العميق وفى الدرس الرصين لشتى المسائل والمذاهب الاقتصادية من مراجعها الأصلية حتى يكونوا أدنى إلى فهمها وإدراك حقيقتها . والكتاب - على ما انعقد الإجماع من جانب الأنصار والخصوم - أدق تحليل علمى للنظام الرأسمالى من حيث نشأته ، وأهمية الدور الذى لعبه فى التقدم ، والمتناقضات التى ينطوى عليها والتى تمهد لاختفائه ليحل محله نظام أرقى منه[1] . لهذه العوامل وغيرها أصبح رأس المال إنجيل الفلسفة الإشتراكية ، ومرشد الحركة العمالية الرشيدة الرصينة فى أنحاء العالم .

وقد ترجم الكتاب إلى مختلف اللغات وتناوله العلماء بالنقد والتحليل . ومما يلفت النظر أنه ظهرت له ترجمة روسية طيبة فى سان بطرسبرج عام ١٨٧٢ أى بعد خمس سنوات من ظهوره بالألمانية ؛ ونفدت النسخ المطبوعة كلها وعدتها ثلاثة آلاف فى فترة وجيزة ، وذلك فى روسيا القيصرية التى يحدثنا التاريخ أنها كانت دولة استبدادية رجعية وغير ذات نظام ديمقراطى أو دستور مستنير .

---

(١) يرى الماركسيون على اختلاف طوائفهم وشيعهم أن الاشتراكية نظام المستقبل . وقد ظهرت أخيراً نظرية للكاتب James Burnham تنكر هذا الاحتمال وتذهب إلى أن « المنظمين » هم الطبقة الحاكمة فى المجتمع الذى يقوم على أنقاض الرأسمالية والذى يرتكز فى الوقت ذاته على ملكية الدولة لأدوات الانتاج (راجع كتابه The Managerial Revolution للكاتب المذكور) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

كانت حياة ماركس سلسلة طويلة من الكفاح المرير[1] فى سبيل ما آمن به وكرس حياته للدفاع عنه . غير أن هذه الجهود المضنية لم تثنه عن البحث والدرس وأخيراً صدر الجزء الأول من كتابه « رأس المال : نقد الاقتصاد السياسى » (١٨٦٧) وقدمه للناس قائلا ,,إن هذا المؤلف الذى أقدّم الآن للجمهور المجلد الأول منه استمرار لكتابى «نقد للاقتصاد السياسى المنشور» عام ١٨٥٩[2]،، . وقد تلقفه الكثيرون من الاقتصاديين والعلماء بالنقد والتحليل ، وبرغم ما تعرض له من تأييد أو استنكار إلا أن النظرية التى صاغها المؤلف اعتبرها الجميع فتحاً جديداً وثورة جديدة فى عالم الفكر . وإليك ما جاء فى مقال نشر بعدد مايو ١٨٧٢ من مجلة European Messenger[3] :

« تنحصر القيمة العلمية لمثل هذا البحث فى الكشف عن القوانين الخاصة التى تنظم نشأة نظام اجتماعى معلوم ووجوده وتطوره وفناءه وحلول نظام آخر أرقى منه محله . هذه فى الحقيقة قيمة كتاب ماركس » . وفى سنة ١٨٧٢ ظهرت الطبعة الثانية مصدّرة بمقدمة عرض فيها المؤلف لبعض ما قيل فى الكتاب . ولكن لم يمتد به العمر ليتمتع بلذة إعداد الطبعة الثالثة إذ فى ١٤ مارس من عام ١٨٨٣ مات ذلك المفكر الجبار الذى اضطر خصومه أنفسهم أن يحنوا الرأس إجلالا أمام عظمته[4] .

ليس كتاب ,, رأس المال ،، بالسهل قراءة ، فهو صعب فى حد ذاته لأنه يعالج بحثاً نظرياً مجرداً غاية فى الصعوبة . وفضلا عن هذا فالفهم التام له يستلزم إلماماً واسعاً بالمذاهب الاقتصادية والآراء الفلسفية السائدة فى وقت كتابته ، وهذه الظاهرة لا يلبث القارىء أن يلمسها واضحة بارزة في الإشارات الوافرة فى المتن والحواشى إلى المتقدمين والمعاصرين لماركس من كتاب الاقتصاد والسياسة والفلسفة مما يكشف لنا بجلاء عن عمق الرجل ونزاهته العلمية[5] . ومن الصعاب التى تواجهنا كذلك الأسلوب الذى اتبعه حيث يبدو غريباً فى

---

(١) راجع الفصول التى عقدناها عن حياته فى كتابنا « النظام الاشتراكى » (طبعة ١٩٤٦)

(٢) مقدمة المؤلف للطبعة الألمانية الأولى .

(٣) وردت هذه الفقرة فى مقدمة المؤلف للطبعة الألمانية الثانية .

(٤) مقدمة فردريك إنجلز للطبعة الألمانية الثالثة .

(٥) كان ماركس ,,ذا ضمير حى فى عمله فلا يذكر قضايا أو أرقاماً إلا إذا أثبت صحتها من المصادر الأصلية وحواشى مؤلفاته مليئة بأسماء مؤلفين مجهولين لانه — على حد رأيه — يقر العدل التاريخى ويعطى كل إنسان حقه ،، (راجع كتابنا : النظام الاشتراكى ص ٨٥—٨٦) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

نظر الكثيرين من القراء اليوم ، بل إن بعض معاصريه لقى منه عنتاً . وأخيراً ـ وليس آخراً فالمؤلف يستعمل بعض المصلحات الفنية فى معانٍ مختلفة مما قد يدعو إلى حيرة القارىء[1] .

يتحدث الكتاب عن انقسام المجتمع إلى أغنياء وفقراء ويذهب إلى أن الدولة لا تعدو كونها لجنة تنفيذية لإدارة شئون الطبقة الحاكمة وتأييد سلطانها . وهذه آراء غير جديدة ولم يبتكرها ماركس . غير أن الجديد فى فلسفة الرجل نظرته إلى تطور التاريخ الإنسانى من حيث أنه سلسلة من صراع طبقات ذى صبغة اقتصادية وسياسية فى نفس الوقت . هذه الفكرة عن التطور التاريخى لا تجدها مبسوطة بوضوح وتحديد فى رأس المال وإن كانت الأساس الذى يقوم عليه ، وإن كانت كذلك حجر الزاوية فى الفلسفة الماركسية . ونستطيع أن ندرك جوهر هذه النظرية فى تفسير التاريخ من مؤلفات ماركس الأخرى . . . « فى الانتاج الاجتماعى الذى يزاوله الناس نراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى عنها ، وهى مستقلة عن إرادتهم . وعلاقات الانتاج هنا تطابق مرحلة محددة من تطور قواهم المادية فى الانتاج ، والمجموع الكلى لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادى للمجتمع وهو الأساس الحقيقى الذى تقوم عليه النظم القانونية والسياسية والتى تطابقها أشكال محدودة من الشعور الاجتماعى . فأسلوب الانتاج فى الحياة المادية يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والروحية فى الحياة . ليس شعور الناس هو الذى يعين وجودهم . بل إن وجودهم هو الذى يعين شعورهم . وعند بلوغ مرحلة معينة من تطور قوى الانتاج المادية فى المجتمع نراها تصطدم مع علاقات الانتاج القائمة أو علاقات الملكية بالتعبير القانونى ، وبذا تتحول هذه العلاقات إلى أغلال تقيد تطور قوى الانتاج وهنا تبدأ فترة انقلاب اجتماعى »[2] .

أنكر البعض مادية ماركس هذه إلا أن موقفهم منها راجع إلى قصورهم عن إدراك معناها . فهى ليست مادية بمعنى أنها تستبعد فعل العقل بل إنها تبحث عن الحقيقة فى عالم الناس والأشياء لا فى عالم التصورات والآراء . وليس من الصواب أن نعد العوامل الاقتصادية المؤثر الوحيد فى تطور التاريخ البشرى ، أو نعتبر تصرفات الناس مبعثها الدوافع الاقتصادية

---

(١) ومن أمثال ذلك عبارات manufacture, manufacturer, value, use-value, exchange-value الخ (المقدمة التى كتبها Eden & Cedar Paul فى ترجمتهما للكتاب طبعة Everyman's Library جـ ١ ص ٢٤ — ٢٦) .

(٢) A Contribution to the Critique of Political Economy, Preface (Selected Works, vol, I. p. 356).

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

البحتة . إن تطور قوى الانتاج يثير مشاكل على الناس أن يجدوا لها حلا مناسباً . حين تشير مدرسة ماركس إلى الحادث الاقتصادى فإنها تعده الأول من حيث الزمن ، ولكن لا يلبث بعد ذلك أن يبدو أثر التغييرات السياسية والاجتماعية حتى فى الموقف الاقتصادى . هذه هى النظرية فى وضعها الصحيح وليست كما تتراءى لمجرد النظر السطحى[1] . وإذا ما استوعبناها كاملة وضح لنا ما يهدف إليه ماركس فى كتابه رأس المال وذلك لأنها مفتاح بقية آرائه ، وما نظريته عن القيمة الفائضة ونقده للاقتصاديين الكلاسيك إلا تطبيق لها فى ميدان الفكر الاقتصادى .

يستهل ماركس كتابه بالحديث عن السلع والنقود . ولعل هذا الفصل ـ باعترافه شخصياً ـ أصعب ما فى الكتاب . وتنحصر النتيجة التى يصل إليها فى أن قيمة السلع تتوقف على مقدار ما يبذل فى إنتاج السلع من عمل ، وهو يقصد بذلك عملا إنسانياً متجانساً مجرداً . وهذا المقدار هو ما يلزم فى ظل أحوال اجتماعية معلومة . فكأن هذا الأخير العامل الوحيد الذى يمكن أن يؤثر فى قيمة أية سلعة . وقد هوجمت هذه الفكرة بشدة وقال الناقدون إن نفقة إنتاج السلعة تتضمن عناصر أخرى كالتضحية بالمتعة الحاضرة وكالمخاطرة إلى جانب العمل المبذول . غير أن عبقرية ماركس تبدو فى ناحية أخرى . لقد أخذ عن الاقتصاديين الكلاسيك أمرين : «أولهما» أن قيمة السلعة تتوقف على ما يتكلفه إنتاجها من عمل ، «وثانيهما» ميل الأجور إلى الهبوط نحو مستوى الكفاف Subsistence level . وهنا نجد ماركس يستخلص من هذين العنصرين نظريته أو كشفه المبتكر عن القيمة الفائضة . وخلاصة هذا الرأى أن كافة الأدوات والوسائل التى تستخدم فى الإنتاج ـ عدا قوة العمل ـ لا تخلق شيئاً ، ولكن العامل وحده هو الذى ينتج أكثر مما هو ضرورى لعيشه ، غير أنه لا يتناول سوى القدر اللازم لبقائه وتكاثره ، أما الباقى فيستولى عليه صاحب رأس المال الذى يشترى قوة العمل . هذه القيمة الفائضة مصدر الريع والفائدة والربح ، وتحقيقها راجع إلى المزايا الاقتصادية المترتبة على التعاون وتقسيم العمل .

تلك هى المبادىء الأساسية التى يقوم عليها هذا الكتاب الذى نقدم ترجمته إلى القراء . ويلاحظ أن ماركس يستشهد بالأحوال السائدة فى انجلترا وفى هذا يقول «وموضوع الدراسة

---

(١) راجع المقدمة بقلم G. D. H. Cole (طبعة Everyman's Library جـ ١ ص ١٣ وما بعدها) ، الفصول التى عقدها كول أيضاً عن هذا الموضوع فى كتابه What Marx Really Meant . وانظر كذلك الفصل الحادى عشر من كتابنا «النظام الاشتراكى» ص ١٠٣ وما بعدها . وراجع أيضاً الجزء الاول من «مختارات من مؤلفات ماركس» ص ٣٨١–٣٨٢ ، ٣٩١–٣٩٢ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى المؤلف الحالى طريقة الإنتاج الرأسمالية ثم علاقات الانتاج والتبادل الملائمة لهذه الطريقة ، وانجلترا البلد الذى اتخذت فيه هذه العلاقات المظاهر الخاصة بها» (مقدمة الطبعة الألمانية الأولى). وفضلا عن هذا وجد مادة وفيرة فى المصادر الرسمية البالغة الأهمية كتقارير مفتشى المصانع ولجان استخدام الأطفال والتقارير عن الصحة العامة ، وهذا إلى جانب الاحصائيات الدقيقة . وللكتاب مزية هامة من حيث كونه عرضاً للتطور الصناعى فى تلك الدولة ، كما أن الفصول الخاصة بيوم العمل والآثار المتباينة المترتبة على الانقلاب الصناعى ـ هذه قد يكون فيها مايرشدنا فى المحاولات التى يراد بها تحسين أحوال العمل والطوائف العاملة ، وبذا يتسنى لنا أن نتجنب مواطن الزلل .

ونحن إذ نقدم هذه الترجمة العربية نعتذر عما قد يكون بها من نقص نرجو أن يتداركه سوانا او يوجه أنظارنا إليه فنتقبل النصح شاكرين . ونود أن نعتذر كذلك عن إغفالنا إيراد ثبت المصادر التى رجع اليها المؤلف مكتفين بذكره إياها فى الحواشى . وأخيراً نرجو القارىء أن يغفر لنا بعض أخطاء الطباعة وقد صححناها فى ختام كل جزء على حدة . ولا يسعنا كذلك إلا أن نعبر عن عميق شكرنا إلى حضرات الأفاضل أصحاب مكتبة النهضة المصرية لمعاونتهم القيمة فى إخراج هذا الكتاب فى ثوبه العربى ، وهم الذين لا يضنون بالتشجيع الكامل لما فيه إذكاء الحركة الثقافية . وكذلك نثنى على ,, مطبعة الشبكشى ،، صاحبها وعمالها الذين تجملوا بالصبر وبذلوا ما وسعهم من جهد فى طبع الجزء الأول طبعاً أنيقاً .

وإنا لنتوجه إلى العلى القدير بالحمد والثناء أن أعاننا على ترجمة هذا السفر الذى يُعد من أمهات المؤلفات الاقتصادية بالغرب ، ونضرع إليه سبحانه وتعالى أن يهدينا سواء السبيل وأن يوفقنا إلى المساهمة بمجهودنا المتواضع فى تزويد المكتبة العربية بنفائس زميلتها الغربية ونحن فى هذه المرحلة من النهضة العلمية المباركة بالشرق العربى .

راشد البراوى

كلية التجارة ـ جامعة فؤاد الأول

القاهرة فى أول يناير سنة ١٩٤٧

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب الأول

السلع والنقود

الفصل الأول

السلع

(١) عاملا السلعة : القيمة الاستعمالية والقيمة (جوهر القيمة ، حجم القيمة)

تبدو ثروة المجتمعات التى يسودها الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج ، ترا كما واسع النطاق من السلع ، [١] ، ووحداته التى يتكون منها عبارة عن السلع الفردية . ولهذا نرى لزاما علينا أن نستهل بحثنا بتحليل السلعة . ونلاحظ أولا أن السلعة شىء خارج عنا أى يستطيع بما له من خواص أن يقضى الحاجات الإنسانية المختلفة الأنواع ، وهى حاجات لا تختلف ماهيتها سواء أكان مصدرها المعدة أم الخيال [٢] . ولا يعنينا فى هذا المقام بحث الكيفية التى يتحقق بها إشباع هذا الشىء لهذه الحاجات سواء بالطريق المباشر كوسيلة للعيش ، أو غير المباشر كوسيلة للانتاج .

والشىء النافع كالحديد والورق وما إليهما يجوز النظر إليه من وجهتى الكيف والكم ، فهو مجموع خواص كثيرة وبذا تتعدد وسائل الانتفاع به . ومهمة التاريخ أن يكشف

---

(١) كارل ماركس Zur Kritik der politischen Oekonomie ، برلين ١٨٥٩ ص ٤ .

(٢) ,,الرغبة تنطوى على الحاجة ، وهى شهية العقل ، وطبيعية كالجوع للجسم ... ويستمد معظم (الأشياء) قيمته من اشباع حاجات العقل،، راجع Nicholas Barbon فى A Discourse on Coining the New Money lighter in answer to Mr. Locke's Considerations لندن ١٦٩٦ ص ٢—٣ .

(٣) ,,للاشياء فضيلة حقيقية (تعبير بربون الخاص به للقيمة الاستعمالية) .

(نفس المصدر المشار اليه قبلا ص ١٦) . ان خاصية المغناطيس التى تمكنه من اجتذاب الحديد لم تصبح ذات نفع الا بعد أن أدت الى كشف القطبية المغناطيسية .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عن مختلف منافع الأشياء[٣]، ووضع مستويات المعايير التى يقرها المجتمع لبيان مقادير هذه الأشياء النافعة . ويرجع تفاوت هذه المعايير إلى اختلاف طبيعة الأشياء التى يراد قياسها من جهة ، وإلى العرف من جهة أخرى . إن منفعة الشيء تجعله « قيمة استعمالية »[١]. ولكن هذه المنفعة ليست شيئا قائماً مستقلا بذاته ، إذ نظرا لأن خواص السلعة هى التى تعينها فإن المنفعة لاوجود لها منفصل من تلك الخواص . وعلى ذلك فالسلعة ذاتها كالحديد والقمح والماس قيمة استعمالية أو إحدى الطيبات ، وصفتها هذه مستقلة عن مبلغ العمل اللازم للانتفاع بصفاتها النافعة. وعندما نبحث موضوع القيم الاستعمالية كذرينات من الساعات ويادات من القماش أو أطنان من الحديد ، فاننا نسلم دائماً أو نعترف بتعيينها الكمى quantitative . وتهيء القيم الاستعمالية للسلع موضوع دراسة خاصة هى علم السلع[٢]. والقيمة الاستعمالية لا تتحقق أو يكون لها وجود فعلى إلا بالاستعمال أو الاستهلاك. والقيم الاستعمالية كذلك هى كل ما تحتويه كل ثروة مهما كان الشكل الاجتماعى الذى تبدو فيه هذه الثروة . وأكثر من ذلك فإن القيم الاستعمالية فى المجتمع الذى نحن على أهبة البحث فيه ، هى كذلك المستودعات المادية للقيمة التبادلية .

وتبدو القيمة التبادلية من أول نظرة نسبة كمية أى النسبة التى يمكن بها تبادل القيم الاستعمالية من نوع ما بغيرها من نوع آخر[٣] ، وهى نسبة تتغير حسب ظروف الزمان والمكان . وبذلك تبدو القيمة التبادلية شيئاً عرضياً ونسبياً تماماً ، ويترتب على ذلك أن هذه القيمة (القيمة الحقيقية) الكامنة فى السلع تتراءى كأنها تناقض فى التعبير[٤]. وجدير بنا أن ننظر إلى

---

(١) « تنحصر القيمة worth الطبيعية لأى شيء فى صلاحيته لاشباع الضروريات أو خدمة أغراض الحياة الانسانية John Locke: Considerations on the consequencs of the Lowering of Interest ، سنة ١٦٩١ ، مؤلفات لوك ، لندن ١٧٧١ حـ ٢ ص ٢٨ . وفى القرن السابع عشر استمر كثير من المؤلفين الانجليز يستعملون كلة worth مقابل القيمة الاستعمالية وكلة Value للقيمة التبادلية .

وهذا يتفق مع عبقرية تلك اللغة التى تفضل كلة انجلو سكسونية على الشيء الواقعى .

(٢) فى المجتمع البورجوازى تسود « الخرافة القانونية » القائلة بأن لكل انسان بصفته مشترللسلع معرفة واسعة بها.

(٣) « تنحصر القيمة فى نسبة التبادل بين شيء وآخر ، أى بين كمية معلومة من منتج وكمية معلومة من منتج آخر » (باريس ١٨٤٦ ص ٨٨٩) Le Trosne ; De L'Interet Social

(٤) لا شيء يمكن أن تكون له قيمة حقيقية » باريون ص ١٦ (المصدر المشار اليه) أو كما قال بتلر : قيمة الشيء بمقدار ما يأتى به .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأمر بطريقة أقرب إلى التحديد .

لنفرض أننا نبادل سلعة ما ولتكن ربعاً من القمح بكمية قدرها س من البوية السوداء ، ص من الحرير ، ع من الذهب الخ ، وبعبارة أخرى نبادلها بسلع أخرى بأشد النسب اختلافا . فبدلا من أن تكون للقمح قيمة تبادلية واحدة نجد له قيما عدة . ولما كانت س من البوية ، ص من الحرير ، ع من الذهب يمثل كل منها القيمة التبادلية للربع من القمح ، ترتب على هذا أن س من البوية ، ص من الحرير ، ع من الذهب — بوصفها قيماً استعمالية يجب أن تكون قابلة للتبادل قيما بينها أى يكون كل منها مساويا للآخر . ومن ذلك نستخلص أمرين : أولهما أن القيم التبادلية الحقيقية لسلعة ما متساوية كل منها بالنسبة إلى الأخرى ، وثانيهما أن القيمة التبادلية يجب أن تكون الطريقة التى تعبر عن شيء تحتويه السلعة أو تكون الشكل الذى يبدو به هذا الشيء ، وإن كان متميزاً عن السلعة .

وإذا فرضنا سلعتين كالقمح والحديد فإن نسب تبادلهما مهما كانت هذه السلع يمكن أن نمثلها دائما بمعادلة تكون فيها كمية ما من القمح مساوية لكمية ما من الحديد . فمثلا قد تكون المعادلة هكذا : ربع من القمح يساوى س هندردويت من الحديد . فما الذى تدل عليه هذه المعادلة ؟ إنها تدل على أنه فى شيئين مختلفين وهما ربع من القمح ، س هندردويت من الحديد يوجد شيء مشترك بينهما بمقادير متساوية . وعلى ذلك فهما مساويان لشيء ثالث يختلف عنهما من حيث الجوهر . وإذن يجب إرجاع كل منهما ، من حيث كونه قيمة تبادلية ، إلى هذا الشيء الثالث .

ولعل مثلا هندسياً بسيطاً قد يزيد الأمر وضوحاً . فالمعلوم أنه لإمكان حساب مساحات الأشكال المستطيلة وموازنتها بعضها ببعض نعمد إلى تقسيمها مثلثات . ولكن مساحة المثلث يمثلها شيء مخالف للشكل المنظور فهى تساوى نصف القاعدة فى الارتفاع . وبالطريقة ذاتها يجب أن يكون فى المستطاع التعبير عن القيم التبادلية بعبارات مشتركة بالنسبة إليها جميعاً . وهذا الشيء المشترك لا يمكن أن يكون أية خاصية هندسية أو كيماوية أو طبيعية للسلع ، إذ هذه الخواص إنما تسترعى انتباهنا من حيث أنها تؤثر فى منفعة هذه السلع أى تجعلها « قيما استعمالية » . ولكن تبادل السلع عملية تتميز بالتجرد التام عن القيمة الاستعمالية . وإذن فالقيمة الاستعمالية الواحدة صالحة كأى غيرها على شريطة توافرها بالقدر الكافى ، أو كما يقول باربون « إن أى نوع من السلع صالح كالآخر إذا تساوت القيم ، وليس هناك اختلاف أو تمييز بين

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأشياء المتساوية القيمة . فما قيمته ١٠٠ جنيه من الرصاص أو الحديد [١] ذو قيمة تسرى كما للشيء الذى قيمته ١٠٠ جنيه من الفضة أو الذهب » . فالسلع من حيث كونها قيماً استعمالية ذات صفات مختلفة ، ومن حيث كونها قيماً تبادلية لاتزيد عن كونها مقادير مختلفة وبذا لاتحتوى مطلقا على ذرة من القيمة الاستعمالية .

حين نسقط من الحساب القيم الاستعمالية للسلع لا يتبقى لدينا إلا خاصية واحدة مشتركة بالنسبة اليها جميعا وهى خاصية كونها منتجات عمل . ولكن حتى منتج العمل نفسه قد تعرض للتغيير فى أيدينا . وإذا كنا بواسطة عملية التجريد هذه نتجاهل قيمة هذا المنتج الاستعمالية فإننا نتجاهل أيضاً العناصر والاشكال المادية التى تجعله قيمة استعمالية . فهو لايعود فى نظرنا مائدة أو بيتاً أو غزلا أو أى شيء نافع ، وتزول كافة الصفات التى بها يؤثر فى حواسنا ، ولا يعود منتج عمل النجار أو البناء أو الغزال ، أى ثمرة نوع مخصوص من العمل الإنتاجى . حين تزول الصفة النافعة لمنتجات العمل تزول كذلك الصفة النافعة للعمل المتجسم فى هذه المنتجات ، والنتيجة أن تختفى كذلك مختلف الأشكال المادية للعمل ، ولا يعود في الإمكان تمييز أحدها عن الآخر . وترجع جميعها إلى نوع متماثل من العمل الإنسانى وهو العمل الانسانى المجرد المعنوى.

ولنبحث الآن هذا المتخلف من منتجات العمل . إنه لايتبقى إلا ذلك الكلى غير المادى المذكور آنفاً ، ويراد بذلك بذل قوة عمل إنسانى بغض النظر عن طريقة البذل . وكل ما يهم الآن فى منتجات العمل هو أن قوة عمل إنسانى قد بذلت فى إنتاجها ، وأن قوه عمل إنسانى مخزونة فيها . وبوصفها بلورات لهذا الجوهر الاجتماعى المشترك بالنسبة إليها جميعاً فإنها تكون قيما — أى قيم سلع .

فى النسبة التى تتم بها التبادل بين السلع بدت قيمتها التبادلية كشيء مستقل تماماً عن قيمتها الاستعمالية . فإذا أغفلنا القيمة الاستعمالية لمنتجات العمل لوصلنا إلى قيمة هذه المنتجات كما عرفناها آنفا . وفى الواقع إن قيمة السلع هى العنصر المشترك الذى يكشف عنه الغطاء فى نسبة التبادل أو القيمة التبادلية للسلع . وكلما تقدم بنا البحث سنوضح أن القيمة التبادلية هى الشكل الوحيد الذى تبدو به قيم السلع أو الذى يمكن أن نعبر به عنها . والذى يعنينا الآن البحث فى طبيعة أو شكل القيمة منفصلة عن هذا . إن القيمة الاستعمالية أو الشيء النافع ذو قيمة لأنه يتضمن عملا إنسانياً . فكيف نقيس هذه القيمة ؟ واضح أن يكون ذلك بمقدار

---

(١) باربون ص ٥٣ ، ٥٧ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمل أى المادة التى تخلق القيمة . وتقاس كمية العمل ذاتها بمدته ، وهـــذا الأمر لا يحسب بالأسابيع والأيام والساعات .

ولما كانت قيمة السلعة يعيّنها مقدار العمل المبذول أثناء إنتاجها ، لهذا قد يتراءى للبعض أنه كلما زاد خمول العامل وقلت خبرته زادت قيمة السلعة التى ينتجها لأنه يستنفد فى إنتاجها مقداراً أكبر من الوقت . ولكن الذى يخلق جوهر القيمة عمل إنسانى متجانس أى بذل قوة عمل متجانسة . والمجموع الكلى لقوة عمل المجتمع كما يتمثل فى القيمة الإجمالية لكافة السلع التى ينتجها المجتمع يحسب هنا ككتلة متجانسة من الطاقة الإنسانية على العمل وإن كان مكونا من وحدات مفردة لا عداد لها . وكل وحدة من وحدات قوة العمل تماثل الأخرى من حيث أن لها خواص متوسط قوة العمل الاجتماعية . ووقت العمل اللازم فى ظل أحوال اجتماعية معينة هو ما يُحتاج اليه لإنتاج سلعة فى الظروف العادية وبالدرجة العادية من المهارة والحدة السائدتين فى ذلك الوقت . فإدخال الأنوال البخارية ربما خفض إلى النصف العمل اللازم لنسج كمية معلومة من الغزل . وكان الناسج الفردى يحتاج إلى نفس مقدار الوقت كما كان الحال قبل استخدام القوة البخارية فى صناعة النسج ، ولكن منتج ساعة من عمله فى ظل الأحوال القديمة كان يمثل منتج نصف ساعة من متوسط العمل الاجتماعى فى عهد الأحوال الجديدة ، وبذلك صارت قيمته نصف ما كانت عليه من قبل . فالذى يعين حجم قيمة القيمة الاستعمالية إنما هو مقدار تحتويه من العمل اللازم فى أحوال اجتماعية معينة أو من وقت العمل الاجتماعى اللازم لإنتاجها [١] . وكل سلعة مفردة يمكن اعتبارها فى هذا المقام كعينة متوسطة تمثل جنسها كله [٢] وإذن فالسلع التى تحتوى على مقادير متساوية من العمل أو التى يمكن إنتاجها فى نفس الوقت تكون ذات حجم واحد من القيمة . فالنسبة بين قيمتى سلعتين تماثل النسبة بين فترتين من وقت العمل الضرورى الذى يستغرقه إنتاجهما ، إن السلع من حيث كونها

---

(١) ,, وقيمتها (أى ضروريات الحياة) حين مبادلتها الواحدة بالأخرى تنظمها كمية العمل اللازمة بالضرورة لانتاجها،، Some Thoughts on the Interest of Money in general. and particularly in the public Funds والمصدر الذى اقتبسنا منه هذه العبارة (ص٣٦) غير معلوم مؤلفه وليس على غلافه تاريخ ، وقد نشر فى لندن خـــلال عهد جورج الثانى . ويبدو من الدليل الباطنى أن عام النشر ربما كان ١٧٣٩ أو ١٧٤٠ .

(٢) ,,جميع منتجات نفس الفن الواحد تكون مجموعة واحدة تعين ثمنها الاعتبارات العامة دون مراعاة الظروف الخاصة . Le Trosne, op. cit. p. 6

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

قيماً ليست سوى مجموعات معينة من وقت العمل المتجمد Congealed »[1]

يظل حجم قيمة أية سلعة ثابتاً إذن إذا ظل وقت العمل اللازم لإنتاجها ثابتاً ، ولكن الأخير يتغير تبعاً لأى تغيير فى إنتاجية العمل ، وهذه الإنتاجية تحددها ظروف مختلفة مثل المقدار العادى من مهارة العامل ، وحالة العلم ، ومدى تطبيقه العملى ، والتنظيم الاجتماعى للانتاج ، ومدى وطاقة وسائل الإنتاج ، ثم الأحوال الطبيعية . ولنضرب مثلا يوضح ذلك . فمقدار معين من العمل قد تمثله ٨ بوشل من القمح فى الفصل المناسب ، ٤ بوشل فى الفصل غير المناسب ، وبنفس المقدار من العمل تستخرج من المنجم الغنى كمية من المعدن الخام أكثر منها فى حالة المنجم الفقير . فندرة الماس على وجه الأرض راجعة إلى أن كشفه يتطلب فى المتوسط قدراً كبيراً من وقت العمل ، وبهذا يتمثل لنا عمل كثير فى حيز أو نطاق ضيق . ويشك يعقوب أن الذهب يشترى بقيمته الكاملة ، وينطبق نفس الشىء على الماس . وقدر إشفيج أن الانتاج الكلى من الماس بمناجم البرازيل خلال الثمانين عاماً المنتهية سنة ١٨٢٣ لم يحقق ثمن إنتاج عام ونصف عام من مزارع السكر والبن فى نفس البلاد مع أن الماس تطلب عملا أكثر واذن مثّل قيمة أعظم. وفى حالة المناجم الغنية يؤدى نفس القدر من العمل إلى إنتاج كمية أكبر من الماس مما يهبط بقيمة الأخير . ولو أمكن باتفاق مقدار قليل من العمل أن نحول الكربون إلى الماس لكانت قيمة الأخير أقل من قيمة الطوب . وعلى وجه العموم كلما زادت إنتاجية العمل ، قل الوقت اللازم لإنتاج السلعة ، ونقص مقدار العمل المتمثل فيها وهبطت قيمتها ، وبالعكس كلما قلت إنتاجية العمل زاد مقدار وقت العمل اللازم لإنتاج السلعة ، وارتفعت قيمتها تبعاً لذلك . وهكذا نرى أن قيمة السلعة تختلف اختلافاً مباشراً حسب العمل المتمثل فيها ، واختلافاً عكسياً تبعاً للانتاجية .

ومن الممكن أن يكون الشىء قيمة استعمالية دون أن تكون له قيمة وهذا هو الشأن حيث لا تكون منفعة الشىء للانسان راجعة إلى العمل . ومن أمثلة هذا الهواء والأرض العذراء والمراعى الطبيعية الخ . وقد يكون الشىء نافعاً وثمرة عمل إنسانى دون أن يكون سلعة . فأى امرىء يشبع حاجياته المباشرة بنتاج عمله يخلق فى الواقع قيمة استعمالية ولكنه لا يخلق سلعاً . أما إذا شاء إنتاج الأخيرة فعليه أن ينتج قيماً استعمالية للغير أى قيماً استعمالية اجتماعية . وأخيراً لا يمكن أن تكون للشىء قيمة بغير أن يكون ذا منفعة . فإذا كان الشىء عديم المنفعة كان العمل المتمثل فيه عديم الفائدة كذلك ، وعمل من هذا القبيل لا يمكن أن يحسب عملا بالمعنى الحقيقى ، وبذلك لا يستطيع أن ينتج قيمة .

(١) كارل ماركس (مصدر سبقت الاشارة اليه) ص ٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

٢ — الصفة المزدوجة للعمل الذى تتضمنه السلع

رأينا فى البداية أن السلعة مركبة من شيئين وهما القيمة الإستعمالية والقيمة التبادلية ، ثم اتضح بعد ذلك أن العمل من حيث تعبيره القيمة عنه ، يكتسب خواص تختلف عن تلك التى يتميز بها العمل بصفته منتج قيم إستعمالية . وقد كنت أول من أوضح وناقش هذه الصفة المزدوجة للعمل المتجسم فى السلع (١) . ونرى لزاماً علينا أن نولى الأمر قدراً أعظم من الدقة إذ على إدراك هذا يدور فهم الإقتصاد السياسي .

لنضرب مثلا بسلعتين كرداء وعشر ياردات من التيل ، ونفرض أن قيمة الأول تساوى ضعف قيمة الثانية بمعنى أنه إذا كانت الياردات العشر من التيل = و فإن الرداء = ٢ و .

والرداء قيمة استعمالية ويشبع حاجة مخصوصة ، ولا بد لإنتاجه من نوع خاص من النشاط الإنتاجي ، وطبيعة هذا النشاط يعينها الهدف منه وطريقته فى العمل ومادته ووسائله ونتيجته . والعمل الذى تتمثل منفعته هكذا فى القيمة الإستعمالية للمنتَج أو العمل الذي يبدو على هذا النحو من جعل منتجه قيمة استعمالية ، نقول إن هذا العمل تطلق عليه عبارة «العمل النافع» الموجزة . ومن وجهة النظر هذه ينظر إلى العمل دائماً من حيث أثره أو نتيجته أي من حيث أنه منتج للمنفعة . وكما أن الرداء والتيل قيمتان استعماليتان مختلفتان من حيث الكيف فكذلك الحال بالنسبة إلى شكل العمل الذى ينتجهما على التوالي (وهما الحياكة والنسيج) ولو أن هذين الشيئين قيمتان استعماليتان متفاوتتان من حيث النوع ، ولولا أنهما تبعاً ذلك منتجا شكلين من العمل النافع مختلفين من حيث الكيف ، لما أمكن لهما أن يواجه أحدهما الآخر كسلع . إننا لانبادل الأردية بمثلها ، كما أننا لا نبادل قيمة استعمالية بأخرى من نفس نوعها .

وفى المجموع الكلي من القيم الإستعمالية المختلفة أو السلع يتجسم مجموع كلى من أشكال متفاوتة بالمثل من العمل النافع . ويمكن تقسيم أنواع العمل النافع إلى أجناس وأنواع فرعية وفصائل ، ذلك أن هناك تقسيما اجتماعياً للعمل . وتقسيم العمل هذا ضرورى لإنتاج السلع ولو أنه بالعكس ليس من الصحيح أنه لا يوجد تقسيم اجتماعى للعمل فى حالة عدم وجود إنتاج السلع فإنا نلقى بين المجتمعات البدائية فى الهند تقسيما اجتماعياً للعمل ولكن منتجات إنتاج هذه المجتمعات لاتصبح سلعاً . ولدينا مثال أقرب إلينا من ذلك ، ونقصد به وجود تقسيم منظم للعمل فى كل مصنع وإن لم يكن السبب فيه تبادل المنتجات الفردية بين عمال المصنع .

(١) كارل ماركس (مصدر سابق) ص ١٢ ، ١٣ الخ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وإن المنتجات الوحيدة التى تقف كسلع إزاء بعضها البعض لهى المنتجات التى تنتجها مشروعات كل منها مستقل بدوره عن الآخر . علمنا إذن أن فى القيمة الاستعمالية لكل سلعة يتجسم نشاط محدود المقدار والهدف وإنتاجى ، أو بعبارة أخرى يتجسم فيها عمل نافع . ولا تستطيع القيم الاستعمالية أن يواجه كل منها الأخرى على هيئة سلع إلا إذا احتوت على أشكال من العمل النافع مختلفة من حيث الكيف . فى المجتمع الذى تتخذ منتجاته بوجه عام هيئة سلع أى فى مجتمع من منتجى السلع ، فإن هذه التفرقة النوعية للأشكال النافعة من العمل والتى تقوم بها مشروعات كل منها مستقل بدوره عن الآخر ، تنمو وتتطور فتصبح نظاماً معقداً أى تقسيماً اجتماعياً للعمل .

إن الرداء يحقق الغرض منه سواء ارتداه الحائك الذى صنعه أم أحد عملاء ذلك الحائك ، فهو فى أى الحالتين يؤدى وظيفة القيمة الاستعمالية ، كما أن العلاقة بين الرداء والعمل الذى ينتجه لا تتأثر إذا أصبحت الحياكة حرفة خاصة وفرعاً مستقلا من التقسيم الاجتماعى للعمل . فقد دفعت الحاجة إلى الملبس بالانسان إلى صنع الأردية قبل أن يصبح أى إنسان حائكا بآلاف السنين . ولكن وجود الرداء والتيل وكافة مقومات الثروة المادية بخلاف ما تهبه الطبيعة . إنما يسببه نوع مخصوص من العمل الإنتاجى ذى الهدف المحـــدود أى العمل الذى يطابق بين هبات طبيعية مخصوصة وحاجات إنسانية مخصوصة . فالعمل بصفته خالق للقيم الإستعمالية وبصفته عمل نافع ، شرط ضرورى لوجود الإنسان ؛ وهو بصفته مستقل عن أشكال المجتمع البشرى عبارة عن ضرورة أملتها الطبيعة ذاتها على مر العصور إذ بدونه لا يمكن إجراء تبادل المادیات بين الإنسان والطبيعة ، وبكلمة واحدة تستحيل بدونه الحياة .

والقيم الاستعمالية كالرداء والتيل والسلع بوجه عام تتكون من عنصرين هما المادة والعمل . وحين نستبعد المقدار الكلى لمختلف أنواع العمل النافع المتجسمة فى الرداء والتيل أو أية سلعة أخرى تتبقى لدينا دائماً طبقة مادية سفلية قدمتها الطبيعة بغير معونة من الإنسان . وفى أثناء عملية الإنتاج ليس للانسان إلا أن يحذو حذو الطبيعة أى يغير أشكال المادة(١) .

---

(١) « ان الظواهر العالمية سواء منها ما أنتجته يد الانسان أو ما تولد عن القوانين العالمية العامة فى الطبيعيات تعطى جميعاً فكرة واحدة لا عن الخلق الفعلى وانما فقط عن تعديل فى المادة . فالتوحيد من الأشياء والفصل بينها هما العنصران الوحيدان اللذان يمكن لذكاء الانسان أن يكشفهما حين يحلل فكرة الانتاج بما فى ذلك انتاج القيمة أو الثروة - سواء كان الأرض والهواء والماء تتحول فى الحقول الى حب ، أو أن يد الانسان تحول

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وأكثر من هذا فإنه يلقى المساعدة باستمرار من قوى الطبيعة فى عمله هذا وهو تحويل أشكال المادة . وإذن يتضح لنا أن العمل ليس المصدر الوحيد للقيمة الإستعمالية التى ينتجها ، كما أنه ليس كذلك مصدر الثروة المادية الوحيد . وقد عبر وليم بتى عن ذلك بقوله إنه إذا كان العمل أب الثروة المادية فإن الأرض أمها .

ولننتقل الآن من موضوع السلعة من حيث اعتبارها شيء له منفعة إلى البحث فى قيمة السلعة . فرضنا فى المثل الذى أوردناه أن للرداء ضعف قيمة التيل ، وعلى كل فهذا مجرد اختلاف من حيث الكم ولا يعنينا فى هذا المقام . فإذا كان الرداء يعادل ضعف عشر ياردات من التيل من حيث القيمة ، كان حجم قيمة عشرين ياردة مساوياً لحجم قيمة رداء واحد . والرداء والتيل من حيث كونهما قيم من نفس الجوهر أى أنهما تعبيران موضوعيان لنفس النوع الواحد من العمل . ولكن الحياكة والنسج نوعان من العمل يختلفان من حيث الكيف ، ومع هذا فثمت نواح من الحياة الاجتماعية يقوم فيها المرء بالحياكة حيناً وبالنسج حيناً آخر . وفي تلك الحالة لا يكون هذا النوعان المختلفان من العمل سوى صور معدلة من عمل يقوم به نفس الفرد بدلا من أن يكونا وظيفتين خاصتين ودائمتين لأفراد مختلفين ، وهذا شبيه بكون الرداء الذى يصنعه الحائك فى يوم والسراويل التى يصنعها فى اليوم التالى صور مختلفة لنفس العمل الفردى . وواضح فضلا عن هذا أنه فى مجتمعنا الرأسمالى وطبقاً للتغييرات فى الطلب على العمل قد يقوم قدر معلوم من العمل الانسانى على هيئة الحياكة مرة والنسج مرة أخرى . ولا مراء أن هذا التغيير فى شكل العمل قد يصحبه احتكاك ولكنه أمر لابد منه برغم هذا . وإذا غضضنا النظر عن الشكل الخاص للنشاط الانتاجى وتجاهلنا بالتالى منفعة العمل ، فإن جوهر هذا النشاط الانتاجى ينحصر فى أنه بذل لقوة العمل الانسانية . فالحياكة والنسج ، برغم كونهما عملين إنتاجيين مختلفين من حيث الكيف ، هما بذل لقوة الانسان العقلية وأعصابه وعضلاته وأيديه الخ بطريقة إنتاجية ، وبهذا المعنى يكون كلاهما عملا إنسانياً . إنهما مجرد طريقتين مختلفتين لبذل قوة العمل الإنسانية . وبطبيعة الحال يجب أن تكون قوة

ماتفرزه الحشرة الى حرير وقطيفة ، أو أن قطعاً من المعدن تصنع منها ساعة Pietro Verri, Meditazioni sulla economica politica (نشر لأول مرة سنة ١٧٧٢ فى طبعة كستودى عن الاقتصاديين الطليان ، القسم الحديث — ١٥ ص ٢٢) . حين يتحدث فيرى عن ,, القيمة ،، فى القطعة التى اقتبسناها فانه يقصد ,, القيمة الاستعمالية ،، وان كان لايدرى نفسه الى أى نوع من القيمة يشير فى كلامه فى ذلك النقد الموجه الى الطبيعيين .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمل الانسانية هذه على جانب كبير أو صغير من التطور والنمو قبل أن يكون فى الإمكان بذلها بأشكال متفاوتة . ولكن قيمة أية سلعة تمثل عملا إنسانياً غير مخصوص ، وإنما تمثل عملا إنسانياً ذا طابع عام . وكما أنه فى المجتمع البورجوازى يقوم القائد العام أو المصرف بدور كبير بينما يؤدى « النفر » دوراً صغيراً(١)، فكذلك الشأن بالنسبة إلى العمل الانسانى . فهو بذل لقوة عمل بسيطة مما يتوافر فى المتوسط للعامل العادى بدون نمو خاص فى ملكاته ومواهبه . إن متوسط العمل البسيط يختلف بلا شك من حيث صفته من بلد إلى آخر ومن عصر ثقافى إلى آخر ، ولكنه ثابت فى أى جماعة معلومة . أما العمل الحاذق فنوع من العمل البسيط مضعّف أو أكثر حدة وكثافة ، بحيث أن مقداراً أصغر من العمل الحاذق مساو لكمية أكبر من العمل البسيط ، وأظهرت التجربة أن من الممكن دائماً إرجاع العمل الحاذق إلى أساس من العمل البسيط . وسواء كانت السلعة منتج أشد أنواع العمل حذقاً فإن فى الامكان معادلة قيمتها إلى قيمة منتج العمل البسيط بحيث أنها تمثل مجرد مقدار محدود من العمل البسيط(٢). والنسب المتفاوتة التى يمكن طبقاً لها إرجاع أنواع العمل المختلفة إلى مستوى من العمل البسيط ، تعينها عملية اجتماعية تجرى من وراء ظهر المنتجين وتبدو بالنسبة لهم أمراً أقره العرف والتقليد . وسنعمل فيما يلي على تبسيط الأمر وذلك بأن نعد كل نوع من قوة العمل قوة عمل بسيطة .

حين ننظر إلى الرداء والتيل كقيم فاننا نتجاهل الفوارق فى قيمهما الاستعمالية . وبالمثل حين نبحث العمل المتجسم فى هذه القيم نتجاهل الفوارق فى نوع المنفعة ، كتلك الفوارق بين شكلين مختلفين من العمل النافع كالحياكة والنسج . وكما أن القيم الاستعمالية ، الرداء والتيل ، ارتباطات بين الأعمال الإنتاجية ذات الهدف المحدود وهى القماش والغزل على التوالى ، بينما القيم رداء وتيل مجرد مجموعات متجانسة من عمل ليس فيه مميزات أو فوارق ، فكذلك ترجع أهمية مجموعات ما تتضمنه هذه القيم من عمل إلى كونها بذل لقوة عمل إنسانية لا إلى كونها ذات علاقة إنتاجية بالقماش أو الغزل . إن الحياكة والنسج عناصر تشترك فى إنتاج القيم الاستعمالية الرداء والتيل ، وذلك بسبب أن نوعى العمل النافع يختلفان

(١) Hegel : Philosophie des Rechts. برلين ١٨٤٠ ص ٢٥٠ بند ١٩٠

(٢) ترجو القارىء أن يلاحظ أننا هنا لا نناقش الأجور أو القيمة التى يحصل عليها العامل مقابل يوم عمل يؤديه ، وانما نبحث قيمة السلعة التى تنطوى على عمله فى اليوم . انه لا شأن لنا بالأجور فى هذه المرحلة من البحث .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من حيث الكيف ، ولكنهما أجزاء فى تكوين قيمة الرداء وقيمة التيل وذلك من حيث إغفال صفتيهما النوعيتين كالحياكة والنسج ومن حيث اشتراكهما فى نفس الصفة وهى أنهما عمل إنسانى .

وعلى كل ليس الرداء والتيل مجرد قيم بالمعنى العام ، بل انهما قيم ذات حجم محدود . وحسب الفرض الذى أوردناه يساوى الرداء ضعف قيمة عشر ياردات من التيل . فمن أين ينشأ هذا الاختلاف فى حجم قيمهما ؟ يرجع هذا الاختلاف إلى أن القطعة ذات الياردات العشر من التيل تنطوى على نصف العمل الذى يتضمنه الرداء ، ومعنى هذا أنه لإنتاج الرداء احتاج الأمر إلى بذل قوة عمل خلال وقت ضعف ذلك الذى تطلبه إنتاج التيل . وإذن بينما نجد فى حالة القيمة الاستعمالية للسلعة يحسب العمل المتجسم فيها من ناحية الكيف فقط ، فانه يحسب فى حالة حجم قيمة السلعة من حيث الكم فقط بعد إرجاعه إلى معيار من العمل الإنسانى البحت والبسيط . وفى الحالة الأولى نعنى بطريقة العمل وسببه ، وفى الحالة الثانية نعنى بمدة دوام العمل وأن نجيب على السؤال « إلى متى ؟ » . وبما أن حجم قيمة السلعة لا يمثل إلا مقدار العمل المجسم فيها يتبع ذلك أن النسب الملاءمة لمختلف السلع لها قيم ذات حجم متساو . إذا ظلت القوة الانتاجية (لأنواع العمل النافع المختلفة واللازم لإنتاج رداء) بدون تغيير ، لزاد الحجم الكلى لقيم عدد من الأردية تبعاً للزيادة فى عددها . فلو كان رداء واحد يمثل عمل س من الأيام كان رداءان يمثلان عمل ٢ س من الأيام وهكذا . ثم لنفرض بعد ذلك أن مقدار العمل اللازم للانتاج قد ضوعف أو أنقص إلى النصف . فلو أنه ضوعف لأصبح الرداء الآن يساوى ضعف ما كان يساويه من قبل ، وإذا أنقص إلى النصف ترتب على ذلك أن الردائين يساويان قيمة رداء واحد من قبل . ولكن الرداء فى أى الحالتين يؤدى مهمته كما كان قبلا ، والعمل المجسم فيه من نفس الجودة السابقة . فالذى تغير إذن هو مقدار العمل المبذول فى إنتاج الرداء .

والزيادة فى كمية القيمة الاستعمالية زيادة فى الثروة المادية ، فالرداءان أكثر من الرداء الواحد ، وهما يكفيان لرجلين بينما الرداء الواحد يكفى شخصاً واحداً فقط . ومع هذا فقد تحدث الزيادة فى تعداد الثروة المادية بينما يهبط حجم قيمة هذه الثروة . هذه الحركة المتناقضة مترتبة على صفة العمل المزدوجة . والقوة الانتاجية بطبيعة الحال وفى كافة الحالات هى القوة الإنتاجية للعمل المادى المجسم ، ولكنها فى الواقع الفعلى تعين فقط كفاية العمل الانتاجى المقصود فى فترة معلومة من الوقت . وهكذا يصبح العمل النافع مصدراً

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أكبر أو أصغر للمنتجات طبقاً لازدياد أو نقص قوته الانتاجية . ومن جهة أخرى لايستطيع أى تغيير بذاته فى القوة الانتاجية أن يؤثر فى العمل الذى يتمثل فى القيمة . ولما كانت القوة الانتاجية تنتمى إلى الشكل النافع المادى للعمل ، لهذا لا يكون لها تأثير على العمل إذا اعتبرناه من الوجهة المجردة ومستقلا عن شكله النافع المادى . ففى فترات الزمن المتساوية يولد نفس العمل أحجاماً متساوية من القيمة مهما كان مبلغ اختلاف القوة الانتاجية . ولكن فى الفترات المتساوية من الزمن يولد نفس المقدار من العمل مقادير متفاوتة من القيمة الاستعمالية فهذه تزداد بازدياد القوى الإنتاجية وتهبط بنقصها . ونفس التغيير في القوة الانتاجية والذى يزيد غلة العمل وبالتالى يزيد مقدار القيم الاستعمالية المتولدة عنها ، يؤدى إلى نقص حجم قيمة هذه الكتلة الكلية التزايدة إذا كان يقلل من المجموع الكلى لوقت العمل اللازم لإنتاج هذه الكتلة والعكس صحيح غاية الصحة كذلك .

إن جميع العمل الإنسان من الوجهة الفسيولوجية عبارة عن بذل لقوة عمل انسانية ، وعلى ذلك فبصفته عمل إنسانى متجانس أو معنوى يخلق قيمة السلع . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كل عمل عبارة عن بذل لقوة عمل إنسانية فى شكل مخصوص مقصود، وعلى ذلك بوصفه عمل نافع مادى يولد قيما استعمالية(١).

---

(١) ولا ثبات أن العمل ، والعمل لا غير ، هو المقياس النهائى والفعلى الذى يمكن به دائماً قياس قيمة السلع وموازنتها ، كتب آدم سميث يقول : ,, فى كافة الأوقات والأماكن يجب أن يكون للمقادير المتساوية من العمل نفس القيمة للعامل . فاذا كان فى حالة عادية من الصحة والقوة والنشاط وعلى قدر متوسط من المهارة ، فانه يجب أن يقـــدم دائماً نفس الجزء من راحته وحريته وسعادته ،، (Wealth of Nations الكتاب الأول ، الفصل الخامس) . ومن جهة أخرى يخلط آدم سميث هنا (لا فى كل مكان) بين تعيين القيمة بواسطة مقدار العمل المبذول فى انتاج السلعة . وبين تعيين قيم السلع بواسطة قيمة العمل ، وهكذا يحاول أن يثبت أن المقادير المتساوية من العمل نفس القيمة دائماً . ومن جهة أخرى تجد لديه ادراكاً ضئيلا للحقيقة التالية وهى أن العمل من حيث كونه مجسم فى قيمة السلع لا يحسب الا كبذل لقوة العمل ، ولكنه لا يرى فى هذا البذل أكثر من التضحية بالراحة والحرية والسعادة بدلا من أن ينظر اليه على أنه النشاط العادى من جانب المخلوقات الآدمية . وسلف سميث الذى سبق أن اقتبست منه يصيب الهـدف خيراً منه حين يقول (نفس المصدر ص ٢٩) ,, لقـــد شغل رجل واحد نفسه أسبوعاً فى اعـداد هذا الشىء الضرورى للحياة ... والشخص الذى يعطيه آخر بالتبادل لا يمكن أن يجد مقياساً لتقدير معادل صحيح أكثر من حسبان مقدار ما تكلف من عمل ووقت ، وهذا فى الحقيقة لا يزيد عن كونه تبادل بين عمل امرىء فى شىء ما لوقت معين وبين عمل شخص آخر فى شىء ما لنفس الوقت ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

٣ — شكل القيمة أو القيمة التبادلية

تأتى السلع إلى العالم على هيئة قيم استعمالية ، كالحديد والتيل والقمح وما إليها ، وهذا هو شكلها الطبيعى الصريح المباشر . ومع هذا فهى سلع وذلك بفضل صفتها المزدوجة أى لكونها أشياء نافعة ومستودعات للقيمة فى نفس الوقت . ويترتب على هذا أن ظهورها بمظهر السلع أو اتخاذها هذا الشكل لا يكون إلا بقدر ما يكون لها شكل مزدوج ، ويقصد بذلك الشكل الجسمى والشكل الذى يمثل القيمة . ومن هنا نجد أن حقيقة قيمة السلع تشبه السيدة كويكلى التى قال عنها فولستاف «لايدرى الانسان من أين يأتى بها» . وحقيقة قيمة السلع تباين حقيقتها المادية الكلية (ويراد بهذه الحقيقة التى ندركها بحواسنا) وينحصر هذا التباين فى أن حقيقة القيمة لا تدخل فيها ذرة من المادة . وقد تقلب السلعة ذات اليمين وذات الشمال، ولكنها كشىء ذى قيمة تظل حواسنا الجسمانية عاجزة عن تقديره وإدراكه . ولنذكر مع هذا أن السلع لا تتضمن حقيقة القيمة إلا من حيث أنها الصور التى تعبر عن نفس الوحدة الاجتماعية الواحدة وهى العمل الانسانى . وبما أن حقيقة قيمة السلع اجتماعية بحتة فمن الواضح أن هذه الحقيقة لا تظهر إلا فى العلاقة الاجتماعية بين سلعة وأخرى . لقد بدأنا فى الحقيقة من القيمة التبادلية أو نسبة تبادل السلع لكى نصل إلى القيمة المستترة فى هذه السلع ، وعلينا الآن أن نرجع إلى هذا الشكل الظاهرى للقيمة .

نعلم جميعاً أن للسلع شكل قيمة مشتركا بالنسبة إليها جميعاً وهذا هو الشكل النقدى ، والشكل النقدى يباين بوضوح الأشكال الجسمية المتعددة الجوانب لقيم السلع الاستعمالية . ولكن هنا تواجهنا مهمة لم يحاول الاقتصاد البورجوازى الاضطلاع بها مطلقاً . فعلينا أن نكشف منشأ الشكل النقدى ، وأن نتتبع تطور تعبير القيمة الذى تتضمنه نسبة القيمة بين السلع ، وأن نتتبع هذا من أبسط صورة وأقلها وضوحاً إلى الشكل النقدى البارز . وهكذا لا تعود النقود لغزاً كما تبدو .

إن أبسط نسبة قيمة هى فى الظاهر الجلى نسبة القيمة بين سلعة وأخرى تخالفها فى النوع مهما كان هذا النوع . وعلى ذلك فالنسبة بين قيمتى سلعتين تمدنا بأبسط تعبير عن قيمة سلعة منهما .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ا ـــ الشكل الأولى أو المنعزل أو العرضى للقيمة .

نكتب أن س سلعة ا = ص سلعة ب أو نقول أن س سلعة ا «تساوى» ص سلعة ب .

وللتعبير عن هذا بصورة مادية مجسمة نكتب ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد أو نقول إن ٢٠ ياردة من التيل « تساوى » رداء واحداً .

ا ـــ ب ـــ قطبا تعبير القيمة : شكل القيمة النسبى والشكل المعادل .

إن السر كله الذى ينطوى عليه شكل القيمة يختفى فى هذا الشكل الأولىّ ، وإن تحليله لأول الصعاب التى تجابهنا .

يلعب ا ، ب وهما نوعا السلعة المختلفان ، دورين مختلفين . فالتيل يعبر عن قيمته فى الرداء ، ومهمة الرداء أنه أداة التعبير عن هذه القيمة ؛ وهكذا تلعب السلعة الأولى دوراً إيجابياً بينما تقوم الثانية بدور سلبى . وتُعرض قيمة السلعة الأولى أمامنا على أنها نسبية أو مقارنة أو تبدو فى شكل نسبى ، أما السلعة الثانية فتقوم بوظيفة المعادل أو تبدو فى شكل معادل .

فالشكل النسبى للقيمة والشكل المعادل عاملان يتوقف كل منهما على الآخر ، ويعين كل منهما الآخر ، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر ، ولكنهما فى الوقت ذاته طرفان متباينان أو قطبان متضادان فى نفس تعبير القيمة ، فهما خاصان بنوعين مختلفين من السلع على التوالى وهما النوعان اللذان يقيم تعبير القيمة علاقة بينهما . فأنا لا أستطيع التعبير عن قيمة التيل بالتيل ، وقولك ٢٠ ياردة من التيل = ٢٠ ياردة من التيل ليس بتعبير عن القيمة، وكل ما تدل عليه هذه المعادلة أن ٢٠ ياردة من التيل ليست سوى ٢٠ ياردة من التيل أو أنها كمية معلومة من مادة نافعة وهى التيل . فقيمة التيل لا يمكن التعبير عنها إلا بالنسبة إلى سلعة أخرى . وعلى ذلك فشكل القيمة النسبى معناه أن سلعة أخرى توضع فى الشكل المعادل مقابل التيل . ومن جهة أخرى هذه السلعة الأخرى التى تبدو بمظهر المعادل لا يمكن أن تعرض نفسها فى الوقت ذاته فى الشكل النسبى للقيمة ، فهى لا تعبر عن قيمتها الذاتية ، وإنما تصلح فقط وسيلة للتعبير عن قيمة السلعة الأخرى .

حقيقة التعبير ٢٠ ياردة من التيل = (أو تساوى) رداء واحداً يتضمن التعبير العكسى وهو رداء واحد = ٢٠ ياردة من التيل أو رداء واحد يساوى ٢٠ ياردة من التيل . ولكن إذا أردت التعبيرعن قيمه الرداء نسبياً أو بالشكل النسبى تعين علىّ أن أقلب طرفى المعادلة ، وبمجرد أن أفعل ذلك يصبح التيل هو المعادل بدلا من الرداء . فالسلعة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الواحدة في تعبير القيمة الواحدة لا يمكن أن تبدو فى كلا الشكلين فى نفس الوقت ، إذ هذان الشكلان ضدان متقابلان كل منهما ينفى الآخر .

وكون السلعة فى شكل القيمة النسبى أو فى الشكل المعادل المضاد إنما يتوقف فقط على مكانها أو موضعها فى تعبير القيمة — أى على ما إذا كانت السلعة هى التى تريد التعبير عن قيمتها أو هى التى نريد أن نجعل منها وسيلة للتعبير عن قيمة سلعة أخرى .

ب — شكل القيمة النسبى

١ — طبيعة ومعنى شكل القيمة النسبى

إذا أردنا أن نكشف كيف أن التعبير الأولى لقيمة السلعة يستتر فى نسبة القيمة بين سلعتين فإن علينا أن نبدأ بتأمل هذه النسبة مستقلة عن مظهرها الكمى . ويتخذ الناس السبيل المضاد إذ لا يرون فى علاقة القيمة أكثر من النسبة التى يتم بها التعادل بين مقدارين مخصوصين من نوعين مختلفين من السلع ، وهم يعجزون عن أن يدركوا استحالة الموازنة الكمية بين أحجام الأشياء المختلفة حتى نعبر عنها بعبارات من وحدة واحدة فهذه الأشياء لا يمكن أن تصير مقادير تحمل نفس الأسم وتكون قابلة للموازنة فيما بينها إلا بكونها تعبيرات عن نفس الوحدة (١) . سواء كانت ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد أو عشرين رداء ، وسواء كان مقدار معلوم من التيل يساوى عدداً قليلا أو كثيرا من الأردية — فمثل هذه العبارة التى تمثل النسبة تتضمن معنى أن التيل والأردية بوصفها أحجام قيمة عبارة عن تعبيرات عن نفس الوحدة ، أو هى أشياء من نفس النوع . وأساس المعادلة هو العبارة : تيل = رداء . وتلعب السلعتان اللتان نعادل بينهما من حيث الكيف دورين مختلفين . وقيمة واحدة منهما وهى التيل هى التى يعبر عنها ، وكيف ذلك ؟ يحدث ذلك عن طريق علاقتها بالرداء بوصفه « معادل » لها أى الشىء الذى يمكن « إجراء التبادل معه » . فالرداء بصفته الشكل الذى تتمثل فيه القيمة يكون شيئاً ذا قيمة إذ على هذا الوضع فقط يكون مماثلا للتيل ، ومن جهة أخرى نظهر قيمة التيل أو تجد لها تعبيراً مستقلا إذ أنها لا تساوى الرداء من حيث القيمة ولا تكون قابلة للتبادل معه إلا

---

(١) ان الاقتصاديين القلائل الذين حللوا شكل القيمة كما فعل س. بايلى عجزوا عن الوصول الى أية نتيجة ويرجع ذلك أولا الى أنهم خلطوا بين شكل القيمة والقيمة ذاتها ، وثانياً لأنهم (متأثرين بعقلية البورجوازيين العمليين) كانوا منذ بداية الأمر عاجزين عن الالتفات الى شىء خلاف المظهر الكمى للمسألة ,, ان السيطرة على الكمية ... يكون عناصر القيمة ،،

S, Bailey, Money and its Vicissitudes, London, 1837, p, 11.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بوصفها قيمة . وقد نضع الأمر على الصورة الآتية : فالسلع بوصفها قيم تجميد أو تجسيم للعمل الإنسانى ولهذا السبب يردها تحليلنا إلى القيمة من الوجهة المجردة ولكنه لا يكسبها شكلا من القيمة يخالف شكلها المادى . والأمر خلاف هذا حين يتعلق بعلاقة القيمة بين سلعة وأخرى ، فحينئذ يكشف الغطاء عن صفة قيمة السلعة الأولى بحكم علاقتها بالسلعة الأخيرة .

إذا كنا نعادل بين الرداء كشيء له قيمة وبين التيل فاننا نعادل العمل الذى يتمثل فى الرداء بالعمل الذى يتضمنه التيل . حقيقة نجد فى عالم المحسوسات أن الحياكة وهى التى تصنع الرداء نوع من العمل يختلف عن النسج الذى يصنع الكتان ولكن حين يحدث التعادل بين الرداء والكتان فإن الحياكة ترد إلى الشيء المتماثل فى كلا النوعين من العمل ، أى ترد إلى الصفة المشتركة بالنسبة إليها بوصفها عمل إنسانى . وبهذه الطريقة الملتوية نقول إن النسج إذ ينسج قيمة لا يمكن التفرقة بينة وبين الحياكة لأنه عمل إنسانى مجرد (عام) . وليس من شيء يكشف عن الصفة الخاصة للعمل الذى يخلق القيمة سوى ذلك التعبير عن التعادل بين أنواع مختلفة من السلع . ويحدث هذا بأن نرد مختلف أنواع العمل التى تتضمنها السلع المختلفة إلى معيار واحد مشترك بالنسبة إليها جميعاً ، وهذا المعيار هو العمل الإنسانى من الوجهة المجردة أو العامة (١) . وعلى كل فليس بكاف أن نعبر عن الصفة المخصوصة للعمل الذى تنحصر فيه قيمة التيل . إن قوة العمل الإنسانية فى حالة السيولة ، أى العمل الإنسانى ، تخلق القيمة ولكنها ليست في حد ذاتها قيمة ، فهى لا تصبح قيمة إلا إذا صارت ذات صورة حسية مجسمة . فلكى نعبر عن قيمة التيل على أنها هلام العمل الانسانى يجب أن نعبر عنها على أنها ,, حقيقة ،، متميزة عن التيل نفسه ولكنها شيء مشترك بالنسبة إلى التيل والسلع الأخرى . وهذا يحل المعضلة التى أمامنا . فى نسبة القيمة ازاء التيل ننظر إلى الرداء على أنه المعادل له من حيث الكيف ، ومن حيث كونه قيمة فإنه من نفس نوع الكتان . وإذن فهو هنا شيء تبدو فيه القيمة أو شيء يمثل القيمة وهو فى شكله المادى . غير أن الرداء ذاته

---

(١) ان بنيامين فرانكلين المشهور وأحد الاقتصاديين الأوائل (بعد وليم بيتى) ممن أدركوا حقيقة ما هية القيمة قد كتب يقول ,, التجارة بوجه عام ليست سوى تبادل العمل بالعمل ، ولهذا فقيمة جميع الأشياء ... تقاس بواسطة العمل،، (مؤلفات ب . فرانكلين لناشرها سباركس ، بوستن سنة ١٨٣٦ ، المجلد الثانى ص ٢٦٧) . ولكن فرانكلين حين يقيس قيمة جميع الأشياء ,, بواسطة العمل ،، يغفل الاختلافات بين أنواع العمل التى يجرى بينها التبادل وبذلك يردها جميعاً الى مقياس من العمل الانسانى المجانس الذى لا اختلاف بينه . وبرغم أنه لا يدرى ذلك فانه يقول مثل هذا فيبدأ بالحديث عن ,, العمل الواحد،، ثم ,, العمل الآخر ،، وفى النهاية يشير الى ,, العمل ،، بدون تخصيص على أنه جوهر قيمة كافة الأشياء .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أى جوهر الرداء بوصفه سلعة ، ليس إلا قيمة استعمالية . فإذا أخذنا الرداء بنفسه لما كان يعبر عن أية قيمة ، كما أن هذا هو الحاصل حين تأخذ قطعة من التيل بذاتها . وهذا يظهر لنا أن الرداء حين نجعل بينه وبين التيل علاقة ، يتضمن معنى أكثر مما يتضمنه لو لم نجعل له هذه العلاقة ، ومثال ذلك أن الرجل الذى يرتدى بذلة رسمية أنيقة يدل على شىء أكثر مما يدل عليه الرجل الذى يرتدى جلباباً من قماش المفتى .

حين أنتجنا الرداء بذلنا فيه قوة عمل إنسانية على هيئة حياكة ، وعلى ذلك صار عمل انسانى مخزوناً فى الرداء ومن هذه الناحية يكون الرداء « مستودع قيمة » ولوأن هذه الصفة الأخيرة له تظل خافية حتى ولو ارتديناه قديماً مهلهلا . وحين ننظر التيل إلى الرداء نرى فيه روح القيمة الشبيهة بقيمة التيل . ولكن الرداء لايمكن أن يعبر عن القيمة بالنسبة إلى التيل إلا إذا اتخذت هذه القيمة من وجهة نظر التيل شكل رداء . وبنفس الطريقة لايستطيع ا أن يتخذ مظهر جلالة الحاكم بالنسبة إلى ب إلا إذا أصبحت فكرة الجلالة فى نظر ب مرتبطة بشكل ا المادى — ومعنى هذا أن على «الجلالة» أن تغير ملامحها وشعرها وخواص جسمانية أخرى حين يعتلي العرش حاكم جديد .

وفى نسبة القيمة التى يقوم فيها الرداء بدور المعادل تكون أهمية شكل الرداء أنه شكل يدل على القيمة ، ونتيجة لهذا فقيمة السلعة وهى التيل يُعبر عنها فى جسم السلعة الأخرى وهى الرداء ، أى يعبر عن قيمة سلعة فى القيمة الاستعمالية للسلعة الأخرى . والتيل بوصفه قيمة استعمالية عبارة عن شىء يبدو لحواسنا مختلفاً عن الرداء ، ولكنه بوصفه قيمة عبارة عن معادل الرداء وبذلك يشبه الرداء . وبهذه الطريقة يكتسب شكل قيمة يخالف شكله المادى ، وجوهر قيمة واضح فى تشابهه بالرداء .

بذلك نرى أن كل شىء عرفناه من تحليلنا للقيمة يكشف عنه التيل الغطاء بمجرد أن نقيم علاقة بين التيل وسلعة أخرى وهى الرداء ، فهو يعبر عن أفكاره باللغة الوحيدة التى يعرفها وهى لغة السلع . فلكى يحدثنا أن قيمته خلقها العمل على هيئة العمل الإنسانى العام المجرد ، تراه يقول إن الرداء من حيث أنه معادل له هو بالمثل قيمة تتكون من نفس العمل الذى يتضمنه التيل . ولكى يحدثنا أن حقيقته كقيمة تختلف عن شكله المادى يقول إن القيمة تبدو كرداء ، وبالتالى بقدر ما يكون التيل قيمة ، فإن التيل والرداء صنوان . فبواسطة نسبة القيمة يصبح الشكل المادى للسلعة ا ، أو جسم السلعة ب يكون مرآة تعكس قيمة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

السلعة ا [١] . والسلعة ا إذ تصير ذات علاقة بالسلعة ب على أنها شيء يتضمن قيمة أو يمثل عملا إنسانياً ، فإنها تجعل السلعة ب مادة للتعبير عن قيمتها ذاتها . وهكذا فقيمة السلعة ا معبراً عنها فى القيمة الاستعمالية للسلعة ب ، تتخذ شكل قيمة نسبية .

ب ـ التعيين الكمى لشكل القيمة النسبي

إن كل سلعة يراد التعبير عن قيمتها شيء نافع لدينا منه مقدار معلوم مثل ١٥ بوشل من القمح ، ١٠٠ رطل من البن الخ . ويحتوى هذا المقدار المعلوم من أية سلعة على مقدار محدود من العمل الإنسانى ، وبهذا فعلى شكل القيمة أن يعبر لا عن القيمة بوجه عام فحسب بل وعن مقدار محـــدود منها أو عن حجم القيمة . ففى نسبة القيمة بين السلعتين ا ، ب أو التبل إلى الرداء لا يقف الأمر عند حد التعادل الكيفى بين الرداء والتيل بوجه عام ولكن الأمر الذى يحدث هو أننا نجرى التعادل بين كمية محدودة من التيل (ولتكن ٢٠ ياردة منه مثلا) وبين كمية محدودة مما يتضمن القيمة أى المعادل (وليكن ذلك رداء واحداً مثلا) .

إن المعادلة « ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحداً » أو « رداء واحد = ٢٠ ياردة من التيل » تتضمن المعنى التالى وهو أن الرداء يحتوى على نفس المقدار من جوهر القيمة الذى تتضمنه ٢٠ ياردة من التيل ، ومعنى هذا أن المقدارين من السلع يساويان أو يتكافئان مقدارين متساويين من العمل أو فترتين متساويتين من وقت العمل . ولكن فترة وقت العمل اللازمة لإنتاج ٢٠ ياردة من التيل أو رداء واحد تتفاوت مع كل تغيير فى إنتاجية النسج أو الحياكة . وعلينا الآن أن ندرس بقدر أعظم من الدقة تأثير مثل هذه التغييرات على التعبير النسبى لحجم القيمة .

(١) لنفرض أن قيمة التيل تختلف [١] بينما تظـــل قيمة الرداء ثابتة . فإذا تضاعف وقت العمل المطلوب لإنتاج التيل ربما بسبب تضاؤل خصوبة الأرض التى يزرع فيها الكتان ترتب على ذلك تضاعف قيمة التيل ، فلا تعود المعادلة ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد وإنما تصبح ٢٠ ياردة = رداءين لأن الرداء فى هذه الحالة يحتوى فقط على نصف وقت العمل الذى تتضمنه ٢٠ ياردة من التيل . وإذا فرضنا من جهة أخرى أن وقت العمل اللازم

(١) كلمة «قيمة» تستعمل هنا للدلالة على القيمة المعينة تعييناً كمياً ، وبعبارة أخرى تستعمل للدلالة على حجم القيمة (كما فعلنا قبل ذلك أحياناً) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لإنتاج التيل هبط إلى النصف بسبب التحسين فى الأنوال مثلا ، نجم عن هذا نقص قيمة التيل بمقدار النصف وعلى ذلك تصير المعادلة بالشكل الآتى : ٢٠ ياردة من التيل = نصف رداء . فالقيمة النسبية للسلعة ا ، أى قيمتها معبراً عنها بعبارات من السلعة ب ، ترتفع أو تهبط مباشرة تبعاً لارتفاع أو هبوط قيمة السلعة ا بشرط بقاء قيمة السلعة ب ثابتة .

(٢) لنفرض أن قيمة التيل تظل ثابتة بينما تتغير قيمة الرداء . فإذا تضاعف وقت العمل اللازم لإنتاج الرداء بسبب نقص محصول الصوف مثلا لتحولت المعادلة من ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد إلى ٢٠ ياردة من التيل = ½ رداء . وإذا حدث من جهة أخرى أن نقصت قيمة الرداء بمقدار النصف فإن ٢٠ ياردة من التيل = ردائين . وعلى ذلك فى حالة ثبات قيمة السلعة ا فإن قيمتها النسبية أى قيمتها معبراً عنها فى عبارات من السلعة ب ، تهبط أو ترتفع بطريقة عكسية حسب تغير قيمة ب .

إذا وازنا بين مختلف الأمثلة التى أوردناها فى رقمى ١ و ٢ رأينا أن نفس التغيير فى حجم القيمة النسبية قد يكون نتيجة أسباب مضادة . فبدلا من أن نكتب ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد قد نضطر أن نكتب ٢٠ ياردة من التيل = ردائين إما لأن قيمة التيل تضاعفت وإما لأن قيمة الرداء هبطت إلى النصف ، وبدلا من أن نكتب ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد قد يتعين علينا أن نقول ٢٠ ياردة من التيل = ½ رداء إما لأن قيمة التيل نقصت بمقدار النصف ، وإما لأن قيمة الرداء تضاعفت .

(٣) وقد تتغير مقادير العمل اللازمة لإنتاج التيل والرداء فى نفس الوقت وفى نفس الاتجاه وإلى نفس المدى . وحينئذ ، بعد التغيير ومهما كان التغيير فى القيم عظيما ، يظل صحيحاً القول بأن ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد . فالتغيير فى قيمتى التيل والرداء يظهر بمجرد الموازنة مع سلعة ثالثة . فإذا ارتفعت أو هبطت قيم جميع السلع فى وقت واحد وبنفس الدرجة ظلت قيمتها النسبية بدون تغيير . وإن التغيير الفعلى فى القيم تظهره الحقيقة التالية :

« وهى أنه فى مقدار معلوم من وقت العمل يمكن الآن إنتاج مقدار أكبر أو أصغر من السلع » .

(٤) قد تتغير أوقات العمل اللازمة لإنتاج التيل والرداء على التوالى ، وعلى ذلك قد تتغير قيمة هاتين السلعتين ، فى نفس الوقت وفى اتجاه واحد ، ولكن إلى حد مختلف ، أو قد تتغيران فى اتجاهين متضاربين الخ . وإن التأثير الذى يحدث من كافة الارتباطات الممكنة من هذا النوع على القيمة النسبية للسلعة يمكن استنتاجها من تطبيق الحالات ١و٢و٣ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وعلى ذلك نرى أن التغييرات الحقيقية فى حجم القيمة لاتنعكس فى تعبيرها النسبى أى فى حجم القيمة النسبية . إن القيمة النسبية للسلعة قد تتغير برغم ثبات قيمتها ، وقد تظل قيمتها النسبية ثابتة برغم تغير قيمتها . وأخيراً فليس من الضرورى أن تكون التغيرات الحادثة فى نفس الوقت فى أحجام القيمة وفى التعبير النسبى عن هذه الأحجام ، متماثلة من حيث مداها (١)

(ج) الشكل المعادل

رأينا أن السلعة ا وهى التيل إذ تعبر عن قيمتها فى القيمة الإستعمالية لسلعة أخرى وهى الرداء قد فرضت على الأخيرة فى الوقت ذاته شكلا خاصاً من القيمة وذلك هو شكل المعادل . فهذه السلعة (التيل) توضح كونها قيمة لأن الرداء وضع مكافئاً لهـــا مع أنه لم يتخذ لنفسه شكلا من القيمة مختلفاً عن شكله المادى ، وبهذا نجد فى الواقع أن التيل يعبر عن قيمته بالقول بأن فى الإمكان إجراء التبادل مباشرة بينه وبين الرداء . وترتب على ذلك أنه حينما نقول إن سلعة ما هى الشكل المعادل قصدنا من ذلك أن من المستطاع مبادلتها بسلعة أخرى مباشرة .

حين تصلح سلعة من نوع ما كالأردية مثلا لأن تكون المعادل لنوع آخر كالتيل بحيث تكتسب الأردية تبعاً لذلك خاصية إمكان مبادلتها بالتيل ، فإن هذا لايدلنا على النسبة التى يتم بها التبادل بين كل من السلعتين . وما دام حجم قيمة التيل معلوماً فإن تلك النسبة

---

(١) يستخدم دعماء الاقتصاديين دعاءهم فى أن يحولوا لصالحهم ذلك التناقض بين حجم القيمة والتعبير النسبى عنها . ومثال ذلك أن ج . برود هيرست يقول فى كتابه (الاقتصاد السياسى ـ لندن ١٨٤٢ ص ١١ ، ١٤) ,, اذا أقرينا مرة بأن ا يهبط لأن ب الذى يجرى معه التبادل به يرتفع بينما لا يبذل عمل أقل على ا فى أثناء ذلك ، فانك ترى أن المبدأ العام الذى نتخذه يتحطم تماماً ... واذا كان (ريكاردو) قد اعترف أنه حين يرتفع ا بالنسبة الى ب يهبط من حيث قيمته بالنسبة الى ا فانه يهدم الأساس الذى يقوم عليه (من حيث القيمة) ا الفرض الذى افترضه وهو أن قيمة السلعة يعينها دائماً العمل الذى يتجسم فيها لأنه اذا كان التغيير فى نفقة ا لا يغير قيمته فحسب بالنسبة الى ب الذى نبادله به وانما يغير كذلك قيمة ب بالنسبة الى قيمة ا برغم عدم حـــدوث تغيير فى كمية العمل اللازمة لانتاج ب فهنا لا يقتصر الأمر على تحطيم المذهب القائل بأن العمل المبذول فى انتاج سلعة يعين قيمتها وانما يتحطم كذلك المذهب الذى يؤكد أن نفقة (تكلفة) السلعة هى التى تنظم قيمتها . ,,وكان يجوز للسير برود هيرست أن يقول ,, أنظر الى النسب العددية ١٠/٢٠ ، ١٠/٥٠ ، ١٠/١٠٠ الخ . ان العدد ١٠ باق بدون تغيير ومع ذلك يهبط باستمرار حجمه النسبى أى حجمه حين موازنته بالمقامات ٢٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ الخ وبهذا يتحطم المبدأ العظيم الذى يذهب الى أن حجم عدد مثل ١٠ يحدده عدد الوحدات التى يحتوى عليها ,, .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تتوقف على حجم قيمة الأردية . وسواء كان الرداء هو المعادل والتيل القيمة النسبية ، أو كان التيل هو المعادل والرداء القيمة النسبية ففى كلتا الحالتين على السواء نجد أن حجم قيمة الرداء يعينه وقت العمل اللازم لإنتاجه وبذا يكون مستقلا عن شكل القيمة الذى يمثله . ولكن بمجرد أن يشغل الرداء مركز المعادل فى معادلة أو تعبير القيمة فإن قيمته لا تكتسب التعبير الكمى أى أن حجم قيمته لا يعود يُعبر عنه كحجم قيمة . ففى معادلة القيمة لا يبدو الرداء الآن إلا كمقدار محدود من سلعة أخرى .

فمثلا ٤٠ ياردة من التيل تساوى — ماذا ؟ إنها تساوى ردائين لأن الرداء يلعب هنا دور المعادل ، بينما القيمة الاستعمالية وهى الرداء (كنقيض التيل) تبدو الصورة التى تتجسم فيها القيمة ، وعلى ذلك يكفى عدد محدود من الأردية للتعبير عن مقدار محدود من قيمة التيل ، فرداءان قد يعبران عن مقدار القيمة لأربعين ياردة من التيل ولكنهما لا يستطيعان التعبير عن حجم قيمتهما أى حجم الرداء . والنظرة السطحية إلى حقيقة كون المعادل فى معادلة القيمة لا يعدو أن يكون مقداراً بسيطاً من شىء (أو قيمة استعمالية) أضلت بابلى وكثيرين غيره ممن تقدموه أو جاءوا بعده فلم يروا فى تعبير القيمة سوى علاقة كمية بحتة . والحقيقة الفعلية أن الشكل المعادل لسلعة ما لا يحتوى على أى تعيين كمى للقيمة .

والخاصية التى تسترعى اهتمامنا من دراسة الشكل المعادل هى أن القيمة الاستعمالية تصبح الشكل الظاهرى لنقيضها أى القيمة . فالشكل المادى للسلعة يصبح شكل القيمة لها . ولكن لاحظ جيداً أن هذه الظاهرة « شىء بشىء » لا توجد بالنسبة للسلعة ب (رداء أو قمح أو حديد أو ما شئت) إلا فى حدود هذا النوع الخاص من العلاقة بين السلعة ب وسلعة أخرى ا (التيل أوشىء سواه) . وبما أن أية سلعة لا يمكن أن تكون المعادل لذاتها ولا يمكن أن تجعل شكلها المادى يعبر عن قيمتها ، لهذا فأية سلعة لابد لها من أن تختار سلعة أخرى كى تكون المعادل لها وبهذا تحول الشكل المادى لتلك السلعة إلى الشكل الذى يمثل قيمتها هى . ولنضرب مثلا يزيد هذه النقطة إيضاحاً . إن لقطعة السكر وزن لأنها جسم وثقيلة ولكننا لانستطيع أن نرى أو نلمس هذا الوزن . وهنا نأخذ قطعا مختلفة من الحديد قد عين وزنها من قبل . والحديد بصفته حديد ليس أكثر من السكر كمظهر للوزن ، ومع هذا فلكى نعبر عن وزن قطعة السكر نقيم علاقة وزن بينها وبين الحديد . وفى هذه الحالة يقوم الحديد بوظيفة جسم يمثل الوزن ، فكمية معينة من الحديد تصبح مقدار الوزن للسكر وتمثل بالنسبة إلى قطعة السكر صورة مظهر الوزن . هذا الدور يؤديه الحديد داخل نطاق هذه العلاقة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وحدها التى يدخل فيها السكر أو أى جسم آخر نريد أن نعين زنته . ولولا ثقلهما لما أمكن دخولها فى هذه العلاقة ، ولما أمكن لأحدهما أن يعبر عن وزن الآخر . وحينما نضعهما فى كفتى الميزان نرى فى الواقع أنهما متشابهان من حيث الوزن وأنهما إذا أخذا بنسبتين متماثلتين صار لهما وزن واحد . وهكذا كما أن الحديد يمثل الوزن فقط فى حالة نسبته إلى السكر كذلك فى تعبيرنا عن القيمة نجد أن الجسم المادى وهو الرداء منسوباً إلى التيل لا يمثل سوى القيمة .

هنا تقف المشابهة ، فالحديد يمثل خاصية طبيعية مشتركة بالنسبة إليه وإلى السكر ألا وهى وزنهما . ولكن حين يعبر الرداء عن قيمة التيل فإنه يمثل صفة غير طبيعية بالنسبة إليهما . ويمثل شيئاً ذا طابع اجتماعى صرف وهو قيمتهما .

وبما أن الشكل النسبى لقيمة السلعة (ولتكن التيل مثلا) يعبر عن قيمة تلك السلعة بصفتها شيء مختلف تماماً عن طبيعتها وخواصها ، فإننا نرى أن هذا التعبير ذاته يدل على وجود علاقة اجتماعية فى أساسها . ونجد العكس تماماً فى حالة المعادل . فجوهر هذا الشكل هو السلعة المادية ذاتها — الرداء — تعبر عن القيمة ، وقد أسبغت عليها الطبيعة شكل القيمة . وبطبيعة الحال يعد هذا القول صحيحاً مادامت علاقة القيمة قائمة وهى العلاقة التى يكون فيها الرداء المعادل للتيل[1] ولكن بما أن خواص الشيء لا تنشأ عن العلاقة بينه وبين الأشياء الأخرى ، وإنما تظهر ذاتها فى مثل هذه العلاقة فقط ، لهذا يبدو كأنما الطبيعة وهبت الرداء شكل المعادل أى خاصية التبادل المباشر كما منحته خاصية الثقل أو صلاحيته لتدفئة أجسامنا ، ومن هنا تلك القصة الغامضة للشكل المعادل والتى لا يلاحظها الاقتصادى البورجوازى إلى أن يصطدم بها كاملة النمو على هيئة النقود ، وحينئذ يحاول أن يفسر الصفة الخفية للذهب والفضة بأن يستبدل بهما سلعاً أقل مدعاة للحيرة ويأخذ فى ترديد كافة السلع التى لعبت فى وقت أو آخر دور المعادل . إنه لا يحلم مطلقاً أن حتى أبسط تعبير للقيمة وهو ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد تهيء له فعلا حل لغز الشكل المعادل .

إن جسم السلعة التى تقوم بمهمة المعادل يمثل دائما الصورة التى يتجسم فيها عمل إنسانى

---

(١) مثل هذه التعبيرات عن العلاقات عموماً والتى يدعوها هيجل „ الأنواع المنعكسة „ ذات نوع خاص . فمثلا ها هو رجل أصبح ملكاً لأن الآخرين يتصرفون بصفتهم رعاياه ، غير أنهم من جهتهم يعتقدون أنهم رعاياه لأنه الملك .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مجرد ، وهو دائماً ثمرة نوع خاص من العمل الحسى النافع ، وهكذا يصير هذا العمل الحسى الصورة المعبرة عن العمل الانسانى المجرد . فإذا كان الرداء مثلا لايعدو أن يكون ممثلا لعمل إنسانى مجرد فإن الحياكة وهى التى يتضمنها الرداء فعلا ليست سوى الشكل الذى يتصادف أن يبدو فيه العمل الانسانى المجرد . ففى التعبير عن قيمة التيل لاتنحصر منفعة الحياكة فى أنها تعمل الملابس وإنما تنحصر فى أنها تصنع جسما تنظر إليه على أنه قيمة أو نواة العمل الذى لايتميز عن العمل المتمثل فى قيمة التيل . فإذا كان للحياكة أن تكون مرآة للقيمة فيجب عليها ألا تعكس أكثر من خاصيتها المجردة وهى كونها عملا إنسانياً .

إن قوة العمل الإنسانى يبذل سواء على شكل حياكة أو نسج ، وعلى ذلك فكلا الحياكة والنسج لهما خاصية عامة وهى أنهما عمل إنسانى ، وهذا يستتبع أنه فى حالات خاصة (كما لو عنينا بإنتاج القيمة) يمكن أن ننظر إليهما من وجهة النظر هذه وحدها .

ليس فى الأمر سر خفى غامض ، ولكن الأمور تلتوى نوعاً في التعبير عن قيمة السلعة . ومثال ذلك أنه لكى نوضح أن النسج يخلق قيمة التيل لا فى شكله المحسوس كالنسج بل بحكم خاصيته العامة وهى كونه عملا إنسانياً ، فإن الحياكة وهى العمل المحسوس الذى ينتج المعادل توضع مقابل النسج كالصورة التى يتمثل فيها العمل الإنسانى المجرد .

وهنا إذن نجد خاصية ثابتة للشكل المعادل إذ فيه يصبح العمل المحسوس الشكل الظاهرى لنقيضه وهو العمل الإنسانى المجرد .

وبقدر ما يكون هذا العمل الحسى مجرد التعبير عن عمل إنسانى واحـــد فإنه يتشابه مع العمل المتجسم فى التيل أى يكون من جنسه . ونتيجة لهذا فبرغم أنه عمل فرد مخصوص فإنه (مثل جميع العمل الذى ينتج السلع) عمل نوع اجتماعى مباشر ، وهـذا هو السبب الذى من أجله يخلق منتجاً قابلا للتبادل مع سلع أخرى . هذه هى الخاصية الثالثة للشكل المعادل وهى أن العمل الفردى يتخذ شكل نقيضه ويصبح عملا بشكل اجتماعى مباشر . ومن المستطاع أن تزداد إدراكا للخاصيتين الأخيرتين لو رجعنا إلى ذلك المفكر العظيم الذى كان أول من حلل الكثير من أشكال الفكر والمجتمع والطبيعة . فأولا يحدثنا أرسطو فى إسهاب أن الشكل النقدى للسلع إن هو إلا صورة متطورة للشكل البسيط من القيمة الذى هو عبارة عن التعبير عن قيمة السلعة بواسطة أية سلعة سلعة أخرى تختارها . وهو يقول إن عبارة ١٠ أسرة = بيت

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

واحد ، تتضمن معنى التشابه النوعى أو الكيفى بين البيت والسرير، وهو يدرك أنه برغم اختلاف الشيئين فى نظر حواسنا الجثمانية فلا بد من وجود جوهر مشترك بالنسبة إليهما وإلا لما أمكن إقامة علاقة بينهما بحيث يمكن الموازنة أو القياس بينهما وفى هذا يقول «لا يمكن وجود تبادل بدون المساواة ، ولا مساواة . دون القابلية للموازنة » .

ى — الشكل الأولى للقيمة إذا نظرنا إليه على أنه كل

إن الشكل الأولى الذى يعبر عن قيمة السلعة تتضمنه علاقة القيمة بين هذه السلعة وسلعة أخرى من نوع آخر ، أو أن هذا الشكل موجود فى النسبة التى يجرى بها التبادل بين السلعتين . وقيمة السلعة ا يعبر عنها من حيث الكيف بقابلية السلعة ب للتبادل مع السلعة ا تبادلا مباشراً ، ويعبر عنها من حيث الكم بقابلية مقدار محدود من السلعة ب للتبادل مع كمية معلومة من السلعة ا . وبعبارة أخرى تكتسب قيمة السلعة تعبيراً مستقلا عن طريق تمثيلها « كقيمة تبادلية » . وفى بداية هذا الفصل جاريت العرف ووصفت السلعة كقيمة استعمالية « أو شىء نافع » وقيمة ، وهى تظهر نفسها على هيئة هذا الشىء المزدوج بمجرد أن يصير لقيمتها هذا الشكل الظاهرى أى شكل القيمة التبادلية والذى يختلف عن الشكل المادى ، وهى لا تكتسب هذا الشكل إذا نظرنا إليها على حدة ، وإنما يتم لها هذا إذا قامت علاقة قيمة (علاقة تبادل) بينها وبين سلعة أخرى من نوع مختلف . وطالما ندرك هذا فإن التعريف الذى سبق إيراده لا ينطوى على ضرر ويصلح طريقة ملاءمة للتعبير .

وقد أبان تحليلنا أن شكل القيمة أو التعبير عن قيمة السلعة ينشأ فى الأصل فى طبيعة السلعة ، وهو بالعكس لم يوضح أن القيمة وحجم القيمة منشؤهما فى تعبيرهما كقيمة تبادلية ولكن الوهم الأخير ساد بين التجاريين ويسود بين الذين أحيوا المذهب التجارى من أمثال فريبه[1] وجانيه[2] ويسود كذلك بين خصوم التجاريين أى أنصار حرية التجارة الحاليين من أمثال باستيا وشركائه . وقد وجه التجاريون الاهتمام الرئيسى إلى المظهر الكيفى من تعبير القيمة وبالتالى إلى شكل القيمة المعادل الذى يبلغ أقصى أشكاله فى النقود . هذا من جهة ، ومن جهة تجد دعاة حرية التجارة الذين هدفهم الأول فى الحياة أن يبيعوا سلعهم بأى ثمن

F.C.A. Eerrier, subinspector of customs, du gouvernement considéré dans ses rapports avec le commercè, Paris, 1805.

Charles Ganilh, des systèmes de l'économie politique, second edition, Paris, 1182.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يوجهون الاهتمام الأساسى إلى المظهر الكمى لشكل القيمة النسبى . وعلى ذلك فى نظرهم لا وجود للقيمة أو لحجم قيمة السلعة خارجاً عن علاقة التبادل أى أنه كامن فى القائمة اليومية للأسعار السائدة . ويعد ماك ليود الأسكتلندى الذى جعل همه أن ينقى ويصقل آراء لومبارد ستريت الغامضة ، حلقة ناجحة بين التجارى المؤمن بالخرافات وبين نصير حرية التجارة المستنير .

ولو أمعنا النظر فى التعبير الخاص بقيمة السلعة ا وهو التعبير الذى تنطوى عليه علاقة القيمة بين السلعة ا والسلعة ب لاتضح لنا أنه فى داخل هذه العلاقة يعد الشكل المادى للسلعة ا شكلا أو مظهراً للقيمة الاستعمالية ، بينما أهمية الشكل المادى للسلعة ب أنه شكل أو مظهر للقيمة . وبهذا يكون للتباين بين القيمة الاستعمالية والقيمة والمستتر داخل السلعة مقابل ظاهرى منظور وهو العلاقة بين السلعتين وهى العلاقة التى فيها تحسب قيمة استعمالية السلعة التى يراد التعبير عن قيمتها بينما تحسب قيمة تبادلية السلعة التى تستخدم للتعبير عن قيمة السلعة الأولى . وعلى ذلك فالشكل البسيط لقيمة السلعة هو الشكل الظاهرى البسيط للتباين الكامن (داخل السلعة) بين القيمة الاستعمالية والقيمة .

إن منتَج العمل شىء نافع وذلك فى كافة الأحوال الاجتماعية ، ولكن منتج العمل لا يصبح سلعة إلا فى مرحلة محدودة من التطور التاريخى حين نجد أن العمل المبذول فى إنتاج شىء نافع يعبر عنه على أنه قيمة هذا الشىء . وهذا يستتبع أن شكل القيمة الأولىّ للسلعة هو فى الوقت ذاته المظهر الأولى الذى يبدو فيه منتج العمل على هيئة سلعة ، ومعنى هذا أن تطور شكل السلعة يتفق أو يتمشى مع تطور شكل القيمة .

ونرى من أول نظرة عدم صلاحية أو عدم وفاء شكل القيمة الأولى وهو الشكل البدائى الذى يجب أن يمر خلال سلسلة من التحولات قبل إمكان تطوره إلى الشكل الدال على الثمن.

وحين نعبر عن قيمة السلعة ا بعبارات من السلعة ب فأهمية هذا التعبير أنه صالح للتمييز بين قيمة ا وقيمتها الاستعمالية ، وبذا لا يتعدى عمله أكثر من أنه يقيم علاقة تبادل بين السلعة ا وسلعة أخرى من نوع مختلف ، كما أنه لا يظهر ما بين ا وكافة السلع الأخرى من تماثل كيفى وتناسب كمى . والشكل الأولى لقيمة السلعة النسبية يعبر عن الشكل المعادل المنعزل لسلعة أخرى ، وهنا نجد أنه فى التعبير النسبى عن قيمة التيل لا يكون للرداء أكثر من شكل المعـــادل (أى شكل القابلية للتبادل المباشر) بالنسبة إلى هذه السلعة الواحدة وهى التيل .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولكن شكل القيمة الأولى ينتقل بمحض رغبته إلى الشكل الممتد . وفى الشكل الأولى تعبر عن قيمة السلعة ا بعبارات من سلعة أخرى واحدة ولا يعنينا أن تكون هذه الأخيرة رداءاً أو حديداً أو قمحاً أو خلاف ذلك . ولهذا فلكل سلعة واحدة عدة تعبيرات أولية عن قيمتها حسب العلاقة بين السلعة وأى غيرها [1] . ولكن عدد هذه التعبيرات الممكنة عن القيمة يحد منه عدد أنواع السلعة المختلفة عن الأولى . وبناء على هذا فالتعبير المنعزل عن قيمة أية سلعة واحدة إن هو إلا عبارة واحدة فى سلسلة طويلة لا نهاية لها من أمثال هذه التعبيرات الأولية والتى يختلف الواحد منها عن جميع الأخرى .

(ب) الشكل الكلى أو الممتد من القيمة

إننا نكتب : م سلعة ا = ل سلعة ب أو = م سلعة ع أو = هـ سلعة ى أو = ى سلعة هـ أو = الخ . وللتعبير عن هذا بصورة حسية نقول ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد أو = ١٠ أرطال من الشاى أو = ٤٠ رطلا من البن أو = ربع من القمح أو = أوقيتين من الذهب أو = ½ طن الحديد أو = الخ .

ا — شكل القيمة النسبى الممتد

وفى هذا الشكل نعبر عن قيمة سلعة ما كالتيل مثلا بعناصر أخرى لاعد لها من عالم السلع ، وتصبح كل سلعة أخرى مرآة لقيمة التيل [1] ، وبهذا تبدو القيمة لأول مرة فى ثوبها الحقيقى وهى أنها صورة تمثل عملا إنسانيا متجانسا لأن العمل الذى يخلقها يظهر الآن بجلاء أنه العمل الذى يقف على قدم المساواة مع أى نوع آخر من العمل الإنسانى سواء كان شكله الحياكة أو الحرث أو التعدين أو ما إلى ذلك ، وسواء تحقق فى الأردية أو القمح أو الحديد أو الذهب . ويصبح التيل بفضل هذا الشكل من قيمته ذا علاقة اجتماعية لا مع نوع واحد من السلع وإنما مع عالم السلع بأسره كأنه بوصفه سلعة مواطن فى هذا العالم . وفى الوقت ذاته تدل سلسلة أو معادلات القيمة التى لانهاية لها على أنه فيما يتعلق بقيمة السلعة لا أهمية للمظهر أو النوع الذى تبدو فيه القيمة الإستعمالية .

فى الشكل الأول ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد قد يكون من قبيل الصدفة المحضة أن تكون هاتان السلعتان قابلتين للتبادل فيما بينهما بتلك النسبة الكمية الخاصة . ولكننا نلمس فى الشكل الثانى الأساس الذى يعين هذه الظاهرة العرضية وإن اختلف عنها اختلافاً

(١) نجد هومر مثلا يعبر عن قيمة الشىء بعبارات من أشياء أخرى متنوعة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أساسياً ، فلقيمة التيل نفس الحجم دائماً سواء عبرنا عنها بالأردية أو البن أو الحـــديد ، ومهما كثر عدد ملاك هذه السلع . هذه العلاقة العرضية بين مالكين فرديين من أرباب السلع تختفى من الصورة التى أمامنا ، ونرى بوضوح أن التبادل ليس هو الذى يعين حجم قيمة السلعة بل على النقيض من ذلك إن حجم قيمة السلعة هو الذى يعين علاقاتها التبادلية أى يتحكم فى نسب تبادلها .

ب — الشكل المعادل الخاص

فى ذلك التعبير عن قيمة التيل تعد كل سلعة (كالرداء والشاى والقمح والحديد الخ) معادلا وبالتالى تكون صورة ممثلة للقيمة . والشكل المادى المخصوص لكل من هذه السلع شكل معادل مخصوص من بين أشكال كثيرة . وبنفس الطريقة فإن مختلف الأنواع المتعددة من العمل النافع الذى تنطوى عليه هذه السلع إن هى إلا أشكال ظاهرية متعددة لأى وكل نوع من العمل الإنسانى .

ج — نقائص شكل القيمة الكلى أو الممتد

نلاحظ أولا أن التعبير النسبى لقيمة السلع غير كامل حيث أن السلسلة التى تمثله لانهاية لها ، ولأن السلسلة التى تكون معادلة القيمة احدى حلقاتها عرضة للاطالة كلما ظهر نوع جديد من السلع يهيىء لنا مادة لتعبير جديد عن القيمة . وثانياً هذا الشكل صورة متعددة الألوان تمثل تعبيرات عن القيمة كل منها مستقل عن الآخر وغير قابلة للموازنة فيما بينها . وأخيراً إذا عبرنا عن القيمة النسبية لكل سلعة بهذا الشكل الممتد ترتب على هذا أن صار لدينا شكل نسبى للقيمة مختلف فى كل حالة ، ومكون من سلسلة من تعبيرات القيمة لانهاية لها .

هذه النقائص الملازمة لشكل القيمة النسبى الممتد تنعكس فى الشكل المعادل الذى يقابله . وبما أن الشكل المادى لكل نوع من السلع على حدة إن هو إلا شكل معادل خاص من بين أشكال لاعد لها ، لهذا لايتبقى لدينا سوى أشكال معادلة جزئية يستبعد كل منها الآخر . وبالطريقة ذاتها نجد أن النوع المحسوس المخصوص من العمل النافع الذى يتمثل فى كل معادلة لايبدو إلا على هيئة نوع خاص من العمل لا على أنه صورة الشىء الشامل الذى يمثل العمل الإنسانى بوجه عام . والحقيقة أن الأخير لايكتسب شكله الكامل أو الكلى إلا من مجموع هذه الأشكال الظاهرية الخاصة ، ولكن فى هذه الحالة يكون التعبير عنه فى سلسلة لانهاية لها ويكون ناقصاً تعوزه الوحدة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وشكل القيمة النسبي الممتد ليس إلا مجموع (خلاصة) التعبيرات النسبية عن القيمة أو معادلات النوع الأول مثل :

٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد .

٢٠ ياردة من التيل = ١٠ أرطال من الشاى الخ .

وكل من هذه المعادلات تتضمن أو تدل على المعنى العكسى :

رداء واحد = ٢٠ ياردة من التيل .

١٠ أرطال من الشاى = ٢٠ ياردة من التيل الخ .

ذلك أنه فى الواقع حين يستبدل شخص ما لديه من التيل بسلع أخرى وبذا يعبر عن قيمة سلعه بسلسلة من السلع الأخرى فإن ذلك يستتبع حتما أن مختلف ملاك السلع الأخرى يستبدلونها بالتيل ، وبذلك يعبرون عن قيمة سلعهم المختلفة بالتيل .

ولنفرض أننا عكسنا السلسلة ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد أو = ١٠ أرطال من الشاى الخ وذلك لكى نعبر عن العلاقات العكسية . إذا فعلنا ذلك حصلنا على الشكل المعمم للقيمة .

(ح) الشكل المعمم للقيمة

$$\left.\begin{array}{l}\text{رداء واحد}\\ \text{١٠ أرطال من الشاى}\\ \text{٤٠ رطلا من البن}\\ \text{ربع من القمح}\\ \text{أوقيتان من الذهب}\\ \text{نصف طن من الحديد الخ}\end{array}\right\} = \text{٢٠ يارة من التيل}$$

١ — الصفة المتغيرة لشكل القيمة

تعبر السلع الآن عن قيمتها (١) بشكل بسيط ذلك أن القيمة يعبر عنها عن طريق سلعة واحدة (٢) بشكل موحد لأن قيمة السلع جميعها يعبر عنها بواسطة نفس السلعة الواحدة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هكذا الشكل أولى وبذا مشترك بالنسبة إلى كافة السلع وعلى ذلك فهو شكل عام .

والشكلان ا و ب (أى الشكل العرضى للقيمة والشكل الكلى أو الممتد) كانا صالحين فقط للتعبير عن قيمة السلعة بصفتها شيء متميز عن قيمتها الاستعمالية أو شكلها المادى .

والشكل الأولى يعبر لنا معادلات من هذا النوع : رداء واحد = ٢٠ ياردة من التيل، و ١٠ أرطال من الشاى = طن من الحديد . فنحن نجعل قيمة الرداء معادلة للتيل ، وقيمة الشاى مكافئة للحديد . ولكن داتين المعادلتين التيل والحديد اللتين تعبران عن قيمة الرداء والشاى مختلفة إحداهما عن الأخرى اختلاف التيل والحديد . وواضح أن هذا الشكل من القيمة لا وجود له إلا في الأيام الأولى حين كانت منتجات العمل تحول إلى سلع بالمقايضة الاتفاقية العرضية أو التى تقع من حين إلى آخر .

أما فى الشكل الكلى أو الممتد فإن قيمة السلعة تتميز بطريقة أوقع عن قيمتها الاستعمالية ، لأن قيمة الرداء (مثلا) توضع فى هذه الحالة مقابل شكله المادى فى كافة الصور الممكنة كمعادل للتيل أو الحديد أو الشاى .. أو أى شيء آخر عدا معادل الرداء . ومن جهة أخرى يستبعد مباشرة كل تعبير معمم للقيمة ، هو التعبير المشترك بالنسبة إلى جميع السلع لأنه فى ذلك التعبير عن قيمة سلعة ما تبدو السلع الأخرى على شكل معادلات . والواقع أن شكل القيمة الممتد يشق سبيله إلى العالم بمجرد أن منتجاً معيناً من العمل كالماشية يأخذ في أن يبادله بسلع أخرى متنوعة . لا فى حالات استثنائية وإنما على هيئة العموم والمعتاد .

هذا الشكل الجديد للقيمة يعبر عن قيم كافة أنواع السلع بواسطة سلعة أخرى (ولنكن التيل مثلا) وهى السلعة التى تستبعد من نطاق السلع الأخرى . فهذا الشكل يعبر عن قيمة جميع السلع عن طريق معادلتها بالتيل . هكذا تتميز قيمة كل سلعة لا عن قيمتها الاستعمالية فحسب بل عن كل القيمة الاستعمالية ، وبواسطة هذه الحقيقة وحدها تعبر عن قيمة السلعة كشيء لها تشترك فيه مع كافة السلع . عن طريق هذا الشكل تصبح السلع بطريقة أجمع ذات علاقات متبادلة فيما بينها كقيم ، أو تصبح وكل منها يواجه الأخرى كقيم تبادلية .

ويعبر الشكلان السابقان عن قيمة السلعة وذلك بواسطة سلعة مفردة من نوع مختلف كما فى الحالة الأولى ، أو بواسطة سلسلة من السلع من نوع مختلف كما فى الحالة الثانية . وفى كلا الحالين على حد سواء تخرص السلعة الواحدة (إن صح التعبير) على أن تجد تعبيراً عن قيمتها وتنجح فى ذلك بدون أى تعاون فعال من جانب السلع الأخرى التى يقتصر عملها على القيام بدور سلبى وهو كونها المعادلات .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ومن جهة لايظهر الشكل المعمم من القيمة إلا كنتيجة للعمل المشترك من جانب كافة أنواع السلع ، فالسلعة لا تستطيع أن تكتسب تعبيراً معمما عن قيمتها إلا إذا عبرت جميع السلع فى نفس الوقت عن قيمتها في نفس المعادل بحيث يتعين على كل سلعة جديدة أن تحذو نفس الحذو وهذا يزيح الغطاء عن الحقيقة الآتية وهى أن حقيقة قيمة السلع من حيث أنها لاتزيد عن كونها الوجود الاجتماعى ،، لهذه الأشياء ، تجد التعبير عنها إلا عن طريق هذه العلاقات الاجتماعية المتداخلة ذات الصيغه العامة وعلى ذلك يجب أن يكون هذا الشكل الذى يعبر عن قيمة السلع شكلا معترفاً به من قبل المجتمع أو بصفة إجتماعية .

وعلى هيئة معـــادلات التيل لاتبدو كافة السلع الآن متشابهة من حيث الكيف ولاقيما بالمعنى العام لهذه العبارة فحسب ، وإنما تبدو كذلك أحجاماً من القيمة قابلة للموازنة فيما بينها من حيث الكم . ولما كانت أحجام قيمتا تنعكس فى مرآة نفس المادة الواحدة أى فى التيل تبع ذلك أن هذه الأحجام من القيمة يعكس كل منها الآخر فى مرآته . ومثال ذلك أن ١٠ أرطال من الشاى = ٢٠ ياردة من التيل ، ٤٠ رطلا من البن = ٢٠ ياردة من التيل ، ويترتب على هذا أن ١٠ أرطال من الشاى = ٤٠ رطلا من البن وللتعبير عن هذا بعبارة أخرى نقول إن ما فى رطل من البن من جوهر القيمة أى العمل يعادل ربع ما فى رطل من الشاى .

هذا الشكل المعمم من القيمة النسبية والذى يشمل السلع بوجه عام يدمغ التيل (وهو السلعة التى وضعت جانباً كمعادل) بطابع المعادل العام ، وشكله المادى هو شكل القيمة العام فى عالم السلع هذا . وعلى ذلك يصير التيل قابلا للتبادل مع جميع السلع الأخرى ، أى أن الشكل المادى هذا هو الصورة المتجسدة المنظورة أو الشكل الاجتماعى العام الذى يمثل جميع العمل الإنسانى . وفى نفس الوقت يظهر النسيج وهو عمل أفراد مخصوصين فى شكل اجتماعى معمم وهو شكل التعادل أو التكافؤ مع أى نوع آخر من العمل . والمعادلات المتعددة التى يتكون منها الشكل العام للقيمة تجعل العمل الذى يشمله التيل مساوياً للعمل الذى تنطوى عليه كل سلعة أخرى ، وهكذا يتحول الغزل إلى الشكل العام للصورة التى يبدو فيها العمل الإنسانى المتجانس . وعلى هذا فإن العمل الذى يصير موضوعياً فى قيمة السلع لا يمثل فحسب فى ظل مظهره السلبى كعمل أغفلت فيه كافة الأشكال المحسوسة والصفات النافعة من العمل الفعلى بل إن طبيعته الإيجابية تبدو للعيان . فشكل القيمة العام عبارة عن إرجاع جميع أنواع العمل الفعلى إلى صفتها المشتركة وهى كونها عملا إنسانياً أى بذلا لصورة عمل إنسانية .

إن الشكل العام للقيمة وهو الشكل الذى تبدو فيه منتجات العمل على أنها مجرد هلاميات للعمل الإنسانى المتجانس ، يكشف بطبيعة تكوينية أنه الصورة الاجتماعية التى تعبر عن عالم

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

السلع ، وهذا يظهر أنه فى عالم السلع تكون صفة العمل الإنسانى الحسية الأساس الذى يكون صفته الخاصة .

إن درجة تطور الشكل المعادل تطابق درجة تطور شكل القيمة النسبى ، وعلى كل واجب علينا أن نعنى بملاحظة هذا الأمر وهو أن تطور الشكل المعادل إنما هو إلا تعبير عن و نتيجة لتطور شكل القيمة النسبى .

إن الشكل النسبى الأولى أو المنعزل الدال على قيمة سلعه يجعل من سلعة أخرى معادلا منعزلا عن سواه ، والشكل الممتد أى الذى نعبر فيه عن قيمة سلعة ما بعبارات من كافة السلع الأخرى يجعل من هذه الأخيرة معادلات منعزلة . وأخيراً نصل إلى الشكل الذى يقوم فيه نوع مخصوص من السلعة بوظيفة المعادل العام بقدر ما تجعل السلع الأخرى من هذه السلعة مادة للتعبير عن شكل قيمتها المعمم الموحد . والآن كلما كان مدى تطور شكل القيمة كلما كان مبلغ حدة التباين بين قطبيه ، وهما شكل القيمة النسبى والشكل المعادل .

ويحتوى الشكل الأول وهو ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد على هذا التباين ولكن قواعده لم تثبت بعد . وحسبما نقرأ المعادلة طرداً وعكساً فإن كلا من قطبى السلعة (وهما التيل والرداء) يقوم بالتبادل وبلا اهتمام بدوره فى شكل القيمة النسبى وفى الشكل المعادل . ففى هذه الحالة لا يزال من الصعب أن ندرك وجود تباين قطبى .

وفى الشكل الثانى ليس سوى نوع واحد من السلع يستطيع أن يحـــد أو ينمى قيمته النسبية تماماً ، وهو لا يكتسب هذا الشكل النسبى الممتد من القيمة إلا لأن السلع الأخرى جميعاً تقف منه موقف المعادلات . ففى هذه الحالة نجد أن طرف معادلة القيمة ٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد أو = ١٠ أرطال من الشاى أو = ربع من القمح الخ لا يمكن تغيير مكانهما بدون تغيير صفة المعادلة وتحويلها من الشكل الكلى أو الممتد إلى الشكل المعمم من القيمة .

وأخيراً فالشكل الثالث يكسب السلع عموماً شكلا نسبياً اجتماعياً من القيمة ذا طابع عام لأن جميع السلع عدا واحدة تستبعد من الشكل المعادل العام ومعنى هذا أن سلعة واحدة وهى اكتسبت صفة كونها قابلة للتبادل مع كافة السلع الأخرى وذلك لأن السلع الأخرى لم تكتسب هذه الصفة (١) .

---

(١) من أبعد الأشياء عن الحقيقة الواضحة بذاتها أن هـذه الصفة عن القابلية للتبادل العام المباشر هى صفة قطبية ولا انفصال لها عن نقيضها فى القطب الآخر ، أى صفة عدم القابلية للتبادل المباشر كما هو الشأن بين قطبى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ومن جهة أخرى فالسلعة التى تؤدى وظيفة المعادل العام تستبعد من شكل قيمة السلع المعمم . ولو أن التيل (أو أية سلعة أخرى اختيرت لتكون معادلا عاما) كان عليه بالمثل أن يشترك فى شكل القيمة النسبي المعمم لكان عليه أن يقوم بدور المعادل لنفسه ، وبهذا يحصل على المعادلة التالية ٢٠ ياردة من التيل — ٢٠ ياردة من التيل وهى لغو لايدل على القيمة أو حجمها . فإذا أردنا التعبير عن القيمة النسبية للمعادل العام فيجب علينا أن نعكس الشكل الثالث . هذا المعادل العام ليس له شكل قيمة نسبي تشارك فيه السلع الأخرى ، إن قيمته تعبر عن نفسها بطريقة نسبة فى السلسلة التى لانهاية لها من السلع . وعلى هذا نرى أن شكل وهى التيل . وإذا رجعنا الى التاريخ لألفينا أن سلعة بالذات وهى الذهب قد شغلت هذا القيمة النسبي (وهو الشكل ب) هو شكل القيمة النسبي الخاص للسلعة والذى يؤدى وظيفة المعادل العام .

ج — الانتقال من شكل القيمة المعمم إلى الشكل النقدى

تستطيع أية سلعة أن تتخذ الشكل المعادل العام ، وهى تستطيع ذلك حينما تستبعدها السلع الأخرى عن نطاقها وتجعل منها معادلا . والشكل النسبى الموحد للقيمة لا يكتسب صفة الاستقرار الموضوعى والصلاحية من الوجهة الاجتماعية العامة إلا إذا كان هذا الاستبعاد قد تركز بصفة نهائية فى نوع معين من السلع . فإذا ماحدث هذا فإن ذلك النوع المعين من السلعة الذى يتماثل الشكل المعادل مع شكله المادى يصبح سلعة نقدية أو يؤدى وظيفة النقود . ومن ذلك الوقت نجد أن الوظيفة الاجتماعية الخاصة (وبالتالى الاحتكار الاجتماعى) لهذه السلعة أنها تلعب دور المعادل العام بالنسبة إلى السلع عموماً . ففى الشكل (ب) قامت سلع متنوعة بدور المعادل للتيل ، وفى الشكل (ج) عبرت سلع مختلفة عن قيمتها النسبية عن طريق سلعة واحدة

المغناطيس الموجب والسالب . وأولئك يطلقون العنان لخيالهم قد يتصورون أن فى امكان كافة السلع أن تتخذ هذه الصفة فى وقت واحـــد وهى صفة كونها قابلة للتداول فيما بينها مباشرة ، وذلك كما لو أنهم تصوروا أن فى امكان جميع الكاثوليك أن يكونوا البابا فى نفس الوقت الواحـد . والبورجوازية الصغيرة التى تنظر الى انتاج السلع على أنه آخر كلمة فى الحرية الانسانية والاستقلال الشخصى قد يسرها بطبيعة الحال لو أننا استطعنا القضاء على العقبات والمضايقات الناجمة من عجزنا عن تحقيق التبادل المباشر بين السلع . واشتراكية برودون ان هى الا صورة لهذا العالم المثالى الذى لا يحمل حتى طابع الابتكار لأن هذا المشروع قد صاغه من قبل وبطريقة أفضل جراى وبراى وغيرهما . لهذا لا تزال هناك دوائر تزدهر فيها هذه الحكمة تحت اسم ,, العلم ،، ولم تعمد مدرسة فكرية الى عرض العلم بهذا المظهر السطحى أكثر مما فعل أتباع برودون ذلك أنه ,, اذا أعوزتك الأفكار فقد تساعدك كلمة واحـــدة فى الخروج من المأزق وذلك فى اللحظة المناسبة ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المركز الممتاز . وعلى ذلك فى الشكل (جـ) إذا وضعنا الذهب مكان التيل لحصلنا على الشكل النقدى للقيمة .

د — شكل القيمة النقدى

٢٠ ياردة من التيل
رداء واحد
١٠ أرطال من الشاى
٤٠ رطلا من البن
ربع من القمح
نصف طن من الحديد
س من السلعة (ا) = أوقيتين من الذهب

فى هـذا الانتقال من الشكل (ا) إلى الشكل (ب) ومن الشكل (ب) إلى الشكل (جـ) تحدث تغييرات هامة . ومن جهة أخرى ينحصر الفارق بين الشكلين (د ، جـ) فى أن الذهب حل محل التيل كالمعادل العام ، أى أن مظهر التقدم هو أن شكل قابلية التبادل المباشر أو شكل المعادل العام قد جعله العرف الاجتماعى أخيراً وبصفة نهائية مرتبطاً بذلك الجوهر المادى لهذه السلعة وهى الذهب .

والسبب الذى من أجله يواجه الذهب السلع الأخرى بوصفه نقود راجع إلى أنه واجهها من قبل كسلعة . فهو كبقية السلع الأخرى استطاع أداء وظيفة المعادل سواء على هيئة معادل منعزل فى عمليات مفصلة من المقايضة أو على هيئة معادل معين خاص إلى جانب معادلات أخرى من السلع . وتطور الأمر تدريجاً فصار يقوم بدور المعادل العام ، وبمجرد أن اكتسب لنفسه هذا المركز الاحتكارى العام فى التعبير عن قيمة السلع بوجه عام تحول فصار السلعة النقدية . ولا نستطيع التمييز بين الشكلين (د ، جـ) قبل أن يصبح الذهب سلعة نقدية ، كما أنه بذلك تطور من شكل القيمة المعمم إلى الشكل النقدى .

والتعبير الأولى عن القيمة النسبية للسلعة (التيل مثلا) بواسطة سلعة صارت تقوم بدور النقود (كالذهب مثلا) ، عبارة عن الشكل الدال على ثمن تلك السلعة . وبهذا يكون شكل ثمن التيل عبارة عن ٢٠ ياردة من التيل = أوقيتين من الذهب أو ٢٠ ياردة من التيل = ٢ جنيه استرلينى إذا كان هذا الإسم الأخير هو الذى يطلق على أوقيتى الذهب إذا سكتا نقودا .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إن الصعوبة فى فهم ماهية الشكل النقدى لاتزيد عنها فى فهم طبيعة الشكل المعادل العام أى طبيعة شكل القيمة المعمم أو كنه الشكل (ج) . ولكن الشكل (ج) نفسه مشتق من (ب) وهو شكل القيمة الممتد وهذا بدوره مشتق من الشكل (ا) الأولىّ (٢٠ ياردة من التيل = رداء واحد أو (س) من السلعة ا = ص من السلعة ب) . وهكذا يتضح لنا أن الشكل الأولىّ نواة الشكل النقدى .

٤ — السر الغامض الذى يحيط بالصفة السحرية للسلع

تبدو السلعة من أول نظرة شيئاً عادياً مألوفاً يسهل إدراكه وفهمه ، ولكن التحليل يظهر أنها شىء غريب حقاً . وليس من سر خفى يعلق بالسلعة طالما كانت قيمة استعمالية ، سواء اعتبرناها شيئاً تمكنه خواصه الطبيعية من إشباع الحاجات الإنسانية ، أو نظرنا إليها على أنها شىء لايكتسب هذه الخواص إلا بوصفه نتيجة العمل الإنسانى . ومن الواضح أن الإنسان قادر بفضل عمله ونشاطه على تعديل أشكال المواد الطبيعية ليجعلها ذات نفع لذاته ، فشكل الخشب مثلا يتغير إذا شئنا أن نصنع منه منضدة ، ولكن برغم هذا لاتزال المنضدة خشبا أى شيئاً ملموساً عادياً . غير أنه بمجرد أن تبدو لنا على هيئة سلعة فإنها تتحول إلى شىء يفوق غيره كما أنه ملموس . وعلى هذا فلغز السلع لا ينشأ عن قيمتها الاستعمالية ، كما أنه لا يتوقف على طبيعة عوامل القيمة . والسبب الأول فى ذلك أنه مهما اختلفت أنواع العمل النافع أو النشاط الإنتاجى فمن الحقائق الفسيولوجية أن هذه الأنواع كلها وظائف للجهاز الإنسانى ، وكل وظيفة من هذه (مهما كان فحواها أو شكلها) بذل لما يملك الإنسان من مخ وعصب وعضل وحاسة وما إلى ذلك . وثانياً من حيث ذلك الذى يقوم على أساسه تعيين حجم القيمة ونقصد بهذا طول مدة هذا البذل أو مقدار العمل ، فإن فى استطاعة حواسنا أن تجعلنا نميز بين مقدار ونوع العمل . ومهما كانت الأحوال الاجتماعية فلا بد للناس من أن يظهروا الاهتمام بالوقت اللازم لإنتاج الغذاء وإن كان لابد أن درجة هذا الإهتمام قد تغيرت فى مختلف مراحل التطور الاجتماعى[1] . والخلاصة أنه حين يتعاون الآدميون ويعمل كل منهم للآخر بأى طريقة ، فإن عملهم يكتسب شكلا اجتماعيا .

---

(١) كانت وحدة قياس الأرض لدى قدماء التيوتون وتعرف باسم مورجن Morgen (وتقرب من فدان) عبارة عن المقدار الذى يمكن حرثه فى اليوم الواحد . ولهذا كانوا يستعملون كلمات عمل اليوم أو عمل الرجل أو قوة الرجل أو ما يحصد الرجل ... الخ . أنظر :

Georg Ludwig von Maurer, Einleintung zur geschic hte der Mark-, Hof-, u. s. w. Verfassung, Munich, 1859, pp. 129 et seg.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لماذا أذن يصبح منتَج العمل ذا طابع غامض حينما يتخذ شكل سلعة ؟ واضح أن السبب كامن فى الشكل ذاته . فتشابه أنواع العمل الإنسانى يتخذ صورة ماديةمحسوسة على هيئة حقيقة القيمة فى منتجات العمل ، كما أن قياس مانبذل من قوة العمل حسب المـــدة التى يستغرقها ذلك تتخذ شكل حجم قيمة منتج العمل ، وأخيراً فالعلاقات المتبادلة بين المنتجين والتى يبدو بهـــا الطابع الاجتماعى لعملهم تتخذ هى الأخرى شكل علاقة اجتماعية بين منتجات العمل . وهكذا نرى السر الذى يحوط شكل السلعة بسيطاوينحصر فى أنه يعكس للناس الصفة الاجتماعية لعملهم ويعكسها على أنهـــا صفة موضوعية عالقة بمنتجات العمل نفسها ، ويعكسها كذلك بوصفها خاصية اجتماعية طبيعية لهذه الأشياء . يترتب على هـذا أن العلاقة الاجتماعية القائمة بين المنتجين والمجموع الـكلى لعملهم تبدو بالنسبة إليهم علاقة اجتماعية بين منتجات عملهم لا بينهم أنفسهم . وبفضل انتقال الصفات والخواص هذا من ناحية إلى أخرى تصبح منتجات العمل سلعاً أو أشياء اجتماعية يمكن لحواسنا فى نفس الوقت أن تدركها . حين ينعكس الضوء من جسم فإن الأثر فى شبكة العين لا نراه على أنه تنشيط ذاتى لذلك العضو بل نراه على هيئة جسم حسى خارج عن العين ، ولـكن الضوء فى حالة الرؤية يمر فعـــلا من شىء هو الجسم الخارجى إلى شىء آخر وهو العين ، فنحن إذن أمام علاقة طبيعية بين وقائع طبيعية . ومن جهة أخرى فشكل السلعة وعلاقة القيمة بين منتجات العمل وهى العلاقة التى يعبر عنها شكل السلعة ـ نقول إن هذين لا علاقة لها بالخواص الطبيعية للسلع أو بالعلاقات المادية الناشئة عن هـذه العلاقات الطبيعية . فنحن إنما نوجه اهتمامنا إلى علاقة اجتماعية محـــدودة بين الناس وهى العلاقة التى بدت فى أعينهم كأنهاعلاقة بين الأشياء . ولتمثيل الأمر نلجأ إلى ذلك العالم السديمى وهو عالم الدين والذى تصير فيه منتجات العقل الإنسانى أشكالا مستقلة لها حياتها الخاصة بها وتستطيع أن تجعل بينها وبين الناس من الجنسين علاقة ما . وفى عالم السلع تقوم منتجات اليد بنفس العمل . وإنى لأ تحدث عن هـذا بأنه الصفة السحرية الملازمة لمنتجات العمل بمجرد أن يتم إنتاجها على هيئة سلع . وهذه السلعة لاانفصال لها عن إنتاج السلع . وقد أبان التحليل السابق أن هذه الصفة السحرية التى يتميز بها عالم السلع نتيجة لتلك الصفة الاجتماعية الخاصة بالعمل الذى ينتج السلع .

إن السبب الذى من أجله تصبح الأشياء النافعة سلعاً راجع إلى أنها منتجات عمـل أفراد أو مجموعات أفراد يعمل كل منهم أو منها مستقلا عن الآخر . ومجموع عمل هؤلاء الأفراد أو هذه الجماعات الخاصة يتـكون منه المجموع الـكلى للعمل الاجتماعى . وإذا كان المنتجون

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لا يتصل بعضهم ببعض قبل أن يتبادلوا منتجات عملهم ، كذلك لاتظهر الصفة الاجتماعية لعملهم إلا حينما يجرى هـــذا التبادل . وبعبارة أخرى نقول إن عمل الأفراد لايصبح جزءاً فعالا من المجموع الكلى للعمل الاجتماعى إلا بحكم العلاقات التى تقيمها عملية التبادل بين منتجات العمل وبالتالى بين المنتجين . وهذا هو السبب الذى من أجله نجـــد أن العلاقات الاجتماعية التى تربط عمل فرد بآخر أو عمل مجموعة أفراد بأخرى تبـدو فى نظر المنتجين علاقات مادية بين أشخاص وعلاقات اجتماعية بين أشياء ، لا على أنها عـــلاقات اجتماعية مباشرة بين أفراد يعملون .

إن منتجات العمل لا تـكتسب صفة القيمة الاجتماعية المتميزة عن القيمة الاستعمالية إلا بعدأن تدخل فى عالم التبادل ، وهذا الإنقسام فى منتج العمل إلى شىء ذى منفعة وشىء ذى قيمة لا يصير فعالا من الناحية العملية إلا إذا عظم انتشار عملية التبادل وزادت أهميتها إلى الحـد الذى عنده يجرى إنتاج الأشياء النافعة لغرض التبادل خاصة بحيث يصير من اللازم أن نعمل حساباً لقيم الأشياء أثناء عملية الإنتاج ذاتها . من تلك اللحظة يكتسب عمل المنتجين الخاصين طابعاً اجتماعياً مزدوجاً فى الحقيقة . فمن جهة يجب على هـــذا العمل بصفته عمـل نافع بصورة نهائية أن يشبع طلباً اجتماعياً محدوداً ، وبذا يتخذ مكانه كأحد العناصر التى يتـكون منهـا المجموع العام للعمل أو كجزء من نظام التقسيم الاجتماعى للعمل الذى تطور بصفة تلقائية . ومن جهة أخرى فإن مثل هـذا لا يستطيع قضاء مختلف حاجات المنتجين الذين يقومون به إلا بقدر ما يكون كل نوع من العمل النافع الفردى أو الخاص صالحـاً وقابلا للتبادل مع أى نوع آخر وذلك لأن كلامنهما يتساوى مع الآخر. مثل هذه التسوية بين أنواع العمل المختلفة اختلافاً كليا لايمكن تحقيقها إلا إذا تجاهلنا ما بينها من عدم تشابه فعلى وإلا إذا أرجعناها جميعاً إلى معيار واحد مشترك بالنسبة إليها جميعاً وذلك المعيار هو العمل الإنسانى المجرد.

هذا الطابع الاجتماعى المزدوج ينعكس فى أذهان المنتجين الفرديين على أنه مجرد صورة لتلك الأشكال التى يظهرها تبادل المنتجات فى الحياة اليومية . وهكذا فالصفة النافعة من الوجهة الاجتماعية لعمل المنتجين الفردى أو الخاص تتراءى على صورة وجوب أن يكون العمل نافعاً ونافعاً للغير ، بينما الصفة النافعة من الوجهة الاجتماعية وهى أن كل نوع من العمل الخاص أو الفردى يقف على قدم المساواة مع أى نوع آخر — نقول إن هذه الصفة تبدو على صورة أخرى وهى أن منتجات العمل برغم اختلاف أنواعها إن هى إلا أجسام مادية ومتشابهة جميعا كأشياء ذات قيمة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وعلى ذلك حين يقيم الناس علاقة بين منتجات عملهم بوصفها قيم فليس السبب فى ذلك أنهم يدركون أن الأشياء ليست سوى الإطار المادى لهذا المقدار أو ذاك من العمل الإنسانى المتجانس ، بل على العكس فهم حين يجرون التبادل بين منتجات عمل من مختلف الأنواع إنما يعادلون قيم المنتجات المتبادلة الواحدة مع الأخرى ، وهم إذ يفعلون ذلك إنما يعادلون بين مختلف أنواع العمل المبذولة فى الإنتاج على اعتبار أنها عمل إنسانى متجانس . إنهم لا يدركون أنهم يفعلون ذلك ولكنهم يفعلون نفس الشىء[1] . إن القيمة لا تحمل بطاقة تشرح ماهيتها . إن الأمر أبعد من هذا إذ أن القيمة تغير كافة منتجات العمل إلى حروف هيروغليفية اجتماعية . ويحاول الناس بعد ذلك أن يفكوا هذه الرموز وأن يحلوا ذلك اللغز عن منتجهم الاجتماعى ، لأن تخصيص أو وصف شىء نافع بأنه قيمة منتج اجتماعى كاللغة تماما . أما أن منتجات العمل بوصفها قيم تعبر بصورة مادية عما بذل في إنتاجها من عمل إنسانى ، فهذا كشف علمى حديث يدل على مرحلة معينة فى تاريخ تطور الجنس البشرى ، ولكنه يكفى لتبديد مظهر المادية الذى اتخذه الطابع الاجتماعى للعمل .

لقد حللت العلوم الطبيعية والكيماوية الهواء إلى عناصره ، ولكن التأثيرات المادية المألوفة التى يحدثها الجو فى حواسنا تظل باقية دون تغيير . كذلك نلحظ أنه بعد كشف كنه القيمة الحقيقى يسبغ أولئك الداخلون فى نطاق إنتاج السلع صفة الشمول والصلاحية على حقيقة لا تصدق إلا على نوع الطابع الاجتماعى لعمليات العمل الفردى أو الخاص والتى تكون كل منها مستقلة عن الأخرى ، وهو طابع ينحصر فى ما بينها من تشابه عام من حيث كونها عملا انسانياً ، كما أنه يتخذ فى منتج العمل شكل القيمة المميز له .

وفى الحقائق العملية نجد أن أول أمر يعنى به ذلك الذى يبادل منتجات عمله أن يعرف مقدار ما يحصل عليه مقابلها من منتجات أخرى ، وبعبارة أخرى يهمه أن يعرف نسبة التبادل . فإذا ما نضجت هذه النسب بفعل العرف بحيث تكتسب قدراً كافياً من الإستقرار ، فإنها تبدو كما لو أنها نشأت من نفس طبيعة منتجات العمل بحيث أن طناً من الحديد وأوقيتين من الذهب مثلا يُعدان ذوى قيمة متساوية أسوة بقولنا إن رطلا من الذهب

(١) وعلى ذلك حين كتب جليانى يقول ,, ان الثروة (القيمة) علاقة بين شخصين ،، كان عليه أن يضيف : ,, ولكن العلاقة تختفى داخل اطار مادى ،، .

Galiani : della moneta, p. 220, in vol. III of Custodi's Scrittori classici Italiani di economica politica, modern section, Milan 1801.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وآخر من الحديد لها نفس الوزن برغم ما بين المعدنين من اختلافات فى خواصهما الكيماوية والطبيعية . والحقيقة أن صفة القيمة لمنتجات العمل لا يستقر أمرها إلا بما لهذه المنتجات من فعل ورد فعل متبادلين بصفتها أحجام للقيمة . وهذه الأحجام تتغير على الدوام وهذا التغير لا علاقة له بإرادة الذين يقومون بعمليات التبادل وسابق معرفتهم ومجهودهم ، وهم الذين تبدو حركتهم الاجتماعية فى نظرهم حركة أشياء — أى حركة أشياء تتحكم فيهم بدلا من أن يكونوا هم الذين يتحكمون فيها . إن البصر العلمى عن طريق التجارب لا ينشأ إلا إذا اكتمل نمو إنتاج السلع . وحينئذ يصير واضحاً أن أنواع العمل الفردى أو الخاص المختلفة (وهى التى يمارسها أربابها وكل منها مستقل عن الآخر وإن كان كل منها يعتمد على الآخر من الوجهة العامة الشاملة بصفتها فروع من التقسيم الإجتماعى للعمل نمت نمواً تلقائيا) — نقول إن هذه الأنواع تُرد باستمرار إلى مقياسها أو معيارها الإجتماعى الذى يعين النسب فيما بينها . وكيف يتحقق ردها إلى هذا المعيار ؟ يتحقق هذا بالطريقة الآتية وهو أنه فى علاقات التبادل العرضية والمتغيرة على الدوام بين المنتجات يكون لوقت العمل اللازم لإنتاجها تأثير قوى كما لو كان أحد القوانين الطبيعية . إن قانون الجاذبية يحدث مثل هذا التأثير حتى يقع بيت ما على رؤوسنا (١) وعلى هذا فإن تعيين حجم القيمة بواسطة وقت العمل عبارة عن سر يختفى تحت التقلبات الظاهرة فى القيم النسبية للسلع . وإن كشف الطريقة التى يتعين بها حقيقة حجم قيمة منتجات العمل ، يزيل عن هذا التعيين مظهر أو شبهة كونه عملا وليد الصدفة المحضة ، ولكنه لا يؤثر فى الشكل المادى للعملية .

إن فكرة الإنسان عن أشكال الحياة الاجتماعية وتحليله العلمى لهذه الأشكال ، يخالفان المجرى الحقيقى الواقعى للتطور الاجتماعى . فهو يبدأ بدراسة المنتج بعد إتمامه وهو النتيجة القائمة لعملية التطور . أما الصفات التى تدمغ منتجات العمل بطابع السلع وهى الصفات التى يجب أن تكتسبها هذه المنتجات قبل تداولها على هيئة سلع — هذه الصفات قد حصلت على ثبات الأشكال الطبيعية للحياة الاجتماعية وذلك حين يبدأ الاقتصاديون أن يدرسوا لا تاريخ

---

(١) ماذا نقول عن قانون لا يثبت أثره وقوته الا عن طريق الثورات تنشب من وقت الى آخر ؟ انه ليس سوى قانون طبيعى قائم على عدم وعى الذين يعنيهم أمره ،، .

Friedrich Engels, Umrisse zu einer Kritik der Nationaloekonomie. Deutsch - Französische Jahrbücher'' edited by Arnold Ruge and Karl Marx, Paris, 1844.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هذه الصفات (التى تعد ثابتة لاتتغير) وإنما معناها . ولهذا فإن تحليل أثمان السلع هو الذى أدى إلى تعيين حجم القيم ، كما كان التعبير العادى عن كافة السلع بالنقود السبيل إلى إدراكها (كقيم) . ولكن هذا الشكل الكامل لعالم السلع ونقصد به الشكل النقدى ، هو نفسه الذى يخفى بدلا من أن يكشف الصفة الاجتماعية للعمل الخاص أو الفردى ، وبذا يخفى العلاقات الاجتماعية بين المنتجين الفرديين . حين أقول إن الأردية أو الأحذية ذات علاقة بالتيل بصفته الصورة العامة التى يتجسم فيها العمل الإنسانى المجرد فإن هذه العبارة تبدو في الظاهر سخيفة . غير أنه حين يجعل منتجو الأردية والأحذية الخ لهذه السلع علاقة مع التيل بوصفه المعادل العام (أو مع الذهب أو الفضة بصفتهما المعادل العام) ، ففى هذا الشكل السخيف تجد أن العلاقة بين عملهم الخاص والعمل الجماعى للمجتمع تكشف عن ذاتها لهم .

هذه الأشكال هى التى تشمل نواحى الاقتصاد البورجوازى ، وهى أشكال فكرية ثابتة الصلاحية من الوجهة الاجتماعية ، تصلح للتعبير عن علاقات الإنتاج الذى يتصف بها نوع مخصوص معين من الإنتاج الاجتماعى ألاوهو إنتاج السلع . ويترتب على هذا أنه حين نتحول إلى بحث أساليب الإنتاج الأخرى يزول فى الحال كل الغموض أوالسحر الذى يحيط منتجات العمل فى نظام من إنتاج السلع .

للاقتصاديين البورجوازيين غرام بالتمثيل بروبنسن كروزو وسنحذو حذوهم ونلقى نظرة على هذا الرجل الذى أقام بجزيرة وفى حالة عزلة ووحدة . وبرغم أن حاجيات الرجل قليلة وبسيطة إلا أن له على الأقل حاجيات ولذا يتعين عليه القيام بأنواع متباينة من العمل النافع . فعليه أن يعد الأدوات اللازمة وأن يصنع الأثاث ويستأنس حيوان اللاما ويصيد السمك والحيوان الخ.. ولا يعنينى فى هذا المقام ما يقوم به من صلات وما إليها لأن روبنسن كروزو يجد لذة فى مثل مظاهر النشاط هذه ويعدها نوعا من الرياضة والتسلية . وبرغم اختلاف وظائفه الإنتاجية التى يضطلع بها فإنه يعلم أنها ليست سوى أشكال متنوعة من نشاط نفس الشخص الواحد وأنها على ذلك ليست إلا مظاهر مختلفة من العمل الإنسانى، وتضطره الحاجة إلى تخصيص وقته لهذا العمل أو ذاك . ويتوقف مدى وقت كل من الوظائف التى يؤديها على مبلغ الصعاب التى يلاقيها فى إدراك الغاية التى وضعها نصب عينيه ، وهو فى هذا يسترشد بالتجارب . ويبدأ فى الحال بعد أن أنقذ من الغرق المزولة ودفتر الحساب والقلم والمداد ، فى إمساك الدفاتر بالشكل الواجب الصحيح كما يليق بالرجل الإنجليزى ، على أنه هو الذى يتعلق به جميع ما يقيده فى دفتره . فتراه يكتب بياناً بالأشياء النافعة التى يملكها ، ويحدد أو يخصص العمل العادى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

اللازم لإنتاجها ، ويسجل وقت العمل الذى تتكلفه فى المتوسط مقادير محدودة من المنتجات. وإن العلاقات القائمة بين روبنسن كروزو والأشياء التى تتكون منها ثروته بسيطة بحيث يسهل على أى امرىء عادى أن يدركها ويفهمها دون ما حاجة إلى مجهود عقلى . ولكن برغم هذا ففى هذه العملية تجد العناصر الضرورية التى تعين القيمة وتحددها .

ولننتقل الآن من جزيرة كروزو ذات الشمس المشرقة إلى ظلام أوربا فى العصور الوسطى. ففى الجزيرة نحن أمام شخص واحد مستقل بأموره وهو الساكن الوحيد بها . أما فى أوربا خلال العصور الوسطى فإن الجميع فى حالة اعتماد متبادل : الأقنان والأشراف ، والأتباع والملوك ، والعلمانيون ورجال الدين . فطابع اعتماد الناس بعضهم على بعض يميز علاقات الإنتاج المادى الاجتماعية بما لا يقل عن تمييزه لمجالى الحياة القائمة على أساس هذه العلاقات . ولكن لنفس السبب الذى من أجله يتكون أساس المجتمع من علاقات الاعتماد الشخصية يكون من غير الضرورى أن يتخذ العمل ومنتجات العمل أشكالا تصورية تختلف عن أشكالها الحقيقية . هذه تدخل فى الجهاز الاجتماعى على هيئة خدمات نوعية ومدفوعات نوعية . فهنا تجد أن الشكل الطبيعى للعمل أى شكله الخاص هو الشكل الاجتماعى المباشر للعمل — وذلك تمييزاً له عما يحدث فى مجتمع منظم على أساس إنتاج السلع حيث فيه العمل المجرد أى شكله المعمم هو الشكل الاجتماعى المباشر للعمل . والسخرة يمكن قياسها بمعيار الوقت بنفس السهولة التى نلقاها فى حالة العمل الذى ينتج السلع ، ولكن كل قن يعلم أن كل ما يبذله فى خدمة السيد عبارة عن مقدار محدود مما يملك من قوة العمل . والعشور التى ينبغى إعطاؤها للقسيس حقيقة ذات طابع مادى ملموس أكثر من بركة رجل الدين . ومهما كانت نظرتنا إلى الأقنعة التى تلبسها مختلف الشخصيات التى تظهر على مسرح مجتمع العصور الوسطى فإن العلاقات الاجتماعية بين الأفراد العاملين تبدو فى غشائها الطبيعى كعلاقات شخصية ولا تتراءى على هيئة علاقات اجتماعية بين أشياء أى بين منتجات العمل .

وإذا أردنا أن ندرس العمل المشترك فليست بنا حاجة إلى الرجوع إلى ذلك الشكل الذى تطور من تلقاء ذاته والذى يواجهنا فى بداية تاريخ كافة الشعوب المتمدينة (١) .

---

(١) ,, ظهرت أخيراً فكرة مخالفة للعقل وصدقها الكثيرون وخواها أن المشاعية البدائية ،، من حيث نموها التلقائى أمر سلافى بصفة خاصة ان لم يكن ظاهرة روسية . والواقع أنها شكل بدائى يمكن بيان وجوده بين الرومان والتيوتون والكلت ، بل اننا لنجد اليوم بالهند أمثلة عدة (وان كانت فى حالة انحلال) . ولو أمعنا دراسة الأشكال

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولدينا مثال قريب منا تهيئه لنا الصناعة التى تزاولها أسرة الفلاح التى تشتغل فى الأرض وتنتج كل مايلزمها من حبوب وماشية وغزل وتيل وملبس وما أشبه ذلك . هذه الأشياء المتنوعة تعتبر بالنسبة إلى الأسرة منتجات مختلفة أنتجها عمل الأسرة ولكنها غير قابلة للتبادل فيما بينها كسلع . وأنواع العمل المختلفة التى تولد هذه المنتجات (الفلاحة وتربية الماشية والغزل والنسج والحياكة الخ) تعتبر فى شكلها الطبيعى وظائف اجتماعية بقدر ماهى وظائف تضطلع بها الأسرة التى تتميز بنظامها فى تقسيم العمل وهو النظام الذى تطور بصفة تلقائية ، كما أن لإنتاج السلع مثل هذا النظام فى تقسيم العمل . وتقسيم العمل بين مختلف أفراد الأسرة وتخصيص وقت العمل لكل منهم تعينهما اختلافات الجنس والسن والتغييرات الفصلية في أحوال العمل الطبيعية . وما يبذله الفرد من قوة العمل مقاساً بمدة العمل ، يتخذ منذ البداية مظهر تعيين اجتماعى للعمل مادامت الجهود الفردية لقوة العمل تقوم منذ البداية بوظيفة واحدة وهى كونها أدوات العمل المشترك الذى تقوم به الأسرة .

وأخيراً على سبيل التوزيع لندرس حال جماعة من الأفراد يشتغلون بأدوات إنتاج يملكونها بالاشتراك وينفقون عن علم وإدراك ما يملكون من قوى عمل متعددة على أنها قوة عمل اجتماعية متحدة . فى هذه الحالة تتكرر كافة خواص ومميزات عمل روبنسن كروزو مع الفارق الآتى وهو أن العمل اجتماعى بدلا من أن يكون فردياً . لقد كانت منتجات روبنسن كروزو فردية بحتة ولذا كانت أشياء نافعة بالنسبة إليه وحده . أما المنتج الكلى للجماعة التى نتخيل وجودها فعبارة عن منتج اجتماعى ، ويستخدم جانب من هذا المنتج كأداة لإنتاج جديد وبذلك يظل اجتماعياً أى ملكا للمجتمع ، أما الجزء الآخر فيستهلكه مختلف أعضاء الجماعة ولذلك يجب توزيعه بينهم . وتختلف طريقة التوزيع تبعاً للاختلافات فى طبيعة الجهاز الاجتماعى الذى يقوم بعملية الانتاج وتبعاً لما يطابقه من مستوى التطور التاريخى الذى بلغه المنتجون . لنفرض (لمجرد الموازنة مع إنتاج السلع) أن نصيب كل منتج فى ضروريات الحياة يعينه مقدار الوقت الذى اشتغل فيه ، ففى هذه الحالة يلعب وقت العمل دوراً مزدوجا . فمن جهة نجد أن تقسيمه طبقاً لخطة اجتماعية محدودة يجعل فى الإمكان توزيع مختلف أنواع العمل بنسب تتفق ومختلف الحاجيات الاجتماعية . ومن جهة أخرى يصلح وقت العمل كمعيار للقياس

= الأسيوية وبخاصة الهندية للمشاعية لاتضح لنا كيف أنه من بين مختلف أنواع المشاعية ذات النمو التلقائى خرجت أشكال متباينة نتيجة لتحطم المشاعية . ومن أمثلة ذلك أن مختلف الأشكال الأصلية للملكية الخاصة لدى الرومان والتيوتون مشتقة من مختلف أشكال المشاعية الهندية ،، . Karl Marx: zur Kritik, etc., p. 10

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فيقاس به أولا نصيب كل منتج فردى فى العمل المشترك . كما يقاس به ثانياً ذلك المقدار من المنتَج الاجتماعى الذى يخص كل فرد . والعلاقات الاجتماعية بين الناس من جهة وعملهم ومنتجاتهم من جهة أخرى تظل بسيطة تماما وواضحة تماما فى الإنتاج أو التوزيع على حد سواء .

ولنفرض وجود مجتمع مكون من منتجى السلع وفيه تكون علاقات الانتاج الاجتماعى العامة (ما دامت المنتجات سلعاً أى قيماً) بحيث تكون أعمال مختلف المنتجين الضرورية متصلة بعضها ببعض فى شكل السلع المحسوس بصفتها صور تمثل عملا إنسانياً متجانساً . لمجتمع من هذا الطراز تكون أصلح الديانات المسيحية بفكرتها عن الإنسان المعنوى المجرد ، وبخاصة المسيحية حيث تبدو فى المظاهر البورجوازية من تطورها كالبروستانتية وما إليها .

وفى نظام الانتاج الأسيوى كما كان الشأن لدى الإغريق والرومان لعب تحويل منتج العمل إلى سلعة وبالتالى تحويل الناس إلى منتجى سلع دوراً ثانوياً ، ولكن ما لبث أن ازداد أهمية إذ أخذ هذا النظام يدخل فى دور الانحلال . وشبيه بآلهة أبيقور أو اليهود فى داخل المجتمع البولندى عاشت شعوب تجارية بالمعنى الصحيح فى العالم القديم .

وقد كانت الأجهزة الإنتاجية الاجتماعية فى الأيام القديمة أشد بساطة وأكثر سهولة فى فهمها مما تجد الحال عليه فى المجتمع البورجوازى ، ولكن هذه الأجهزة كانت قائمة إما على أساس عدم نضوج الانسان الفردى (أى الذى لم يتخلص بعد من الأحوال البدائية التى تربط جميع أفراد النوع الإنسانى بعضهم إلى بعض) . وإما على أساس علاقات مباشرة من السيطرة والخضوع . فهى نظم أبتتها مرحلة منحطة من تطور قوى العمل الإنتاجية ، وهى مرحلة تميزت كذلك بعدم نضوج علاقات الناس بعضهم ببعض فى نطاق العملية التى بواسطتها ينتجون الضروريات المادية للحياة ، وبالتالى العلاقات بينهم وبين الطبيعة . هذا التقييد أو القصور فى عالم الحقائق المادية الحسية انعكس على العالم الفكرى أى عالم الأديان الطبيعية القديمة . مثل هذه الصور التى تعكس العالم الحقيقى لن تزول حتى تتخذ علاقات الآدميين فيما بينهم وفى حياتهم العملية اليومية مظهر علاقات مفهومة ومعقولة تماماً بين إنسان وإنسان وبين الإنسان والطبيعة . إن عملية حياة المجتمع ، ويقصد بذلك عملية الإنتاج المادية ، لن تفقد ما عليها من غشاء الغموض والسرية إلا إذا صارت عملية تتولاها جماعة حرة من المنتجين يدركون ما يعملون ولهم غاية يهدفون إليها عن وعى ولكن لا بد لهذا من شرط ضرورى ألا وهو وجود أساس مادى مخصوص (أو سلسلة من

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ظروف الوجود المادية) وهو الذى لايظهر إلا على أنه نتيجة تلقائية لعملية طويلة ومؤلمة من التطور .

حقيقة وفق الاقتصاد السياسى إلى نوع من التحليل ، وإن كان غير وافٍ (١) ، للقيمة وحجم القيمة وكشف ماتحتوى عليه هذه الأشكال ، ولكن الاقتصاديين لم يتساءلوا أبداً عن السبب الذى من أجله يتخذ الفحوى هذه الأشكال ، والذى من أجله يجب أن تمثل العملَ قيمة منتج العمل ويمثل مقدارَ العمل (كما يقيس بمدته) حجمُ قيمة ذلك المنتج(٢) . إننا لنقرأ على

(١) ان عدم دقة تحليل ريكاردو لحجم القيمة (وهو خير تحليل حتى الآن) سيظهر فى البابين الثالث والرابع من هذا المؤلف . وفيما يختص بالقيمة عموماً فان الاقتصاد السياسى الكلاسيكى لم يحاول أبداً أن يرسم خطاً مميزاً واضحاً كامل الوعى بين العمل كما يعبر عنه فى القيمة وبين نفس العمل كما يعبر عنه فى القيمة الاستعمالية لما ينتجه . وبالطبع نجد الاقتصاديين الكلاسيك بالفعل يحدثون هذه التفرقة لأنهم ينظرون الى النوع الأول من العمل من ناحية الكم والى الثانى من ناحية الكيف ، ولكنه لا يخطر لهم أن تمييزاً كمياً بحتاً بين نوع من العمل وآخر يفترض منذ البداية وحدة أو تشابها من حيث الكيف بين العملين وبذلك يفترض ردهما الى أساس أو معيار العمل الانسانى المجرد. ويحدثنا ريكاردو أنه متفق مع Destutt de Traey الفيلسوف الفرنسى حين يقول ,, كما أنه من المؤكد أن مواهبنا الطبيعية والأخلاقية هى وحدها ثروتنا الأصلية ، وأن استخدام تلك المواهب ، أى العمل من أى نوع . كنزنا الأصلى الوحيد وأن كافة الأشياء تمثل فقط العمل الذى خلقها ، واذا كانت لها قيمة أو حتى قيمتان متميزتان فأنها لا تستمدهما الا من العمل الذى تنشأ أو تتولد منه ،، (هذه الفقرة من ترجمة ريكاردو) Ricardo, The Principles of Political Economy, third edition, London 1821, p. 334.

وسأكتفى هنا بأن أشير الى أن ريكاردو يقيم معناه الأكثر عمقاً على أساس من كلمات دستوت دى تراسى . حقيقة يقول الفرنسى ان كافة الأشياء التى تخلق الثروة ,, تمثل العمل الذى خلقها ، ولكنه يقول من جهة أخرى انها تستمد قيمتين متميزتين (القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية) من (قيمة) العمل الذى تنشأ عنه وبهذا ينزلق الى ارتكاب الخطأ الذى وقع فيه دهماء الاقتصاديين الذين يفترضون قيمة سلعة واحدة (هى العمل فى هذه الحالة) لكى يتمكنوا بواسطتها من تعيين قيمة بقية السلع . وقد فهم ريكاردو أن الرجل قد قال ان العمل (لا قيمة العمل) يتجسم فى كلا القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية . ولكنا نلاحظ أنه من جهته يوجه قدراً ضئيلا من الاهتمام الى صفة العمل المزدوجة التى تكتسب تعبيراً مزدوجاً ، بحيث أن الفصل الذى عقده بعنوان Value and Riches, their Distinctive Properties قد خصص أغلبه لدراسة شاقة لتفاهات ج . ب . ساى وعلى ذلك تراه فى النهاية مندهشاً اذ يجد أن دتيوت دى تراسى فى الوقت الذى يتفق معه بشأن اعتبار العمل مصدر القيمة ، يوافق ساى فى فكرته عن القيمة .

(٢) من النقائص الرئيسية للاقتصاد السياسى الكلاسيكى أنه بسبب تحليل السلع وبخاصة قيمة السلع ، لم ينجح أبداً فى كشف شكل القيمة الذى يجعله قيمة تبادلية . وحتى أعظم ممثلى هذه المدرسة من أمثال آدم سميث وريكاردو يعالجون موضوع شكل القيمة على أنه أمر غير ذى أهمية أو على أنه شىء لا علاقة له بالطبيعة الأساسية للسلع . ولا يرجع

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وجه هذه الصيغ أنها تنتمى إلى نوع من التنظيم الاجتماعى نسيطر فيه عملية الإنتاج على الجنس البشرى ولم يتوصل الجنس البشرى فيه بعد إلى السيادة على عملية الإنتاج . ولكن هذه الصيغ تبدو فى نظر العقل البورجوازى على أنها لاتقل عن العمل الإنتاجى نفسه من حيث الوضوح الذاتى ومن حيث أنها ضرورة طبيعية . ولهذا السبب تجد نظرة الاقتصاديين البورجوازيين إلى أشكال جهاز الإنتاج الاجتماعى السابقة للعصر البورجوازى نظرة آباء الكنيسة إلى الديانات السابقة لظهور المسيحية (١) .

= السبب فى هذا الى أنهم يركزون اهتمامهم خاصة فى تحليل حجم القيمة فحسب ، بل ان هناك سبباً أعمق من هذا . ان شكل قيمة منتج العمل هو الشكل الأعظم تجرداً وتعميماً والذى يتخذه ذلك المنتج فى نظام الانتاج البورجوازى الذى يستمد من ذلك طابعه الخاص كنوع مخصوص من الانتاج الاجتماعى وبذلك يكتسب تميزه التاريخى الخاص . وعلى ذلك اذا كنا نعتبر خطأ أن شكل قيمة منتج العمل هو الشكل الوحيد من الانتاج الاجتماعى والذى تجعله قوانين الطبيعة الخالدة ثابتاً على كافة العصور فاننا بالضرورة نتجاهل المميزات التفاضلية الخاصة بشكل القيمة وبالتالى نتجاهل أمثال هذه المميزات الخاصة بشكل السلع وتطوراته كالشكل النقدى وشكل رأس المال الخ . وهذا هو السبب الذى من أجله نرى أنه بينما يوافق بعض الاقتصاديين تمام الموافقة على أن وقت العمل مقياس حجم القيمة ، تجدهم يدلون بآراء شديدة الاضطراب والتناقض عن النقود أى الشكل الكامل من المعادل العام . ويظهر هذا بوضوح كبير حين يأخذون فى مناقشة المصرفية وهى موضوع لم تعد فيه التعاريف العادية للنقود كافية لهداية خطى الباحث . ولهذا ظهرت طائفة أحيت المذهب التجارى بشكل جديد (وزعماؤها Ganilh وسواه) وتنظر الى القيمة على أنها ليست سوى شكل اجتماعى أو بالأحرى شبح لا أساس له من الحقيقة لمثل هذا الشكل . ودعونى أفسر لكم ما أقصده بقولى ,, الاقتصاد السياسى الكلاسيكى ،، . انى أعنى به جميع الاقتصاد السياسى الذى خصص منذ عهد و. بتى لدراسة علاقات الانتاج البورجوازى المتداخلة الحقيقية ، وذلك تميزاً له ,, عن الاقتصاد العامى ،، الذى يكتفى رجاله بتوضيح شبه علاقات الانتاج البورجوازى المتداخلة ، وهم كالحيوانات المجترة يقضون وقتهم فى مصنع المواد التى هيأها لهم الاقتصاد السياسى العلمى فى الأيام الماضية ، وهم يسعون من وراء ذلك أن يستخلصوا للغذاء البورجوازى اليومى تفسيرات مقبولة لأوضح الظواهر ، واما فيما يختص بالباقى فانهم يقنعون بصياغة النظم بشكل ينم عن سعة العلم ويصفون كحقائق خالدة أتفه الآراء وأبسطها التى يعتنقها دعاة الانتاج البورجوازى فيما يختص بعالمهم الذى يعدونه خير العوالم الممكنة .

(١) ,, ان الاقتصاديين مخلوقات غريبة وهم لا يرون الا نوعين من النظم : ما خلقه الفن وما ابتدعته الطبيعة ، والنظم الاقطاعية اصطناعية ، والنظم البورجوازية طبيعية . وهم من هذه الناحية كرجال اللاهوت الذين لا يرون الا نوعين من الدين ، وكل دين خلاف ما يعتنقون هو من وضع الانسان بينما دينهم من لدن الله . — وهكذا وجد التاريخ ولكن التاريخ انتهى الآن ،،

Karl Marx : Misére de la philosophie, réponse à la philosophie de la misère par M. Proudhon, 1847, p. 113.

ومن الشخصيات الفكاهية المستر باستيا الذى وهم أن الاغريق والرومان القدماء عاشوا على السلب وحده . اذا كان لشعب أن يعيش على السلب وحده قروناً فلا بد من أن يتبقى دائماً شىء يمكن سرقته أو أن تكون للقيمة مقدرة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إن النزاع الممل السخيف بشأن الدور الذى تلعبه الطبيعة فى خلق القيمة التبادلية ليدل على المدى الذى أضلت به الصفة السحرية لعالم السلع بعض الاقتصاديين ، ويوضح الطريقة التى خدعهم بها مظهر الحقيقة المادية الموضوعية الذى تتخذه المميزات والصفات الاجتماعية للعمل . ولما كانت القيمة التبادلية لا تعدو كونها طريقة اجتماعية مخصوصة للتعبير عن العمل المبذول فى شىء ما ، لهذا فلا يمكن أنها تحتوى من الجوهر الطبيعى (المادى) على أكثر مما يحتويه سعر الصرف مثلا .

إن شكل السلع هو أكثر أشكال الانتاج البورجوازى عمومية وأقلها نمواً ، ولهذا السبب يظهر فى وقت مبكر وإن كان ذلك بطريقة أقل تميزاً وسيطرة مما هو عليه الآن ، ولهذا السبب أيضاً يكون إدراك الطابع السحرى للسلع أسهل نسبياً . ولكن إذ ننتقل إلى أشكال أعظم نمواً وتطوراً ، نجد أنه حتى هذا المظهر من البساطة يختفى ويزول . من أين نشأت

دائمة على التجدد والتكاثر . وعلى ذلك يبدو أنه حتى الاغريق والرومان القدماء كانت لديهم عملية انتاج أى اقتصاد ان صح القول ـ تكونت منه الأسس المادية لعالمهم ، كما أن الاقتصاد البورجوازى هو الأساس المادى للعالم الحديث . أو هل يفضل باستيا أن يقول ان أسلوبا من الانتاج قائماً على عمل العبيد يرتكز على نظام من السلب ؟ انه فى هذه الحالة يسير فوق أرض خطرة . اذا كان أحد عمالقة الفكر مثل أرسطو يخطىء فى حكمه على العبودية فلماذا يكون هذا القزم بين الاقتصاديين وهو باستيا على حق فى تقديره للعمل الأجير ؟ وانى لأنتهز هذه الفرصة للرد بايجاز على نقد نشر فى صحيفة أمريكية ألمانية حين ظهر كتابى ,, نقد للاقتصاد السياسى ،، سنة ١٨٥٩ . وافق الناقد على أنه فيما يختص بالعالم المعاصر حيث الغلبة فيه للمصالح المادية ، كان ما قلته صحيحاً الى القدر الكافى . فمن الصحيح عن العالم الحديث أن طريقة الانتاج الخاصة السائدة وعلاقات الانتاج الملائمة لهذه الطريقة ـ وبعبارة أخرى البناء الاقتصادى للمجتمع ـ هى الأساس الحقيقى الذى يقوم عليه الصرح العلوى القانونى والسياسى والذى تتفق معه أشكال اجتماعية مخصوصة من الوعى . ومن الصحيح عن العالم الحديث أن طريقة انتاج الضروريات المادية للحياة تعين المميزات والصفات الاجتماعية العامة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية . ولكن هذا لا ينطبق على العصور الوسطى حين سادت الكاثلكية ، كما لا ينطبق على بلاد الاغريق وروما القديمة حيث كانت الغلبة للاعتبارات السياسية . والآن فمن الغريب أولا أن يفترض شخص فى آخر الجهل بهذه العبارات المألوفة عن العصور الوسطى القديمة . غير أن الثابت أن العصور الوسطى لم تكن لتعيش على الكاثوليكية كما أن العصور القديمة لم تكن لتحيا على السياسة . وعلى النقيض من هذا فان الطريقة التى كان الناس يحصلون بها على عيشهم فى كل من العصور القديمة والوسطى تفسر السبب الذى من أجله لعبت السياسة فى الحالة الأولى والكاثوليكية فى الحالة الثانية الدور الرئيسى . وفضلا عن هذا (ولنركز اهتمامنا فى مثل واحد معين) فان أقل دراية بتاريخ الجمهورية الرومانية ليبين لنا هذه الحقيقة وهى أن النواة السرية لتاريخها كانت مكونة من تاريخ نظام ملكية الأرض . وقد دفع دون كيشوت ثمن الخطأ الذى وقع فيه اذ اعتقد أن نظام الفروسية كان بالمثل متفقاً مع جميع أوضاع المجتمع الاقتصادية .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأوهام عن النظام النقدى ؟ لقد اعتبر التجاريون (وهم المدافعون عن النظام النقدى) الذهب والفضة وهما يقومان بوظيفة النقود لا على أنهما يمثلان علاقة إنتاج اجتماعية ، بل على أن الطبيعة قد وهبتهما خواص اجتماعية مخصوصة . والاقتصاديون الذين جاءوا بعد ذلك والذين ينظرون إلى التجاريين بعين الاحتقار وقعوا ضحية هذا الوهم السحرى بمجرد أن بدأوا بحث موضوع رأس المال . لم ينقض وقت طويل منذ تبديد ذلك الوهم الذى أشاعه الطبيعيون بشأن اعتبار ريع الأرض وليد التربة بدلا من كونه نتيجة مترتبة على النشاط الاجتماعى !

وكيلا أستبق الأمور فسأكتفى هنا بمثل واحد متصل بشكل السلعة ذاته . لو استطاعت السلع النطق لتحدثت هكذا «قد تكون قيمتنا الاستعمالية مما يهم الآدميين ولكنها ليست صفة لازمة لنا بوصفنا أشياء . إن صفتنا كأشياء هى قيمتها ، يثبت ذلك ما بيننا من علاقات متداخلة . فنحن لا نتصل بعضنا ببعض إلا بوصفنا قيم تبادلية فقط . والآن لنستمع إلى الاقتصادى يفسر لنا ما يجول فى ذهن السلعة : إن القيمة (القيمة التبادلية) خاصية الأشياء ، والثروة (القيمة الاستعمالية) خاصية الإنسان . وعلى أساس هذا المعنى فان القيمة تتضمن بالضرورة المبادلات بينما الثروة لا تدل على شىء من هذا[1] ويقول كذلك : الثروة صفة للانسان والقيمة صفة للسلع والانسان او الجماعة غنى ، واللؤلؤة أو الماسة ذات قيمة [2].

إن اللؤلؤ أو الماسة ذات قيمة بوصفها لؤلؤة أو ماسة ! لم يستطع أى كيماوى حتى الآن أن يكشف عن قيم تبادلية فى جوهرة أو ماسة .

ولكن الاقتصاديين الذين يكشفون هذه الخاصية الكيماوية (وهم قوم يدعون لأنفسهم ميزة الذكاء الناقد) يجدون أن القيمة الاستعمالية للأشياء تعلق بها مستقلة عن الخواص المادية لهذه الأشياء . وأن قيمة هذه الأشياء من جهة أخرى تعلق بها بوصفها أشياء . والشىء الذى يؤيد هذه النظرة هو الحقيقة البارزة عن أن القيمة الاستعمالية للأشياء تتحقق بدون التبادل أى بواسطة علاقة مباشرة بين الأشياء والناس ، بينما قيمة الأشياء تتحقق فقط فى التبادل أى فى عملية اجتماعية فقط . ومن المؤكد أن كل امرىء سيذكر فى هذه المناسبة

---

(١) Observations on certain Verbal disputes in Political Economy, particulary reiating to vqlue and to Supply and Demand, London, 1821 p. 16.

(٢) S, Bailey. cit., p. 165 .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التعليمات التى أعطاها دُجبرى إلى جاره سيكول حيث قال : « لأن تكون رجلا محظوظاً فهبة من الحظ ، ولكن الكتابة والقراءة من هبات الطبيعة » (١)

(١) يتفق مؤلف كتاب Observations مع س . بابلى فى اتهام ريكاردو بأنه حول القيمة التبادلية من شىء نسبى بحت الى شىء مطلق . والحقيقة أن ريكاردو سلك السبيل الآخر ، ذلك أنه أرجع هذه النسبية الظاهرية التى تتخذها الأشياء (كالماسات والالماس مثلا) بصفتها قيم تبادلية ، الى العلاقة الحقيقية المستترة تحت هذا الغشاء أو المظهر أى أرجعها الى نسبية هذه الأشياء بوصفها تعبيرات عن العمل الانسانى . واذا كان رد أتباع ريكاردو على بابلى وقحاً دون أن يكون ذا أثر فعال ، فالسبب فى هذا أنهم عجزوا أن يجدوا فى كتابات ريكاردو شيئاً يفسر العلاقة الوثيقة بين القيمة من جهة وشكل القيمة أو القيمة التبادلية من جهة أخرى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الثانى

التبـــادل

من الواضح أن السلع لاتشق سبيلها إلى السوق أو تتبادل فيما بينها من تلقاء ذاتها ، ولهذا صار من المتعين علينا أن ندرس أعمال وتصرفات أولئك الحفاظ على السلع أو المالكين لها . والسلع أشياء لا قدرة لها على مقاومة الإنسان ، وإذا لم تكن مطواعة له لجأ إلى القوة أى استولى عليها بعبارة أخرى (١) . وحتى يتسنى خلق علاقة بين السلع وجب على مالكيها أن ينشئوا فيما بينهم علاقة بصفتهم أفراد تكمن إرادتهم فى تلك الأشياء ، وينبغى أن يتصرفوا بحيث لا يختص كل منهم بسلعة الآخر أو يفرط فى سلعته إلا بعمل من الرضاء المتبادل ، كما أن على كل منهم أن يعترف بما للآخر من حقوق الملكية الخاصة . وهذه العلاقة القانونية التى يعبر عنها التعاقد (سواء صيغ ذلك بطريقة قانونية أم لا) علاقة اختيارية تنعكس عليها الصلة الاقتصادية . وهذه الصلة الإقتصادية هى التى تعين محتوى العلاقة القانونية أو الاختيارية(٢). وفى الحالة التى ندرسها ينحصر وجود الأشخاص كل إزاء الآخر على أنهم ممثلون أو مالكون للسلع . وسنرى فى بحثنا أن الشخصيات التى تظهر على المسرح الاقتصادى ليست سوى صور تمثل ما بينها من علاقات اقتصادية .

---

(١) فى القرن الثانى عشر المشهور بانتشار التقوى فيه كانوا يدرجون أشياء غريبة جداً فى زمرة السلع . ومثال ذلك أن أحد الشعراء الفرنسيين ذكر ,, النساء المتساهلين فى الفضيلة ،، من بين السلع التى تباع بسوق لا نديت وذلك الى جانب الملابس والأحذية والجلد والأدوات الزراعية الخ .

(٢) يبدأ برودون باستخلاص مثله الأعلى عن العدل ,, العدل الأبدى ،، من العلاقات القانونية المطابقة لا نتاج السلع ، ثم تراه يقرر بذلك (وبطريقة فيها عزاء لا حد له لليورجوازية الصغيرة) أن هذا الشكل من انتاج السلع أبدى كالعدالة ، وبعد ذلك يعود فيحاول أن يصوغ من جديد انتاج السلع الفعلى والنظام القانونى الفعلى الموافق له بحيث ينسجم كله مع مثله الأعلى . ماذا نرى فى كيميائى بدلا من أن يدرس القوانين الفعلية للتغيرات الذرية فى تكوين وتحليل المادة ، وبدلا من أن يحاول حل مشكلات خاصة على هذا الأساس ، يقترح تشكيل التكوين الكيماوى من جديد طبقاً ,, لآراء أبدية ،، عن ,, الطبيعية ،، و ,, المجـــانسة ،، . هل تزيد معلوماتنا عن ,, المرابى ،، حين نقول ان أعماله تتساوى مع ,, العدل الأبدى ،، و ,, المساواة الأبدية ،، و ,, روح التعاون التبادل الأبدية ،، وغير ذلك من ,, الحقائق الخالدة ،، ، وهل يذلك تزيد معلوماتنا عن آباء الكنيسة حين قالوا ان أعمال المرابى تعارضت الرحمة الخالدة ،، و ,, الايمان الخالد ،، و ,, ارادة الله الخالدة ،، ؟

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والأمر الذى يميز السلعة عن صاحبها أنها تنظر إلى أية سلعة أخرى على أنها الشكل الذى يمثل قيمتها . والسلعة بطبيعتها على استعداد للتبادل جسداً وروحاً بأية سلعة أخرى ، ولكن المالك يعوض هذا النقص فى الشعور بالمجسم المادى وذلك باستخدام حواسه الخمس . ويلاحظ أن السلعة ليست لها قيمة استعمالية مباشرة بالنسبة إلى صاحبها وإلا لما جاء بها إلى السوق ، ولكنها ذات قيمة استعمالية للآخرين . أما قيمتها الاستعمالية بالنسبة له فتنحصر فى أنها مستودع القيمة التبادلية وبالتالى التبادل[1] ، ولهذا فهو يصمم على الخلاص منها مقابل سلع أخرى لها قيمة استعمالية ذات فائدة له . وكافة السلع غير ذات قيم استعمالية لأربابها ولكنها كذلك بالنسبة إلى الغير ، ومن هنا ينبغى تغيير الأيدى التى تتداولها . وفى هذه العملية من انتقالها من يد إلى أخرى ينحصر التبادل الذى ينشىء بينها علاقة كقيم ويحققها كقيم . وعلى ذلك يجب على السلع أن تحقق ذاتها كقيم قبل أن تفعل ذلك كقيم استعمالية . ومن جهة أخرى يجب أن تظهر أنها قيم استعمالية قبل إمكان تحقيقها كقيم ، لأن العمل الذى بذل فى سبيلها يكون ذا أثر فعال إذا كان بذله قد تم بطريقة تنفع الغير . وسواء كان ذلك العمل مفيداً للغير وإنتاجه قادراً على قضاء حاجات الآخرين ، فإن إثبات ذلك لا يتم إلا عن طريق التبادل .

يرغب صاحب السلعة فى التنازل عنها وذلك باستبدالها بالسلع التى تشبع قيمتها الاستعمالية بعض حاجياته . وإذا نظرنا إلى التبادل على هذا الوجه فإنه يصبح بالنسبة إليه مجرد عملية بسيطة . ومن جهة أخرى فهو يرغب فى تحقيق قيمة سلعته وتحويلها إلى أية سلعة أخرى ذات قيمة مساوية بغض النظر عما إذا كانت لسلعته قيمة استعمالية بالنسبة لصاحب السلعة الأخرى أم لا . ومن وجهة النظر هذه يكون التبادل بالنسبة إليه عملية اجتماعية ذات طابع عام ، ولكن نفس العملية لا يمكن أن تكون فى الوقت ذاته وبالنسبة إلى أرباب السلع ذات طابع خاص بحت وذات صفة اجتماعية وعامة خالصة .

وحين نمعن النظر فى الأمر نجد أن صاحب السلعة ينظر إلى أية سلعة أخرى بنسبة سلعته كمعادل معين وبهذا يعد سلعته المعادل العام لكافة السلع الأخرى . ولما كان هذا الأمر ينطبق على كل مالك سلعة ، لهذا فليس من سلعة فى الحقيقة تستطيع أداء وظيفة المكافىء أو

(١) منفعة كل جسم مزدوجة . فالأولى خاصة بالجسم كما هو على هذا الشكل والأخرى خلاف ذلك ، كما هو الحال بالنسبة الى الخف الذى يستخدم فى اللبس وكذلك فهو قابل للتبادل . وكلاهما منفعتان للخف ، اذ أن الذى يبادله بنقود أو غذاء يحتاج اليه يستفيد من الخف بوصفه الخف . ولكن ليس ذلك فى شكله الطبيعى لانه لم يصنع بقصد مبادلته،، Aristotle. De Republica l, i, cap, 9.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المعادل العام ، وكذلك ليس لقيمة السلع النسبية أى شكل عام يمكن في ظله إجراء التعادل بينها كقيم أو الموازنة بين أحجام قيمتها . وعلى ذلك فهى لا تواجه بعضها بعضاً بصفتها سلع بل إنها تفعل ذلك على أنها منتجات أو قيم استعمالية. وإزاء هذه الصعاب التى تواجه مالكى السلع تراهم يفكرون بطريقة فاوست : فى البداية كان العمل — أى الفعل — يأتى أولا ، وعلى ذلك فهم قد تصرفوا قبل أن يفكروا . وهم بحكم الغريزة يخضعون للقوانين التى تفرضها عليهم طبيعة السلع ، لا يستطيعون أن يجعلوا سلعهم ذات علاقة بصفتها قيم إلا بمقارنتها بسلعة أخرى على أنها المكافىء العام ، وقد رأينا ذلك نتيجة تحليلنا للسلعة ، ولكن السبيل الوحيد الذى بمقتضاه يمكن لسلعة خاصة معينة أن تصير مكافئاً عاما يكون بواسطة فعل اجتماعى ، وعلى ذلك فالفعل الاجتماعى الذى تقوم به كافة السلع الأخرى يتخير سلعة معينة تعبر عن قيم جميع السلع وبهذا يصير الشكل الجسمى لهذه السلعة هو المعادل العام الذى يقره المجتمع ، أى أنه بفضل هذه العملية الاجتماعية تكون وظيفة هذه السلعة التى استبعدت عن السلع الأخرى أنها المعادل العام . وبهذه الطريقة تصبح هذه السلعة — نقوداً .

وتتخذ النقود شكلا محدداً كنتيجة لازمة لعملية التبادل ، وبواسطتها يتسنى بطريقة عملية أن نعادل بين منتجات العمل وبذا تتحول فى الواقع العملى إلى سلع . واتساع نطاق التبادل وازدياد عمق هذه العملية على مر التاريخ مما ينمى التباين بين القيمة الاستعمالية والقيمة . وهو التباين الكامن في طبيعة السلع . هذه الحاجة إلى إيجاد وسيلة خارجية للتعبير عن هذا التباين وذلك بقصد مواجهة أغراض التبادل التجارى ، هى التى تدعو إلى إقامة شكل مستقل من القيمة ، وينتهى الأمر بإشباع هذه الحاجة وذلك بتقسيم السلع إلى سلع ونقود . وكما يحدث تحول المنتجات إلى سلع ، كذلك وبنفس المدى والنسبة تتحول سلعة واحدة خاصة إلى نقود[1].

والمقايضة المباشرة للسلع تتخذ شكل التعبير الأولى عن القيمة وذلك من ناحية واحدة وهذا الشكل هو سلعة ا = ص سلعة ب . والشكل المباشر من المقايضة عبارة عن سر قيمة استعمالية ا = ص قيمة استعمالية ب[2] ، وفى هذه الحالة لا تصبح ا ، ب سلعتين إلا عن

---

(١) بهذا نستطيع أن نقيس عمق اشتراكية البورجوازية الصغيرة التى ترى الى دوام بقاء انتاج السلع بينما ترغب فى نفس الوقت فى القضاء على „ التناقض أو العداء بين النقود والسلع „ ، أو القضاء — اذا صح القول — على النقود ذاتها — مادامت النقود لا وجود لها الا بحكم هذا العداء . وهذا شبيه بعملنا لو ألغينا الكشلكة مع ابقاء البابا ! وتستطيع أن تحصل على مزيد فى هذا الموضوع من كتابى „ نقد الاقتصاد السياسى „ ص ٦١ وما بعدها .

(٢) اذا دام هناك عدد من الأدوات يقدم كمعادل لأداة واحدة (كما يحدث بين المتوحشين) بدلا من وجود تبادل بين قيمتين استعماليتين مختلفتين ، فحتى المايضة المباشرة للمنتجات تكون فى طفولتها أى فى بداية عهدها الأولى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

طريق عملية المقايضة . والخطوة الأولى التى يتعين على أى شىء ذى منفعة أن يخطوها حتى يصير قيمة تبادلية ، تكون حين لا يظل هذا الشىء النافع قيمة استعمالية لصاحبه ، ولا يحدث هذا الأمر إلا فى حالة كون جزء من أداة معينة زائداً عن حاجة صاحبها المباشرة . والأشياء فى حدذاتها وبذاتها لها وجود منفصل عن الإنسان وتبعاً لذلك يستطيع نقلها إلى الغير . وإذا أريد أن يكون هذا النقل من شخص إلى آخر متبادلا فلا بد للناس عن طريق التفاهم الصامت من أن يتعاملوا بعضهم مع بعض على أنهم ملاك لهذه الأشياء القابلة للنقل أو التحويل ، وبعبارة ضمنية على أنهم أفراد مستقلون كل عن الآخر . ولكن هذه الحالة من الاستقلال المتبادل لا وجود لها فى مجتمع فطرى قائم على أساس الملكية المشتركة ، سواء كان هذا المجتمع أسرة يسودها الأب أو جماعة هندية قديمة أو دولة من دول الإنكا فى بيرو . أن تبادل السلع يبدأ حيث تنتهى حياة الجماعة المشتركة ، ويبدأ على حدود هذه الجماعات عند اتصالها بجماعة مختلفة ، أو يبدأ عند نقطة الاتصال بين أفراد جماعتين مختلفتين . ولكن بمجرد أن تصبح المنتجات سلعاً فى علاقات الجماعة الخارجية لا تلبث أن تصير كذلك فى حالة الحياة الداخلية للجماعة وذلك بتأثير رد الفعل . وتبدو النسب الكمية التى يتم بها تبادل المنتجات عملا فى أول الأمر ، وليد الصدفة . والذى يجعل هذا التبادل ممكناً الرغبة المتبادلة لدى أربابها فى نقل ملكيتها من واحد لآخر . وخلال ذلك تنشأ الحاجة تدريجاً إلى سلع أجنبية من نفس المنفعة ، ولا يلبث التبادل أن يصير عملا اجتماعياً عادياً بحكم تكرار هذه العملية . وعلى ذلك يحدث بمرور الوقت أننا ننتج جانباً من إنتاج العمل لغرض التبادل خاصة ، ومنذ ذلك الحين يثبت التمييز بين منفعة الشىء المعد لأغراض الاستهلاك ومنفعة ذلك المعد لأغراض التبادل ، وتصبح قيمة الشىء الاستعمالية متميزة عن قيمته التبادلية . ومن جهة أخرى نجد أن النسب الكمية التى يتم بها تبادل السلع تصبح متوقفة على إنتاجها نفسه ، ولا تلبث العادة أن تجعل من هذه النسب الكمية قيماً ذات أحجام محدودة .

فى حالة مقايضة السلع تكون كل سلعة وسيلة تبادل بالنسبة لصاحبها ومعادلا بالنسبة لكافة الأشخاص الآخرين ، ولكن يتم ذلك من حيث كونها ذات قيمة استعمالية للآخرين . وعلى ذلك نرى فى هذه المرحلة أن الأدوات (الأشياء) التى نتبادلها لا تكتسب شكلا من القيمة مستقلا عن قيمتها الاستعمالية أو مستقلا عن الحاجات الفردية لأولئك الذين يجرون هذا التبادل ، وتنمو الضرورة الداعية إلى شكل للقيمة كلما حدثت زيادة فى عدد وأنواع السلع التى يحدث التبادل قيماً بينها . وتنشأ فى نفس الوقت المشكلة وكذلك الوسيلة المؤدية إلى حلها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وأصحاب السلع لا يعادلونها بالنسبة لسلع غيرهم أو يبادلونها على نطاق واسع إلا إذا كانت أنواع مختلفة من السلع يملكها أفراد مختلفون قابلة للمبادلة بها وتكون مكافئة من حيث القيم لسلعة واحدة مخصوصة . ومثل هذه السلعة الثالثة والتى تقوم بوظيفة المعادل لسلع أخرى مختلفة تكتسب فى الحال — ولو فى حدود ضيقة — صفة المعادل الاجتماعى العام ، وهذا الشكل المعادل العام يتبع أو يسير مع الإتصالات الاجتماعية المؤقتة التى تستدعى وجوده ، وهذا الشكل أيضاً تتخذه هذه السلعة أو تلك بالدور وبصفة مؤقتة . ولكن ، بسبب نمو التبادل نجد هذا الشكل يثبت على نوع خاص من السلع ثم يتبلور متخذاً شكلا محدوداً هو شكل النقود .

وفى أول الأمر يكون اكتساب سلعة معينة لهذه الصفة مسألة صدفة ، ولكن هناك أمرين أثرهما حاسم فى هذا الشأن ، فالشكل النقدى يعلق إما بأكثر سلع التبادل أهمية من الخارج وهذه في الواقع أشكال بدائية وطبيعية نعبر فيها عن القيمة التبادلية للمنتجات المحلية ، وإما تعلق بالشيء النافع الذى يكون — كما فى حالة الماشية مثلا — الجزء الأساسى من الثروة القومية القابلة للنقل والتحويل . وكانت الشعوب البدوية أول من تطور لديها الشكل النقدى لأن كافة البضائع التى تملكها تتكون من أشياء قابلة للنقل وبذلك تكون قابلة للتبادل ، وثانياً لأن أسلوب معيشة هذه الشعوب يستدعى تبادل المنتجات بسبب اتصالها المستمر بالجماعات الأجنبية عنها . وغالباً ماحدث أن استخدم الإنسان الانسان نفسه فى صورة العبيد على هيئة النقود البدائية ، ولكنه لم يستخدم الأرض مطلقاً لهذا الغرض لأن مثل هذه الفكرة لا تنشأ إلا فى مجتمع بورجوازى أكثر تقدماً ، ويعود تاريخها إلى الثلث الأخير من القرن السابع عشر ، وحدثت أول محاولة لتطبيقها عملياً على نطاق قومى واسع بعد ذلك بقرن خلال الثورة الفرنسية البورجوازية .

وبقدر خروج التبادل عن نطاق القيود المحلية وازدياد اتساع نطاق قيمة السلع بحيث تصير الصورة التى يتجسم فيها العمل الإنسانى العام ، فإن الشكل النقدى يعلق بالسلع التى أعدتها الطبيعة لأداء هذه الوظيفة الاجتماعية وهى المكافىء العام ، وهذه السلع هى المعادن النفيسة .

يقال إنه ، برغم أن الذهب والفضة ليسا نقـــوداً بطبيعتهما فإن النقود بطبيعتها ذهب وفضة [1]. ويدل على صدق هذه العبارة الخواص الطبيعية التى تجعل هذين المعدنين يؤديان

(١) وكذلك ,, والمعادن ... بالطبيعة نقود ،، .

Karl Marx, op . cit., p. 135

Galiani, Della moneta, in Custodi's collection, modern section. vol. III, p. 72.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وظيفة النقود [١]. وحتى الآن لم نعرف إلا وظيفة واحدة للنقود ألا وهى كونها الشكل الظاهرى الذى يدل على قيمة السلع أوأنها المادة التى يعبر بها المجتمع عن أحجام قيم السلع . ولا يصلح لهذا الشكل الظاهرى للقيمة سوى مادة كل جزء منها ذو صفات متماثلة واحدة . ومن جهة أخرى ، بما أن الاختلاف بين أحجام القيمة اختلاف من حيث الكم تماماً لهذا ينبغى أن تكون السلعة التى تؤدى وظيفة النقود قابلة للتأثر بالفروق الكمية ، وأن يكون فى المستطاع تقسيمها أجزاء حسبما نشاء وإعادتها إلى ما كانت عليه بضم هذه الأجزاء ثانية . وقد أسبغت الطبيعة هذه الصفات على الذهب والفضة .

والقيمة الاستعمالية للسلعة التى تؤدى وظيفة النقود ذات وجهين . فإلى جانب قيمتها الإستعمالية المخصوصة بوصفها سلعة (فالذهب مثلا يستخدم لتثبيت الأسنان أو كالمادة الخام فى أدوات الترف وغير ذلك) فإنها تكتسب قيمة استعمالية شكلية ناشئة عن وظائفها الإجتماعية المخصوصة . وبما أن كافة السلع مجرد معادلات خاصة للنقود بينما النقود هى المعادل العام لها ، لهذا فإن السلع تلعب دور سلع خاصة وذلك فى موقفها إزاء النقود التى تعد بالنسبة إليها سلعة ذات طابع عام [٣].

وقد رأينا أن الشكل النقدى إن هو إلا انعكاس للعلاقات بين كافة السلع الأخرى وهو الصورة المنعكسة التى علقت بسلعة واحدة معينة . وإن اعتبار النقود سلعة[٤] يعد على ذلك كشفاً جديداً بالنسبة لأولئك الذين عند تحليلها يبدأون بشكلها التام النمو والتطور . وعملية

---

(١) للحصول على تفصيلات أكثر فى هذا الموضوع راجع الفصل المعقود على المعادن النفيسة فى كتابى المشار اليه .

(٢) ,, النقود هى السلعة التجارية ذات الصفة العالمية الشاملة ،، Verri, op. cit., p, 16.

(٣) ,, والذهب والفضة ذاتهما ، ويجوز أن نطلق عليهما اسما عاماً وهو السبيكة ... سلعتان .. تعلو قيمتهما أو تهبط ... واذن يجوز اعتبار السبيكة على أنها ذات قيمة أعلى حيث يمكن أن يشترى بمقدار صغير منها مقدار كبير من منتجات البلد أو مصنوعاته ،، A Discourse of the General notions of Money, Trade, and Exchange, as they stand in relations to each other, by a Merchant, London, 1695, p. 7.

,, والفضة والذهب سواء كانا مسكوكين أو غير مسكوكين وبرغم استعمالهما مقياساً لكافة الأشياء الأخرى ، لا يقلان من حيث كونهما سلعه عن النبيذ والطباق والقماش ،، A Discourse concerning Trade, and that in particular of the East Indies, London, 1689, p. 2.

,,ان ما تملك الدولة من معدن نفيس وثروة لا يمكن أن يقتصر حقيقة على النقود ، كما أنه لا ينبغى استبعاد الذهب والفضة من كونهما بضائع أى تجارة ،، The East India Trade a most profitable Trade, London, 1677, p. 4.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التبادل التى تحول السلع إلى نقود لا تكسب السلعة قيمة وإنما تسبغ على قيمتها شكلا مخصوصاً معيناً . وبرغم هذا فنظراً للخلط بين القيمة على وجه العموم وبين شكلها المخصوص نرى بعض الكتاب قد اعتبر قيمة الذهب والفضة خيالية(١) وإذا كانت النقود فى بعض وظائفها يمكن أن تحل محلها رموز دالة عليها لهذا نشأ خطأ آخر وهو الاعتقاد بأن النقود مجرد رمز . ومع ذلك نجد فى هذا الخطأ إدراكاً بأن الشكل النقدى للشيء ليس جزءاً غير قابل للانفصال عن هذا الشيء وإنما هو مجرد الشكل الظاهرى الذى تبدو فيه علاقات اجتماعية معينة يخفيها هذا الشيء . وبهذا المعنى يمكن اعتبار كل سلعة رمزاً أى أنها بقدر ما تكون لها قيمة عبارة عن الغطاء المادى للعمل الإنسانى الذى بذل فى إنتاجها(٢) ولكن إذا قلنا إن الصفات

---

(١) ,,الذهب والفضة قيمة بصفتهما معادن وذلك قبل أن يكونا نقوداً Galiani. op, cit. ، وكتب لو يقول ,, ان الرضاء الشامل من جانب الجنس البشرى أسبغ قيمة خيالية على الفضة بسبب الصفات التى جعلتها تصلح نقوداً ،، . وتساءل لو من جهة أخرى ,, كيف تستطيع شعوب مختلفة أن تجعل لأى شيء واحد قيمة خيالية ؟ .. أو كيف أمكن لهذه القيمة الخيالية أن تحافظ على ذاتها وتبقى ؟ ،، ولكن العبارات التالية تدلنا على مدى قلة فهمه للأمر ,, كان تبادل الفضة يجرى بنسبة مالها من قيمة فى الاستعمال وبالتالى بنسبة قيمتها الحقيقية ، وقد اكتسبت قيمة اضافية باتخاذها نقوداً ،، John Law, Considérations sur les numéraire et le commerce, in E. Daire's economistes financiers du XVIII siecle, p, 470

(٢) ,, النقود رمز للسلع ،، V. de Forbonnais, Eléments du commerce. (الطبعة الجديدة ـ ليدن سنة ١٧٧٦) المجلد الثانى ص ١٤٣ . ,, ويوصفها رمز فان السلع تجذبها ،، شرح ص ١٥٥ ,, النقود رمز لشيء وتمثله ،، .

Montesquieu, Esprit des lois, Oeuvres, London, 1767 vol 11 p. 2

,, ليست النقود رمزاً فحسب لأنها ذاتها ثروة . انها لا تمثل القيم ولكنها المعادل للقيم ،،

Le Trosne, op. cit. p. 910.

,,حين نتأمل فكرة النقود فاننا ننظر الى الشيء ذاته على أنه لايزيد عن كونه رمزاً ، ولا تنحصر أهميتها من حيث ذاتها وانما من حيث ما تساويه ،، . Hegel, op. cit., 100 وقد سبق رجال القانون الاقتصاديين فى ادراك أن النقود ليست الا رمزاً وأن قيمة المعادن النفيسة خيالية صرفة . وقد وصلوا الى ذلك الرأى وهم يخدمون الملوك بتقييدهم حق الأخيرين فى خفض العملة خلال العصور الوسطى مستشهدين على ذلك بتقليد الامبراطورية الرومانية والآراء الواردة فى مجموعة قوانين الامبراطور جستنيان عن النقود . ومن تلاميذهم الاكفاء فى تطبيق رأيهم فليب فالوا الذى أصدر مرسوماً سنة ١٣٤٦ قال فيه ,, لا يستطيع امرىء ولا ينبغى له أن يشك أن لنا ولذاتنا الملكية فقط عمل وحقيقة وحالة واعداد كافة قوانين العملات القديمة ، ولنا أن نأمر بتداولها بالثمن الذى نراه فى صالحنا ،، . وكان القانون الرومانى يرى أن قيمة النقود تتحدد بالأوامر الامبراطورية ، وكان يحرم صراحة اعتبار النقود سلعة . ,, ليس لأى انسان الحق فى شراء النقود اذ ليس من الأمور السليمة أن نجعل منها بضاعة مادامت معدة للاستعمال العام ،، وتجد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الاجتماعية التى تتخذها الأشياء أو أن الأشكال المادية التى تتخذها الصفات الاجتماعية للعمل فى ظل نظام قائم على أسلوب محدود من الإنتاج ، إن هى إلا رموز ، لكان علينا كذلك أن نصرح في الوقت ذاته بأن هـذه المميزات إن هى إلا أقاصيص تعسفية أقرها ما يطلق عليه اسم رضاء الجنس البشرى وهى وليدة خيال الإنسان . وكان هذا هو الأسلوب الذى فسروا به الأمور فى القرن الثامن عشر لأن عجز الناس عن تعليل نشأة الأشكال المحيرة التى اتخذتها العلاقات الاجتماعية بين فرد وآخر ، جعلهم يحاولون تجريدها من مظهرها الإجتماعى بأن ينسبوا إليها نشأة هى وليدة العرف والتقاليد .

سبق أن أشرت إلى أن الشكل المعادل للساعة لا يتضمن أى تحـديد أو تعيين كمى لحجم قيمتها . حين نعلم أن الذهب نقود وأنه لذلك يمكن مبادلته بكافة السلع الأخرى فإن هذا لا يحمل معه معرفتنا بقيمة ١٠ أرطال من الذهب مثلا ، فالذهب كأى سلعة أخرى ، لا يعبر عن حجم قيمته إلا على هيئة علاقة بينه وبين السلع الأخرى ، وقيمته تتحدد بمقدار وقت العمل اللازم لإنتاجه وتلك القيمة يعبر عنها بمقدار من أية سلعة أخرى ينطوى على مقـدار مساو من وقت العمل (١) ومثل هذا التحديد الكمى لقيمته النسبية يحدث عنه مركز إنتاج الذهب عن طريق المقايضة ، فقيمته تكون قد تحددت فى الوقت الذى يدخل فيه نظام التداول وقد أدرك الناس فى العقود الختامية من القرن السابع عشر أن النقود سلعة ولـكن هذه الخطوة لم تكن إلا المرحلة الأولى فى التحليل . وليست الصعوبة أن ندرك أن النقود سلعة ، ولـكنها تنحصر فى كشف الـكيفية والسبب والوسيلة التى بها يمكن أن تكون سلعة ما نقودا (٢) .

= بحثاً طيباً فى هذه المشكلة فى كتاب Saggio sopra il guisto pregio المسمى G. F. Pagnini della cose ، ١٧٥١ ، كستودى ، القسم الحديث ، المجلد الثانى . ويوجه بانبينى فى الجزء الثانى من مؤلفه ,,النقد والهجوم،، نحو رجال القانون بصفة خاصة .

(١) ,,اذا استطاع فرد أن يأتى الى لندن بأوقية من الفضة قد استخرجت من بيرو فى نفس الوقت الذى يستطيع فيه انتاج بوشل من القمح ، فاذن يكون أحدهما الثمن الطبيعى للاخر . ولكن اذا أمكن بفضل كشف مناجم جديدة يسهل العمل فيها ، انتاج أوقيتين من الفضة بنفس السهولة التى كان يتم بها انتاج أوقية من قبل لكان البوشل رخيصاً بعشر شلنات كما كان كذلك قبلا بخمس شلنات،، .

William Petty: A Treatise on Taxes & Contributions, London 1667. P.31

(٢) يقول لنا الأستاذ روشر ما يأتى ,, يمكن تقسيم التعاريف الخاطئة عن النقود الى مجموعتين رئيسيتين وهما التعاريف التى تعتبر النقود شيئاً أكثر من سلعة ، والتعاريف التى تنظر اليها على أنها شىء أقل من سلعة،، ؛ ثم يتلو ذلك بيان مضطرب بالمؤلفات التى وضعت عن طبيعة النقود وبعد ذلك يستخلص هذه الفظة ,, وفضلا عن هذا لا يمكن أن ننكر أن معظم الاقتصاديين الحديثين قد أخفقوا فى رؤية الخواص التى تميز النقود عن السلع الأخرى (وعلى ذلك

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

رأينا من أبسط تعبيرات القيمة وهو س سلعة ا = ص سلعة ب أن الشيء الذى يعبر عن حجم قيمة شيء آخر يبدو أن له شكله المعادل مستقلا عن هذه العلاقة ، أى أن له هذا كصفة طبيعية اجتماعية . وقد تتبعنا الطريقة التى بها تدعّم هذا المظهر الباطل ، ويكمل التدعيم بمجرد اتحاد الشكل المعادل العام مع الشكل المادى لنوع مخصوص من السلع أى بمجرد تبلوره واتخاذه الشكل النقدى . والذى يحدث ليس أن السلعة تتخذ مظهر النقود لأن كافة السلع الأخرى عموماً تعبر عن قيمتها بواسطة هذه السلعة ، ولكن العكس هو الواقع بمعنى أن السلع يبدو أنها تعبر عن قيمتها بواسطة هذه السلعة لأن الأخيرة نقود . وتختفى الخطوات المتوسطة فى النتيجة دون أن تخلف آثاراً بعدها . وبدون أى تعاون من جانب السلع فإن هذه تجد الشكل الدال على قيمتها على هيئة سلعة أخرى موجودة خارجاً عنها وإلى جانبها . والذهب والفضة حين يخرجان من باطن الأرض هما فى الوقت ذاته الصورة المباشرة التى يتجسم فيها كل العمل الإنسانى . وفى هذا تلقى سحر النقود . فى هذا المجتمع الذى ندرسه نرى أن علاقات الناس الاجتماعية بعضهم ببعض فى الإنتاج تتخذ شكلا مادياً مستقلا عن رقابتهم وإشرافهم وأعمالهم الفردية الواعية . وفى أول الأمر يكشف الغطاء عن هذه الأشياء بواسطة كون منتجات العمل بوجه عام تتخذ شكل السلعة .

وعلى ذلك فلغز الطابع السحرى للنقود إن هو إلا لغز الطابع السحرى للسلع الذى بهرنا فى أول الأمر ثم أصبح الآن واضحاً فى النقود .

= فهى أكثر أو أقل من سلعة !) ، ولهذا فان رد الفعل الشبيه بالمذهب التجارى والذى أحدثه Ganilh له ما يبرره الى حد ما ،، Wilhelm Roscher, Die Grundlagen der Nationaloekonomie الطبعة الثالثة ١٨٥٨ ص ٢٠٧ — ٢١٠ ... يالها من عبارات دقيقة ! هذا هو الكلام التافه العديم المعنى الذى أحسن أستاذ اختياره والذى حمله تواضعه على وصفه بالطريقة التشريحية الفسيولوجية ،، للاقتصاد السياسى ! وعلينا أن ننسب اليه على الأقل الفضل فى أنه وصل الى كشف واحد وهو أن النقود سلعة طيبة سارة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الثالث

النقود أو تداول السلع

(١) مقيـــاس القيم

سأفترض خلال هذا المؤلف أن الذهب هو السلعة التى تضطلع بوظيفة السلعة النقدية ؛ وتبسيط الأمور هو الغاية التى أتوخاها من هذا الفرض.

إن وظيفة الذهب الأولى أن يهيء لعالم السلع مادة للتعبير عن قيم السلع ، أو أنه يمثل قيمتها بصفتها أحجام ذات مقياس واحد وقابلة للموازنة فيما بينها من حيث نوعها ومقدارها ، وبهذا يقوم الذهب بوظيفة المقياس العام للقيم ، وهو لكونه معادل السلع الخاص لا يصبح نقوداً إلا بحكم هذه الوظيفة التى يضطلع بها .

ليست النقود هى التى تجعل السلع قابلة للتعادل أو ذات معيار واحد بل الصحيح هو العكس ، ذلك أنه لما كانت السلع من حيث كونها قيما تمثل عملا إنسانياً وبذلك تكون قابلة للمعادلة فيما بينها لهذا يمكن أن تقاس قيمها جميعاً وفق سلعة واحدة مخصوصة ، وبهذا يمكن لهذه الأخيرة أن تتحول إلى مقياس القيم العام أى إلى نقود . والنقود بوصفها مقياس القيمة عبارة عن الشكل الذى يبدو فيه مقياس قيمة السلع الكامن فيها ونقصد به وقت العمل(١) .

حينما نعبر عن قيمة السلعة بالذهب فنقول إن س من السلعة أ = ص من السلعة النقدية ، فإننا

---

(١) لماذا لا تمثل النقود ذاتها وقت العمل بصفة مباشرة بحيث أن قطعاً مطبوعة من الورق مثلا يمكن أن تمثل س من ساعات العمل ؟ هذا السؤال هو كالسؤال التالى : اذا علمنا انتاج السلع فلماذا يجب أن تتخذ منتجات العمل شكل سلع ؟ وهذا واضح نظراً لأن اتخاذها شكل سلع يتضمن معنى تفرقتها الى سلع ونقود . ولو كان الأمر خلاف هذا لأمكن النظر الى العمل الفردى كأنه عمل اجتماعى ذو صفة مباشرة وهو الأمر الذى يعد العكس . وقد قمت فى موضع آخر ببحث دقيق فى ماهية تلك الفكرة التصورية أو الخيالية عن ,, نقود العمل ،، فى مجتمع يقوم على أساس من انتاج السلع ، ويكفى أن أزيد على ما سبق قوله أن ,, نقود العمل ،، التى ذكرها أون تعتبر ,, نقوداً ،، بالقدر الذى نعتبر به تذكرة المسرح ,, نقوداً ،، ويفترض أون مقدماً وجود عمل متحد أى يقوم به أفراد متحدون بصفة مشتركة وهى طريقة انتاج تخالف انتاج السلع . وأما شهادة العمل فدليل على الدور الذى يقوم به فرد فى العمل المشترك وعلى حقه فى نصيب معين فى النواتج المشترك المعد للاستهلاك ؛ ولكن أون لا يفكر مطلقاً فى أن يفترض مقدماً وجود انتاج السلع ومع ذلك يحاول بمثل هذه التفاهة فى بحث موضوع النقود أن يتحاشى النتائج الضرورية المترتبة على نظام انتاج السلع .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

نقصد شكلها النقدى أى الثمن . والمعادلة التالية القائمة بذاتها وهى طن من الحديد = أوقيتين من الذهب تكفى لبيان قيمة الحديد بطريقة ثابتة فى نظر المجتمع ، وبهذا تنتفى الحاجة إلى أن تكون هذه المعادلة حلقة فى سلسلة المعادلات التى تعبر عن قيم كافة السلع الأخرى . والسبب فى هذا أن السلعة المعادلة وهى الذهب قد اتخذت شكل النقود ، وكذلك استعاد الشكل العام للقيمة النسبية مظهره الأصلى وهو الشكل البسيط أو المنعزل للقيمة النسبية . ومن جهة أخرى نجد أن التعبير النسبى الممتد للقيمة وسلسلة المعادلات التى لا حد لها أصبحا الشكل النسبى الخاص لقيمة السلعة النقدية ، وهذه السلسلة صارت تقدم لنا على هيئة أثمان السلع . ويكفى أن نقرأ قوائم الأثمان السائدة بطريقة عكسية حتى نرى حجم قيمة النقود وقد عبر عنها فى كافة أنواع السلع ولكن النقود من جهة أخرى ليس لها ثمن ، ولكى نجعلها على قدم المساواة مع السلع الأخرى نضطر إلى جعلها معادلة لنفسها أى المكافىء فى معادلة تكون النقود فيها الطرف الأول .

وكما هو الشأن فى شكل قيمة السلع فإن ثمن السلع أو شكلها النقدى متميز تماماً عن شكلها المادى الحقيقى ، فهو إذا صح التعبير شكل وليد الفكر أو التصور . وبرغم أن قيمة الحديد والتيل والقمح لا يمكن رؤيتها ، إلا أن لها وجوداً حقيقياً فى هذه السلع ذاتها ، ولكننا ندركها بعين العقل وعن طريق التعادل مع الذهب . ولذلك يتعين على مالكى السلع إن أرادوا التعريف بأثمانها أن يعيروها ألسنة (١) . أو يلصقوا على أجسامها بطاقات ورقية . ولما كان تقويم السلع بالذهب عمل عقلى بحت جاز لنا أن نستعمل لهذا الغرض نقوداً لا وجود لها إلا فى عالم الفكر أو الخيال . حين يعبر كل تاجر عن قيمة بضائعه على شكل ثمن أى شكل الذهب التصورى ، فإنه يدرك تمام الإدراك أن هذه البضائع لم تتحول إلى نقود ، كما يعلم أنه حين يقدر بضائع معينة بملايين القطع الذهبية فإن هذا لا يتطلب مطلقاً وجود أية قطعة من

---

(١) للشعوب المتوحشة وشبه المتوحشة طريقة مختلفة عن هذا فى استخدام اللسان ، وقد كتب الكابتن بارى عن سكان الساحل الغربى لخليج بافن مشيراً الى الأدوات التى تعرض للمقايضة ,, فى هذه الحالة كانوا يلعقونها بألسنتهم مرتين وبعدها يعدون المبادلة قد تمت على وجه مرض ،، . وكذلك يفعل الأسكيمو الشرقيون اذ يلعقون السلع التى يتبادلونها . فاذا كان اللسان يستخدم فى الشمال كعضو يدل على امتلاك الشىء فلا مدعاة للدهشة اذا كان البظر يستعمل فى الأقاليم الجنوبية عضواً يدل على تراكم الممتلكات أو الثروة بحيث أن ثروة الشخص فى قبائل Kaffirs تقاس بحجم ذلك الجزء من جسم الشخص . وتدل الحقيقة التالية على أن أهل هذه القبائل يدركون معنى ما يفعلون ، فقد أظهر التقرير الصحى الذى أصدرته السلطات البريطانية سنة ١٨٦٤ أن جانباً كبيراً من أفراد الطبقة العاملة لم يحصل على كفايته من الغذاء الذى يعيب سمنة الجسم ولذا تجد الدكتور هارفى (وهو غير سميه المشهور الذى كشف الدورة الدموية) يعلن عن وصفات لخفض السمنة فى أجسام أفراد البورجوازية والارستقراطية .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المعدن الحقيقى . وعلى ذلك حـــين تقوم النقود بمهمة مقياس القيمة فإنها لا تكون سوى نقود لا وجود لها إلا فى ميدان الفكر . وقد سبب هذا أغرب النظريات (١). وبرغم هـذا الإعتبار فالثمن يتوقف تماماً على النقود الحقيقية أو ذات الوجود المادى . فقيمة الطن من الحديد ، أو بعبارة أخرى مقـدار وقت العمل الذى يتضمنه هذا الطن ، إنما نعبر عنها فى خيالنا بذلك المقدار من السلعة النقدية الذى يتكلف أى يتضمن نفس القدر من وقت العمل . وعلى ذلك إذا كان مقياس القيمة هو الذهب أو الفضة أو النحاس فإننا نعبر عن قيمة طن الحديد بأثمان مختلفة أى بمقادير مختلفة من هذه المعادن على التوالى .

وإذا كانت سلعتان مختلفتان كالذهب والفضة تؤديان فى نفس الوقت الواحد وظيفة مقاييس القيمة أصبح فى الإمكان أن نعبر عن ثمن جميع السلع بتعبيرين مختلفين أحدهما بمقياس الذهب والآخر بمقياس الفضة . ويظل هذان قائمين جنباً إلى جنب طالمـا لم تتغير النسبة بين المعدنين وهى ١٥ : ١ مثلا . وأى تغيير فى النسبة بين المعدنين يحدث اضطراباً فى النسبة القـائمة بين الثمن المقوم بمقياس الذهب والآخر المقـدر بالفضة .

وهذا يثبت لنا أن وجود معيار مزدوج للقيمة لا يتفق مطلقاً مع وظائف هذا المعيار (٢).

---

(١) راجع كارل ماركس فى كتاب ,, نقد الاقتصاد السياسى ،، ص ٥٣ وما بعدها بصدد النظريات المتعلقة بوحدة قياس النقود .

(٢) ,, حيثما اعتبر القانون الذهب والفضة مقاييس قيمة تستعمل فى نفس الوقت الواحد فقد حدثت محاولة عابثة لاعتبارهما كأنهما نفس المادة الواحدة . والغرض الذى يذهب الى وجود نسبة غير متغيرة بين مقادير الذهب والفضة التى ينطوى كل منها على كمية معلومة من العملة ، ان هو فى الحقيقة الا فرض يرى أن الذهب والفضة من نفس المادة ، وأن كمية محدودة من المعدن الأقل قيمة وهو الفضة عبارة عن كسر ـ جزء ـ من كمية محدودة من الذهب وغير قابل للتغيير . وتاريخ العملة الانجليزية من أيام ادورد الثالث حتى عهد جورج الثانى سلسلة متصلة من الاضطرابات الناشئة عن الصراع بين التحديد القانونى لنسبة ما بين الذهب والفضة من جهة وبين تقلباتهما الفعلية من حيث قيمتهما من جهة أخرى . فيمكن فى احدى اللحظات تقدير قيمة عالية للذهب بينما يعمل نفس الشىء بالنسبة الى الفضة لحظة أخرى . وقد سحب من التداول المعدن الذى كان يقدر بأقل من قيمته وتبعاً لذلك غير القانون النسبة بين المعدنين ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى حدث التنافر مرة أخرى بين النسبة الاسمية الجديدة والنسبة الحقيقية . وفى أيامنا هذه كان من أثر الهبوط الطفيف الزائل فى قيمة الذهب بموازنته بالفضة نتيجة اشتداد الطلب من الهند والصين على الأخيرة أن حدثت نفس الظواهر فى فرنسا على نطاق أوسع مدى لأن الفضة كانت تصدر ويطردها الذهب من التداول . وفى سنوات ١٨٥٥ ، ١٨٥٦ ، ١٨٥٧ بلغت زيادة الواردات من الذهب على الصادرات منه فى ذلك البلد ٤١،٥٨٠،٠٠٠ جنيه وبلغت زيادة الصادر من الفضة على الوارد منها ١٤،٧٠٤،٠٠٠ جنيه . والواقع أنه فى البلاد التى يعترف فيها القانون بالمعدنين مقاييس للقيمة بحيث يعد لكليهما قوة ابراء قانونية ولكل امرىء حرية الدفع بالذهب أو الفضة ، فان المعدن الذى يعلو

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وتبدو لنا السلع ذات الأثمان المحدودة على الوضع الآتى :

ا سلعة ا = س ذهب

ب سلعة ب = ع ذهب

ج سلعة ج = ص ذهب الخ

ففى هذه المعادلات تمثل ا ، ب ، ج مقادير محدودة من السلع ا ، ب ، ج ، بينما س ، ع ، ص تمثل مقادير محدودة من الذهب ، وبذلك تحول قيم السلع إلى مقادير خيالية من الذهب ذات حجم متباين ، أى تحول برغم تعدد السلع المحير وتصبح أحجاماً ذات مقياس واحد وهى أحجام ذهبية . وإذ تتخذ شكل هذه المقادير المتباينة من الذهب يصبح فى الإمكان الموازنة أو المعادلة بينها وإرجاعها جميعاً إلى مقدار ثابت من الذهب بوصفه وحدة القياس . وهذه الوحدة ، عن طريق تقسيمها فيما بعد إلى أجزاء ، تتعرض لتطور خلاف هذا فيصير المعيار . والذهب والفضة والنحاس أمثال هـــذه المقاييس المعيارية قبل أن تصبح نقوداً إذ يمكن وزنها طبقاً لمعيار مقبول ، وهكذا يصلح الرطل كوحدة المجموعة . وهـــذا الرطل يمكن تقسيمه إلى أوقيات الخ . أو مضاعفاته لتكوين هندردويتات الخ[1] ولهذا نجد أنه فى كافة العملات المعدنية كانت الأسماء المطلقة على معايير النقود أو الثمن مأخوذة فى الأصل من الأسماء التى كانت تطلق قبل ذلك على معايير الوزن .

وتؤدى النقود وظيفتين مختلفتين ، وذلك بوصفها مقياس للقيمة ومقياس للثمن . فهى مقياس القيمة لأنها الصورة التى يتجسم فيها العمل الإنسانى ، وهى مقياس الثمن من حيث أنها توجد على هيئة وزن ثابت من المعدن . وبوصفها مقياس للقيمة تقوم بمهمة تحويل قيم السلع

= قيمته يصبح سلعة مثل أية سلعة أخرى يقاس ثمنها بالمعدن المقوم بأكثر من قيمته وهذا الأخير هو الذى يقوم وحده بدور المعيار والمحتوى الحقيقى للقيمة . وتوضح كافة التجارب التاريخى فى هذا المضمار أنه حيثما يعترف القانون لسلعتين بحق مزاولة وظيفة مقاييس القيمة فان احدهما — من ناحية التطبيق العملى — هو الذى يحتفظ بمركزه كمعيار للقيمة » .

Karl Marx : op. cit., p.p. 52. 53.

(١) ان الظرف الخاص الذى من أجله فى انجلترا لا يعتبر الجنيه الاسترلينى جزءاً من الأوقية مع أن الأوقية من الذهب هى وحدة معيار النقود قد فسروه على الوضع الآتى « كانت عملتنا فى الأصل ملائمة لاستخدام الفضة فقط ومن هنا يمكن دائماً تقسيم الأوقية من الفضة الى عدد معين من الأجزاء أو القطع النقدية ، ولما كان الذهب قد أدخل فى عهد متأخر واستخدم فى عملة ملائمة للفضة فقط لهذا لا يمكن ضرب الأوقية من الذهب الى عدد معين من الأجزاء » Maclaren : A Sketch of the History of Currency, London, 1858 p. 16

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المختلفة إلى أثمان أى إلى مقادير تصورية من الذهب ، وبوصفها مقياس للثمن فإنها تقيس هذه المقادير من الذهب . ومقياس القيم يقيس السلع المعتبرة قيما ، وأما مستوى الأثمان فعلى النقيض من ذلك يقيس مقادير الذهب بواسطة وحدة منه تشمل مقداراً معلوماً منه ، ولكنه لايقيس مقداراً من الذهب بوزن مقدار آخر . ولكى يتسنى اتخاذ الذهب معياراً للأثمان يجب الاتفاق على وزن معين منه يتخذ وحدة معلومة . وفى هذه الحالة ، كما هو الشأن فى جميع الحالات التى تقاس فيها مقادير من عيار واحد ، يصير اتخاذ وحدة قياس غير قابلة للتغيير أمراً بالغ الأهمية . وعلى ذلك كلما كانت هذه الوحدة أقل عرضة للتغيير كان معيار الأثمان أصلح لأداء مهمته . ولكن الذهب يصلح مقياساً للقيمة لأنه هو ذاته منتج عمل ، وبهذا يكون فى أساسه أو فى طبيعته قابلا للتغيير من حيث قيمته (١) .

وواضح أن التغيير فى قيمة الذهب لا يؤثر فى وظيفته من حيث أنه مستوى الأثمان ، ولذلك فبرغم تغير هذه القيمة تظل النسبة القائمة بين قيم المقادير المختلفة من الذهب ثابتة ، وحتى لو كان الهبوط فى قيمة الذهب بمقدار ١٠٠ ٪ فإن ١٢ أوقية منه لا تزال تساوى من حيث القيمة ١٢ ضعفاً من الأوقية الواحدة . والشىء الجدير بالاعتبار فى الأثمان هو العلاقة بين المقادير المختلفة من الذهب . ومن جهة أخرى لما كان أى ارتفاع أو انخفاض فى قيمة الذهب لا يغير من وزنه كذلك لا يتغير وزن الأجزاء التى ينقسم إليها وهكذا يظل الذهب مؤدياً مهمته كمستوى ثابت غير متغير للأثمان مهما تغيرت قيمته . كذلك لايؤثر أى تغيير فى قيمة الذهب فى وظيفته كمقياس للقيمة ، فهذا التغيير يؤثر فى السلع كلها فى نفس الوقت وبهذا تظل قيمتها النسبية فيما بينها غير متغيرة برغم أن ثمنها بالذهب يقدر بمبلغ أعلى أو أدنى عن ذى قبل . وكما أننا حين نقدر قيمة أية سلعة بمقدار محدود من القيمة الاستعمالية لسلعة أخرى كذلك حين نقوم الأولى بالذهب فإننا فى الواقع لا نفترض أكثر من أن مقداراً معلوماً من الذهب يتكلف مقداراً معلوماً من العمل فى وقت معلوم .

أما تقلبات الأثمان بوجه عام فتخضع لقوانين القيمة النسبية الأولية التى درسناها قبلا . إن الارتفاع العام فى أثمان السلع لا يتأتى إلا عن ارتفاع فى قيمتها مع ثبات قيمة النقود أو من هبوط فى قيمة النقود مع ثبات قيمة السلع . ومن جهة أخرى يرجع الانخفاض العام فى الأثمان إما إلى هبوط فى قيمة السلع مع ثبات قيمة النقود ، وإما إلى ارتفاع قيمة النقود مع

(١) تجد فى مؤلفات الكتاب الانجليز عن العملة اضطراباً لا يمكن وصفه وخلطاً كبيراً بين مقياس القيمة ومستوى الأثمان ، وتراهم يستخدمون وظائف وأسماء الواحد مكان وظائف وأسماء الآخر .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ثبات قيم السلع وعلى هذا ليس من المحتم أن ارتفاع قيمة النقود يتضمن هبوطاً بنفس النسبة فى أثمان السلع ، أو أن هبوطاً فى قيمة النقود يؤدى إلى ارتفاع الأثمان بنفس النسبة . إن مثل هذا التغيير فى الثمن صحيح فى حالة السلع التى تظل قيمتها ثابتة ، أما فى حالة السلع التى ترتفع قيمتها مع قيمة النقود فى نفس الوقت وبنفس النسبة فلا تغيير فى الثمن . وإذا كان الارتفاع فى قيمتها أسرع أو أبطأ منه فى قيمة النقود فإن الذى يعين ارتفاع أثمانها أو هبوطه إنما هو الفرق بين التغيير فى قيمتها وقيمة النقود وهكذا ولنرجع الآن إلى شكل الثمن .

ينشأ بالتدريج تباين بين الأسماء النقدية التى تطلق على الأوزان المختلفة من المعدن النفيس الذى يستخدم كنقود ، وبين الأوزان الحقيقية التى كانت هذه الأسماء تدل عليها فى الأصل . ويرجع هذا التباين إلى أسباب تاريخية أهمها (١) استيراد النقود الأجنبية إلى مجتمع لم يكتمل نموه كما فى روما فى مستهل تاريخها حيث تداول القوم العملات الذهبية والفضية فى أول الأمر على أنها سلع أجنبية . فأسماء هذه العملات الأجنبية لا تتفق مطلقاً مع أسماء الأوزان القومية . (٢) بازدياد الثروة كلما قل طرد المعدن النفيس من مكانه كمقياس للقيمة بواسطة معدن أنفس منه مهما كانت هذه العملية متناقضة مع الترتيب الزمنى . فكلمة « باوند » كانت الاسم النقدى الذى يطلق على ما زنته رطل من الفضة ، فلما حل الذهب محل الفضة مقياساً للقيمة استعمل هذا الاسم للدلالة على $\frac{1}{40}$ من رطل من الذهب طبقاً للنسبة بين قيمتى المعدنين . وهكذا أصبحت كلمة باوند فى التعبير النقدى متميزة عنها كاسم يدل على الوزن[1] (٣) جرى الحكام قروناً طويلة على سياسة خفض العملة وتوسعوا فى ذلك بحيث لم يبق فى الحقيقة من الأوزان الأصلية للعملات سوى اسمها[2].

أوجدت تلك الأسباب التاريخية هذا الاختلاف بين اسم النقود واسم الوزن بحيث أصبح هذا عادة ثابتة أقرها المجتمع . ولما كان مستوى النقود وليد العرف من جهة كما يجب أن يلقى قبولا من الجميع ، تدخل القانون فى النهاية لتنظيمه فتجد مقداراً معلوماً من المعدن النفيس ، وليكن أوقية من الذهب تنقسم أجزاء معترفاً بها رسمياً ولها أسماء ذات صبغة قانونية كالجنيه والدولار الخ .. هذه الأجزاء التى تعد وحدات نقدية تنقسم كذلك أجزاء

---

(١) لذلك يدل الجنيه الاسترلينى الانجليزى على أقل من $\frac{1}{4}$ وزنه الأصلى ، والجنيه الاسكتلندى (قبل اتحاد البلدين) $\frac{1}{5}$ ، والوينتو الفرنسى $\frac{1}{4}$ ، والأسبانى أقل من $\frac{1}{1000}$ ، والريس Rey البرتغالى يدل على كسر أصغر بكثير .

(٢) ان النقود التى تعد اليوم خيالية تصورية هى أقدم الأشياء عهداً فى أى أمة . وقد كانت جميعها فى وقت من الأوقات حقيقية ، الأمر الذى جعلها تستخدم لاجراء عمليات الحساب ،، Della moneta, p. 153 (جاليانى).

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فرعية يعترف بها القانون كالشلن والبنس[١] ولكن قبل إجراء هذه التقسيمات وبعده لابد أن يكون مستوى النقود المعدنية وزناً محدوداً من المعدن ، وينحصر التغيير الوحيد في التقسيم الفرعي وأساس القياس .

هكذا نجد أن الأثمان أو مقادير الذهب التي تتحول إليها قيم السلع بطريقة نظرية يعبر عنها بأسماء العملات أو بالأسماء القانونية للأجزاء التي ينقسم إليها العيار الذهبي . وعلى ذلك بدلا من أن نقول إن الربع من القمح يساوى أوقية من الذهب نقول إنه يساوى ٣ جنيه ١٧٠ شلن ، ٥ر١٠ بنس وبهذه الطريقة نجد الأثمان تدل على مقدار ما تساويه السلع وبهذا تؤدى النقود وظيفة نقود حسابية money of account [٢] حينما تكون المسألة عبارة عن تحديد قيمة سلعة بشكلها النقدى أى بالنقود .

يتميز اسم الشيء عن صفاته فأنا لا أدرى شيئا عن هذا الرجل لو عرفت أن اسمه يعقوب وهذا هو الشأن بصدد النقود حيث فى الأسماء جنيه ودولار وفرنك يختفى كل أثر لعلاقة القيمة . ويعظم الاضطراب الناجم من نسبة معنى خفى لهذه الأمارات الغامضة لأن هذه الأسماء النقدية تدل على قيم السلع من جهة ، كما أنها أجزاء انقسم إليها ذلك الوزن المعلوم من المعدن أى مقياس النقود[٣] . ومن جهة أخرى إذا أردنا أن تتميز القيمة عن الأشكال المادية المتعددة للسلع فلا بد أن تتخذ القيمة هذا الشكل المادى الذى لا يدل على أى معنى

---

(١) يعلق David Urquhart فى كتابه Familiar Words على المنظر الفظيع (!) الذى تجده أمام أعيننا اليوم من حيث أن الجنيه الاسترليني وهو وحدة القياس النقدى فى انجلترا ، يمثل حوالى ربع أوقية من الذهب ، فيقول ان هذا معناه عش المقياس ، لا تقرير مستوى للقياس ،، . وهو يرى فى هذا ،،القياس الباطل،، لوزن الذهب ، كما يرى كل شيء آخر ، الأثر الفاسد المبطل للحضارة .

(٢) حينما سألوا Anacharsis عن الأغراض التي استعمل من أجلها الاغريق النقود أجاب قائلا : ،،ليجعلوا منها وسيلة للحساب ،، .

(٣) لما كانت النقود وهى تؤدى دور معيار الثمن تبدو لنا وقد اتخذت نفس الأسماء التي تتخذها أثمان السلع

بنس	شلن	جنيه

وعلى ذلك قد يدل مبلغ: ١٠ ١٧ ١٣ على أوقية ذهب ، أو على قيمة طن من الحديد من جهة أخرى ، لذا أطلقوا على اسم النقود الحسابي هذا ثمن الضرب أى ثمن دار سك النقود . ومن هنا نشأت الفكرة الغريبة وهى أن قيمة الذهب (أو الفضة) تقدر فى مادته وأن للذهب (أو الفضة) — بخلاف كافة السلع الأخرى — ثمناً تحدده الدولة . ويرجع مصدر هذا الخطأ الى الفكرة القائلة بأن اعطاء اسم حسابي لوزن محدود من الذهب يشبه تماماً تحديد قيمة ذلك الوزن من الذهب ،،

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وإن كان فى الوقت ذاته ذا طابع اجتماعى بحت[١] وعليه فإن القول بوجود تعادل بين كمية من سلعة ما وبين مبلغ من النقود يمثل ثمنها ، يعتبر لغواً[٢]. شـــأن ذلك القول بأن القيمة النسبية لسلعة ما إنما هى عبارة عن تحقق تعادل بين كميتين من السلعتين مختلفتين . ولكن برغم أن الثمن وهو الذى يمثل حجم قيمة السلعة يعبر عن نسبتها التبادلية إلى النقود ، فلا يستتبع هـــذا أن ما يمثل النسبة التبادلية يمثل حجم قيمة السلعة . لنفرض مقـــدارين متساويين من العمل اللازم فى ظل ظروف اجتماعية معينة ويتمثلان فى ربع من القمح وجنيهين (أى ما يقرب من نصف أوقية من الذهب) ، فالجنيهان عبارة عن التعبير بالنقود عن حجم قيمة الربع من القمح أو ثمنه . فإذا جدت ظروف سببت ارتفاع هذا الثمن إلى ثلاث جنيهات أو خفضه إلى جنيه واحد فإن الجنيه أو الثلاثة جنيهات برغم أنهما قد يكونان أقل أو أكثر من القدر الذى يعبر عن حجم قيمة القمح ، نقول إنها برغم هـــذا عبارة عن ثمنه . وذلك لأنهما أولا الشكل الذى تبدو فيه قيمة القمح أى النقود ، وثانياً لأنهما يمثلان النسبة التبادلية مع النقود . فإذا ظلت ظروف الإنتاج أو بعبارة أخرى قوة العمـل الإنتاجية ثابتة وجب إنفاق نفس القدر من وقت العمل على إنتاج ربع القمح سواء كان ذلك قبل التعيير فى الثمن أو بعده . وهذه الحالة لا تتوقف على إرادة منتج القمح أو مالكى السلع الأخرى . وعلى ذلك فحجم قيمة السلع يعبر عن علاقة من الإنتاج الاجتماعى وعن الصلة التى ينبغى وجودها

---

(١) انظر مناقشة النظريات المتعلقة بالوحدة النقدية فى كتابى ,, نقد للاقتصاد السياسى ،، ص ٥٣ وما بعدها وقد ناقش وليم بتى فى بحثه To the Right Honourable Lord marquis of Halifax 1682 Tuantulumcunque concerning money, الآراء الداعية الى السخرية والمتعلقة بالزيادة أو النقص المترتبان على نقل الأشياء التى عينها القانون لمقادير محدودة من الذهب والفضة الى أوزان أكبر أو أصغر من هذين المعدنين ، (وهـذه الآراء المضحكة ترمى لا الى الضغط على الدائنين الخصوصيين والعامين والاستفادة منهم الى أكبر حد بواسطة عملية مالية غير سليمة القواعد ، وانما تهدف الى وصف علاج اقتصادى شامل لكل شىء كما لو اعلن مثلا أن ربع أوقية الأوقية من الذهب سيقسم فى المستقبل الى أربعين شلنا بدلا من عشرين) . وقد أسهب بتى فى مناقشة هذه التفاهات بحيث لم يتبق لخلفائه ومن أعقبوه من أمثال سير ددلى نورث وجون لوك وغيرهم من المتأخرين الا أن يستندوا الى آرائه . وهو يقول (المصدر المذكور آنفا ص ٣٦) « اذا أمكن مضاعفة ثروة الشعب بمنشور من قبل الدولة فمن العجب أن الحكام لم يصدروا مثل هذا المنشور خلال هذه العهود الطويلة المنصرمة » .

(٢) لو كان الأمر خلاف هذا لوجب علينا أن نعترف ان قيمة المليون بالنقود تساوى أكثر من قيمة مساوية بالبضائع . Le Trosne, op. cit., p. 922

ويقول ان هذا شبيه بالقول ان ,, قيمة ماتساوى أكثر من قيمة مساوية لها ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حتماً بين سلعة معينة وبين مقدار وقت العمل الاجتماعى اللازم لإنتاجها . وبمجرد تحول حجم القيمة إلى ثمن فإن هذه العلاقة الضرورية تتخذ شكل نسبة تبادل عرضية بين سلعة وأخرى وهذه الأخيرة هى السلعة النقدية . ولكن النسبة التبادلية قد تعبر عن الحجم الحقيقى لقيمة السلعة أو عن ذلك القدر من الذهب الذى نبادلها به ، وعلى ذلك فإمكان وجود اختلاف كمى بين الثمن وحجم القيمة أو إمكان اختلاف الثمن عن حجم القيمة ، من الأمور الكامنة فى شكل الثمن . وليس هذا بنقص، بل بالعكس فإنه يجعل شكل الثمن ملاءماً لأسلوب من الإنتاج لا تعبر قوانينه الكامنة عن ذاتها إلا بوصفها نتائج شواذ تبدو فى الظاهر غير خاضعة لقانون وتعوض كل منها الأخرى .

وشكل الثمن مع هـــذا ليس متسقاً مع إمكان وجود تباين كمى بين حجم القيمة والثمن فحسب أى بين حجم القيمة والصورة النقدية المعبرة عنه ، لأنه قد يخفى كذلك اختلافاً من حيث الكيف بحيث أن الثمن قد لايصبح معبراً عن القيمة برغم أن النقود عبارة عن شكل قيمة السلع فقط . والأشياء التى ليست فى حد ذاتها سلعاً كالضمير والشرف وما إلى ذلك يمكن لحائزيها أن يعرضوها للبيع وبذلك تكتسب بواسطة ثمنها شكل سلع . وعلى هذا قد يكون للشىء ثمن دون أن تكون له قيمة ، وفى هذه الحالة يكون الثمن وليد الخيال كمقادير معينة فى علم الرياضة . ومن جهة أخرى فشكل الثمن الخيالى هذا قد يخفى تحته إما علاقة قيمة حقيقية مباشرة وإما علاقة غير مباشرة ، ومن أمثلة ذلك ثمن الأرض غير المزروعة وهى غير ذات قيمة إذ لم يدخل فيها أى عمل إنسانى .

فالثمن كالقيمة النسبية بوجه عام يعبر عن قيمة سلعة ما (كطن من الحديد) بأن يقال إن مقداراً معلوماً من المعادل لها (كأوقية من الذهب) يمكن استبداله بالحديد مباشرة ، ولكن هذا لايعنى العكس وهو أن الحديد يمكن استبداله مباشرة بالذهب . وعليه إذا أريد أن تقوم سلعة معينة بوظيفة مقياس لقيمة التبادل كان عليها أن تخلع عنها شكلها المادى وأن تحول نفسها من ذهب خيالى إلى ذهب حقيقى ولو أن عملية التحويل هذه بالنسبة للسلع قد تكون صعبة كل الصعوبة وأصعب من عملية الانتقال من «الضرورة» إلى «الحرية» فى عالم هيجل التصورى ، أو أصعب من قيام السرطان البحرى بطرح غشائه عنه ، أو أشد صعوبة من عمل سان جيروم فى التخلص من آدم القديم[1] . وقد يكون للسلعة بجانب شكلها الحقيقى (الحديد مثلا) شكل

(١) كان على جيروم فى شبابه أن يكافح الشهوات الجسدية كما تدل على ذلك قصة القتال الذى قام به فى الصحراء

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تصورى أى شكل ذهبى خيالى وذلك فى ثمنها ، ولكن السلعة لا يمكن أن تكون فى نفس الوقت حديداً حقيقياً وذهباً حقيقياً . ولتحديد ثمنها يكفى إجراء التعادل بينها وبين الذهب الخيالى . ولكن إذا أريد أن تخدم صاحبها بوصفها معادلا عاماً فيجب أن يحل محلها الذهب بطريقة فعلية . فإذا أراد صاحب الحديد أن يتوجه إلى صاحب سلعة أخرى مرشحة للتبادل وأحال هذا الأخير على ثمن الحديد كدليل على أنه نقود فعلا لحصل على نفس الجواب الذى أجاب به القديس بطرس في السماء حين قال له دانتى :

حسناً ! لقد فقدت هذه القطعة النقدية المزيج والوزن، ولكن حدثنى : هل هى في جيبك(١).

وعلى ذلك يتضمن شكل الثمن معنيين : أولهما أن سلعة ما قابلة للتبادل مع غيرها ، وثانيهما الضرورة لإجراء مثل هذا التبادل . ومن جهة أخرى يقوم الذهب بوظيفة مقياس تصورى للقيمة لأنه صار فى عملية التبادل السلعة النقدية . وخلف هذا المقياس التصورى للقيمة تجد مبلغ النقود .

(٢) واسطة التداول

(١) تحول السلع

رأينا فى فصل سابق أن تبادل السلع يدل على حالات متناقضة ، وتقسيم السلع إلى سلع ونقود لا يمحو هذه المتناقضات ولكنه يخلق طريقاً وسطاً وهذا هو السبيل فى العادة الذى يوفق بواسطته بين الأشياء المتنافرة . فمن التناقض مثلا أن نصور جسماً يميل على الدوام نحو جسم آخر ولكنه فى الوقت ذاته يبتعد عنه ، ولكن الشكل البيضاوى هو الذى يسمح باستمرار هذا التناقض ويعمل على التوفيق بين طرفيه . والتبادل عملية اجتماعية خاصة بتداول المادة وذلك لأنه واسطة لانتقال السلع من أيدى لاتكون فيها قيماً استعمالية إلى أخرى تصبح فيها كذلك ، أى أن منتج عمل نافع يحل محل آخر . وعند ما تنتقل السلعة إلى المكان الذى تصلح فيه قيمة استعمالية فإنها تخرج عن نطاق التبادل وتدخل مجال الاستهلاك ، ولكن الأول وحده هو الذى يعنينا أمره الآن . وعلينا أن نبحث موضوع التبادل أو تغيير الشكل أو تداول السلع الذى يسبب التداول الإجتماعى للمادة . ولا يزال إدراك معنى هذا التغيير

= ضد صور ابتدعها ذهنه عن نساء جميلات . ولما تقدمت به السن كافح الشهوات الروحية . انه يقول ,,وظلت نفسى روحاً أمام قاضى العالم ،، وسمعت صوتاً يسأل ,, من أنت ؟ ،، فأجبت ,, انى مسيحى ،، فدوى صوت القاضى العظيم كالرعد ،، انك كاذب ، ما أنت الا من تلاميذ شيشرون ،، .

(١) Paradiso; Canto XXIV, 11 83-85

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى الشكل ناقصاً ، وهذا النقص (بغض النظر عن الاضطراب السائد بصدد الفكرة الأساسية عن القيمة) راجع إلى أن أى تغيير شكل فى سلعة ما ينشأ عن تبادل سلعتين إحداهما سلعة عادية والأخرى سلعة نقدية . وإذا جعلنا نصب أعيننا الحقيقة المادية وحدها وهى أننا أبدلنا سلعة بالذهب فإننا نفعل نفس الشيء الذى يتعين علينا ملاحظته وهو : ماذا أصاب شكل السلعة ؟ إننا نغفل حقيقة وهى أن الذهب حين يكون مجرد سلعة ليس بنقود ، وأنه حين تعبر السلع الأخرى عن أثمانها بالذهب فإن هذا الذهب ليس إلا السلع نفسها فى تحول جديد أى فى شكل نقدى .

فى أول الأمر تدخل السلع عملية التبادل بوصفها سلعاً لاغير ، فلا تلبث عملية التبادل هـــذه أن تفرقها إلى سلع ونقود وبذا تخلق تعارضاً خارجياً يطابق التعارض الباطنى الكامن في السلع من حيث كونها قيماً استعمالية وقيماً فى الوقت ذاته ، وهنا نجد أن السلع بوصفها قيماً استعمالية تقف موقفاً معارضاً للنقود بصفتها قيمة تبادلية . ومن جهة أخرى نجد أن كلا الطرفين المتعارضين سلع أو اتحادات من القيمة الاستعمالية والقيمة ولكن هذا الاتحاد من الأشياء المختلفة يبدو فى طرفين متقابلين وفي كل طرف طريقة معارضة . ففى أحد طرفى المعادلة نجد سلعة عادية هى فى الحقيقة قيمة استعمالية يعبر الفكر عن قيمتها بثمنها الذى بواسطته نجعلها مكافئة لخصمها وهو الذهب بصفته الصورة التى تتجسم فيها القيمة حقيقة . ومن جهة أخرى نجد أن الذهب فى حقيقته المعدنية عبارة عن الشكل الذى تتجسم فيه القيمة أى عبارة عن نقود . فالذهب بصفته ذهباً هو القيمة التبادلية نفسها ، أما بخصوص قيمته الاستعمالية فهذه ليس لها سوى وجود فى عالم الفكر تمثله سلسلة التعبيرات عن القيمة النسبية حيث تقف وجهاً لوجه إزاء كافة السلع الأخرى ، ومجموع هذه الفوائد يكوّن مختلف فوائد الذهب . هذه الأشكال المتناقضة للسلع هى الأشكال الحقيقية التى تتحرك فيها عملية التبادل .

لنصحب الآن صاحب سلعة ما وليكن صديقنا القديم غزال التيل إلى السوق . فالياردات العشرون ذات سعر محدود قدره جنيهان ، فهو يستبدلها بالجنيهين ثم يتنازل عنها مقابل الحصول علي إنجيل بنفس الثمن . فالتيل الذى يبدو فى نظره مجرد سلعة إنما ينتقله من حيازته مقابل الذهب الذى هو شكل قيمة التيل ، ثم يتنازل عن ذلك الشكل مقابل سلعة أخرى هى الإنجيل الذى سيدخل منزله كشيء ذى منفعة ويكون موضع تقديس الأسرة . فيصبح التبادل حقيقة واقعة بواسطة تحويلين ذوى طابع متناقض وإن كان كل منهما يكمل الآخر ، وهما تحويل السلعة إلى نقود ثم إعادة تحويل النقود إلى سلعة وكلاهما عمليتان متميزتان

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يقوم بهما الغزال[1] : البيع وهو استبدال السلعة بنقود ، والشراء وهو استبدال النقود بسلعة ، والرابطة بين العملين هى البيع بقصد الشراء ، والنتيجة التى تترتب على هذه العملية من وجهة نظر الغزال هى أنه بدلا من أن يكون مالكا للتيل يصبح مالكا للانجيل وبدلا من السلعة الأصلية فإنه يملك سلعة أخرى لها نفس القيمة ولكنها ذات منفعة مختلفة . وبنفس هذه الطريقة يحصل على وسائل العيش والانتاج الأخرى . ومن وجهة نظره لا تؤدى العملية كلها إلى أكثر من تبادل ثمرة عمله بثمرة عمل شخص آخر ، أى أن العملية كلها عبارة عن تبادل منتجات العمل . فتبادل السلع إذن مصحوب بالتغييرات الآتية فى شكلها :

سلعة — نقود — سلعة

س — ن — س

فنتيجة العملية كلها فيما يختص بالأشياء ذاتها عبارة عن استبدال سلعة بأخرى أو تداول عمل اجتماعى ذى شكل مادى ، فإذا تحققت هذه النتيجة انتهت العملية .

س — د . التحول الاول للسلعة : البيع

يجعل التقسيم الاجتماعى للعمل عمل صاحب السلعة ذا جانب واحد بينما تكون حاجاته متعددة النواحى ، وهذا بالضبط السبب الذى يجعل منتج عمله غير ذى فائدة له إلا بصفته قيمة تبادلية ، ولكن هذا المنتج لايكتسب الخواص التى تجعل منه معادلا يلقى الاعتراف العام به من قبل المجتمع إلا إذا حولناه إلى نقود وهذه النقود في جيب شخص آخر . ولكى نخرجها منه يجب أن تمثل السلعة قيمة استعمالية بالنسبة إلى صاحب النقود وهذا لا سبيل إلى حدوثه إلا إذا كان العمل المبذول فى إنتاج هذه السلعة من نوع مفيد للمجتمع أو كان نوعاً هو فرع من فروع ذلك التقسيم الاجتماعى للعمل . ولكن تقسيم العمل جهاز إنتاجى نما وتطور بصورة تلقائية ، ونما ولا يزال ينمو من وراء ظهور المنتجين دون أن يدروا بذلك . فالسلعة التى يراد استبدالها قد تكون منتج نوع جديد من العمل يشبع مطالب جديدة أو يخلق نفسه

---

(١) ,, كما يقول Heraclitus عن النار — تتحول النار الى كافة الأشياء ، وجميع الأشياء تتحول الى نار — وكما تحول النقود الى ذهب كذلك يحول الذهب الى نقود ،، — هذه القطعة من : Plutarch's Moralia, of the Word "Ei" engraven over the Gate of Apollo's Temple at Delphi, Cap. 8. وقد اقتبسها لاسال (Die Philosophie Herakleitos des Dunkein) برلين ١٨٥٨ ط ص ٢٢٢ وقد علق عليها فى حاشية (ص ٢٢٤) وهناك أعلن خطأ أو النقود ليست سوى رمز أو علامة للقيمة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مطالب جديدة . وقد يحدث أن عملية معينة كانت بالأمس إحدى عمليات كثيرة يضطلع بها منتج عمل سلعة معلومة تصبح اليوم فرعاً من العمل مستقلا وتبعث بمنتجها غير الكامل إلى السوق بصفته سلعة مستقلة ، وقد تكون الظروف ملاءمة أو غير ملاءمة لمثل هذا الانفصال. فمنتج العملية قد يشبع اليوم حاجة اجتماعية ، وغداً قد يحل محل السلعة منتج آخر مناسب حلولا كلياً أو جزئياً . وعلاوة على هذا فبرغم أن عمل الغزال قد يكون فرعا من ذلك التقسيم الاجتماعى للعمل فإن هذه الحقيقة لا تكفى لضمان فائدة ما أنتجه وهو العشرون ياردة من التيل . فإذا حدث أن تمكن الغزالون المنافسون من إشباع حاجة الجماعة إلى التيل وهذه الحاجة مثل أى حاجة أخرى لها حدودها ، صار إنتاج صاحبنا شيئاً يفيض عن الحاجة ولا فائدة منه ، وصاحبنا بطبيعة الحال لا يتوجه إلى السوق بقصد إهداء ما لديه . ولكن لنفرض أن منتج عمله له فعلا قيمة استعمالية ويجتذب النقود ، هنا يبدو السؤال التالى : كم من النقود يجتذب ؟ لا مراء أن الجواب متوقع من ثمن السلعة أى الشيء الذى يمثل حجم قيمتها ، وهنا نغفل أخطاء فى الحساب ذاتية بحتة يقع فيها الغزال ولكن هذه الأخطاء تصحح فوراً فى السوق . إن المفروض أنه بذل فى عمل المنتج ذلك القدر المتوسط من وقت العمل اللازم اجتماعياً لإنتاج ياردة من التيل وهذه حقيقة يحاول أصحاب النقود إثباتها عن طريق الأثمان التى يعرضها منافسو صديقنا الغزال ، ومن سوء حظه أن الغزالين ليس عددهم قليلا كما أنهم غير متباعدين بعضهم عن بعض . وأخيراً لنفرض أن كل قطعة من التيل بالسوق لاتحتوى على مقدار من وقت العمل أكبر مما يقره أو يتطلبه المجتمع ، وبرغم هذا فإن مجموع هذه القطع كلها قد يكون فيها قدر من العمل بذل من غير ماضرورة . فإذا عجز السوق عن استيعاب كل المقدار المعروض بالسعر العادى وهو شلنان لياردة فهذا دليل على أن كمية أكبر من اللازم من مجموع عمل الجماعة قد بذلت فى إنتاج التيل ، والنتيجة المترتبة على ذلك مماثلة للنتيجة الحادثة فيما لو أن كل غزال على حدة قد استغرق فى إنتاج سلعة قدراً من وقت العمل الإجتماعى أكثر مما هو ضرورى . وهذه حالة ينطبق عليها المثل الألمانى «أما وقد قبض عليهم جميعاً وجب شنقهم جميعاً» . لأن التيل الموجود كله بالسوق يعامل كأنه سلعة واحدة فى التجارة وكل قطعة فيه عبارة عن جزء مما تتكون منه هذه السلعة الكلية . وفى الحقيقة ماقيمة كل ياردة على حدة إلا ذلك الشكل ذو الطابع المادى من ذلك المقدار المحدود الذى عينه المجتمع من العمل الإنسانى المتجانس .

هكذا نرى أن بين السلع والنقود مودة وحباً ، ولكن طريق الحب الصادق وعر غير ممهد. والتقسيم الكلى للعمل شأنه كالتقسيم الكيفى أو النوعى ، نما وتطور بصورة تلقائية عرضية.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وعلي ذلك لا يلبث أصحاب السلع أن يكتشفوا أن تقسيم العمل هذا والذى يجعل منهم منتجين كل منهم مستقل عن الآخر ، يعمل فى الوقت ذاته على تحرير عملية الإنتاج الاجتماعية وعلاقات المنتجين داخل هذه العملية من كل اعتماد على إرادة هؤلاء المنتجين ، كما أنهم يدركون أن ما يبدو من اعتماد كل فرد على الآخر يكمله نظام من الاعتماد العام المتبادل عن طريق المنتجات أو بواسطتها .

إن تقسيم العمل يحول منتج العمل إلى سلعة وبذا يجعل تحويلها بعد ذلك إلى نقود أمراً لازماً ، وفى الوقت نفسه وبفضل تقسيم العمل يصبح من الصدف أن يتم هذا التحول بنجاح ، وهنا لا يعنينا سوى هذه الظاهرة بشكلها العام وعلى ذلك نفترض حدوث العملية بطريقة عادية . فإذا حدث هذا ، وإذا لم تكن السلعة قابلة للبيع مطلقاً ، حدث التغيير المرغوب فى الشكل وإن كان الثمن الذى يتحقق أعلى أو أدنى من القيمة .

إن البائع يستبدل بالذهب سلعته والمشترى يستبدل بالسلعة ذهباً . والحقيقة التى تواجهنا الآن أن السلعة والذهب أى ٢٠ ياردة وجنيهان ، قد تم التبادل بينهما أى انتقالهما من يد إلى أخرى ومن مكان إلى آخر . ولكن بماذا أبدلنا السلعة ؟ لقد استبدلناها بالشكل الذى اتخذته قيمتها أى بالمعادل العام . وبماذا أبدلنا الذهب ؟ أبدلناه بشكل مخصوص من قيمته الاستعمالية . ولماذا يواجه الذهب التيل على شكل نقود ؟ لأن ثمن التيل أى جنيهين وهو مقياسه بالنقود قد جعل علاقة بين التيل والذهب بوصف الأخير نقوداً . فالسلعة تنزع عن ذاتها مظهرها الطبيعى الأصلي حينما تنتقل إلى يد أخرى أى فى اللحظة التى تجتذب قيمتها الاستعمالية الذهب الموجود من قبل فى الثمن حسب تفكيرنا . فتحقيق سعر السلعة أو شكل قيمتها الفكرى عبارة ـ فى هذه الحالة ـ عن تحقيق القيمة الاستعمالية الفكرية للنقود ، وكذلك فإن تحويل السلعة إلى نقود هو تحويل النقود فى الوقت ذاته إلى سلعة . فالعملية التى تبدو فى ظاهرها واحدة عملية مزدوجة تكون فى نظر مالك السلعة بيعاً ومن وجهة نظر صاحب النقود شراء . وبعبارة أخرى البيع هو الشراء أى أن س ـ ن هى كذلك ن ـ س (١).

إلى هنا كانت العلاقة الاقتصادية الوحيدة التى درسناها بين الناس هى العلاقة القائمة بين ملاك سلع يختص كل منهم نفسه بمنتج عمل الغير لقاء التنازل عما أنتجه . وعلى ذلك إذا شاء صاحب

---

(١) „ كل بيع شراء „ Quesnay, Dialogues sur le commerce et les travaux des artisans, Daire's edition, Paris, 1846, p. 170.

ويقول نفس المؤلف فى كتابه Maximes Générales „ البيع هو الشراء „ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

سلعة لقاء صاحب النقود فإنه يفعل ذلك لسببين: إما لأن منتج عمله قد وهبته الطبيعة الشكل النقدى أى أن هذا المنتج جوهر النقود أو الذهب الخ ، وإما لأن ثمرة عمله قد نزعت عن نفسها شكلها الأصلى بوصف كونها شيئاً نافعاً . ولكى يتسنى للذهب أن يلعب دور النقود وجب أن يدخل السوق من إحدى النقط المختلفة وهذه نجدها عند مصدر إنتاج ذلك المعدن حيث يقايضون الذهب بصفته ثمرة مباشرة للعمل بثمرة أخرى ذات قيمة متساوية ، ومن تلك اللحظة يمثل الذهب الثمن الذى تحققه السلعة (١) .

وبغض النظر عن استبدال الذهب فى مكان الإنتاج بسلعة أخرى فإنه ، مهما كانت اليد التى تحوزه ، عبارة عن الشكل الذى تحولت إليه سلعة نقل صاحبها ملكيتها إلى جهة أخرى . وعلى ذلك فالذهب نتيجة بيع أو ثمرة التحول الأول (س ـ ن (٢)) .

وقد رأينا أن الذهب أصبح مقياساً للقيمة لأننا نقوّم بواسطته كافة السلع الأخرى وبذا نجعل منه صورة لقيمتها ، ثم أصبح نقوداً حقيقية عند انتقال ملكية السلع وبدا صار الصورة المجسمة لقيمتها . وعند ما تتخذ السلع هذا الشكل النقدى فإنها تنزع عن نفسها كل أثر لقيمتها الإستعمالية الطبيعية ، ولذلك النوع المخصوص من العمل الذى تعزو إليه وجودها . وهى تفعل ذلك كى تحول نفسهـــا إلى تلك الصورة الموحدة التى يقرها المجتمع للعمل الإنسانى المتجانس . حين تنظر إلى قطعة من النقود لا نستطيع القول بأى شىء أبدلت لأن السلع تبدو متشابهة فى ظل ذلك الشكل النقدى ، ولهذا قد تكون النقود قاذورات ولو أن القاذورات ليست نقوداً . لنفرض أن القطعتين الذهبيتين اللتين تنازل بسببهما الغزال عن تيله هما الشكل الذى تحول إليه ربع من القمح . وبيع التيل س ـ ن فى نفس الوقت شراؤه ن ـ س ، ولكن البيع هو العمل الأول فى عملية تنتهى بعمل طبيعته مناقضة له وهو شراء الإنجيل . ومن جهة أخرى يضع شراء التيل حداً لحركة بدأت بعملية مضادة وهى بيع القمح ، وعلى ذلك فإن « تيل ـــ نقود » عبارة أيضاً عن « نقود ـــ تيل » وهو المظهر الأخير من حركة أخرى « قمح ـــ نقود ـــ تيل » . فالتحول الأول لسلعة ما وهو تحويلها من سلعة إلى نقود هو كذلك التحول الثانى لسلعة أخرى أى تحويلها من نقود إلى سلعة (٣) .

(١) والطريقة الوحيدة التى يمكن بواسطتها دفع ثمن أية سلعة تكون بواسطة ثمن سلعة أخرى .

Mercier de la Rivière: L'ordre naturel et essentiel des sociétés politiques, Daire's edition p, 554.

(٢) لكى يحصل على هذه النقود لا بد أن يكون قد باع شيئاً (شرحه ص ٥٤٣) .

(٣) كما لاحظنا من قبل فان المنتج الفعلى للذهب أو الفضة استثناء للقاعدة العامة ، فهو يبادل منتجه مباشرة بسلعة أخرى بدون أن يكون قد باعه أولا .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

د — س (التحول الثانى أو الختامى للسلعة) : الشراء

نظرا لأن النقود هى الشكل الذى تحولت إليه كافة السلع الأخرى ، ونظرا لأنها ثمرة النقل العام للسلع ، لهذا فإنها ذاتها قابلة للنقل دون الخضوع لأية قيود . وهى تقرأ الأثمان جميعها طرداً بمعنى أنها تعكس صورتها أو تتراءى فى أجسام جميع السلع الأخرى التى هى عبارة عن المادة المطواعة التى تسهل تحول النقود إلى السلعة . والأثمان فى نفس الوقت تعين الحدود المفروضة على قابلية النقود للتحول وذلك بالإشارة إلى كميتها . وبما أن كل سلعة حين تحولها إلى نقود تختفى من حيث كونها سلعة ، لهذا يستحيل علينا عند النظر إلى النقود أن نقول كيف انتقلت إلى يد صاحبها أو نعرف ما تحول إليها ، ولهذا قال الرومان «ليس للنقود رائحة» مهما كان أصلها ومنشؤها . إن النقود إذ تمثل السلعة المباعة ، فإنها من جهة أخرى تمثل السلع التى يجوز شراؤها (١).

إن الدورة « ن — س » أى الشراء عبارة عن الدورة «س — ن» وهى البيع وذلك فى الوقت نفسه ، ولهذا فالتحول الأخير لسلعة ما هو فى ذات الوقت التحول الأول لسلعة أخرى . فبالنسبة لصاحبنا الغزال تنتهى دورة حياة سلعته بالإنجيل الذى حول الجنيهين إليه . ولنفرض أن بائع الإنجيل أنفق هذين الجنيهين فى شراء البراندى ، فهنا نجد أن الدورة « ن — س » التى تمثل المظهر الختامى من العملية س — ن — س (تيل — نقود — إنجيل) هى كذلك «س — ن» أى المظهر الأول فى العملية س — ن — س (إنجيل — نقود — براندى) . ولما كان منتج السلع ليس لديه إلا هذه السلعة يعرضها فإنه غالباً ما يبيعها بمقادير كبيرة جداً ، ولكن تعدد أشكال حاجياته يضطره إلى تقسيم الثمن الذى حققه أو مبلغ النقود الذى حصل عليه وذلك بإنفاقه فى مشتريات كثيرة مختلفة . وعلى ذلك فالبيع يؤدى إلى شراء أدوات مختلفة كثيرة ، أى أن التحول النهائى لسلعة ما عبارة عن مجموع التحولات الأولى لسلع أخرى مختلفة .

ولننظر الآن إلى التحول الكامل لسلعة ما ولتكن التيل مثلا . فأول شىء نلاحظه أن هذا التحول مكون من حركتين متضادتين تكمل كل منهما الأخرى وهما س — ن ، ن — س .

---

(١) اذا كانت النقود فى أيدينا تمثل الأشياء التى قد نريد شراءها ، فانها تمثل كذلك الأشياء التى بعناها لكى نحصل على هذه النقود » . Mercier de la la Rivière, op. cit., p. 586,

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هذان التحولان المتقابلان يتمان بواسطة عمليتين اجتماعيتين متقابلتين يقوم بهما مالك السلعة وينعكسان فى التباين القائم بين الطابعين الاقتصاديين للعمليتين . هذا المالك للسلعة بائع بحكم أنه يقوم بالبيع ، ومشترٍ من حيث أنه يقوم بالشراء . ولكن كما أنه فى حالة كل تحول للسلعة يوجد شكلاها وهما شكل السلعة والشكل النقدى فى نفس الوقت وإن كانا فى قطبين متضادين فكذلك كل مالك سلعة كأنه بائع يواجهـــه مشترٍ ومشترٍ يقف إزاءه بائع . وكما أن نفس السلعة الواحدة تمر فى تحولين متضادين كذلك يلعب صاحب السلعة دورى البائع والمشترى على التوالى . وهذان الدوران لا يتخذان بصفة دائمة ولكنها يتعلقان بالدور بالأشخاص المختلفين الذين يشتغلون فى تداول السلع .

والتحول الكامل للسلعة يفترض مقدماً في أبسط أشكاله وجود أربعة أطراف وثلاثة أشخاص فى هذه المسرحية . ففى أول الأمر تجد السلعة فى مواجهتها نقوداً بوصفها الشكل الدال على قيمة السلعة وهى النقود التى فى جيب شخص آخر ولها حقيقة مادية محسوسة ، وعلى ذلك فمالك السلعة يواجهه مالك النقود . وحالما تتحول السلعة إلى نقود تصبح الأخيرة الشكل المعادل المؤقت للسلعة الذى توجد قيمته الاستعمالية أو خواه فى أجسام السلع الأخرى . فالنقود وهى هدف التحول الأول تكون فى الوقت نفسه نقطة الابتداء فى التحول الثانى ، وعلى ذلك فالبائع فى العملية الأولى يصير مشترياً فى الثانية حين يواجهه مالك سلع ثالث بصفته بائعاً (١) .

ومظهرا تحول السلع المعكوسان يكونان دورة . ولاشك أن السلعة تظهر هنا فى مظهرين مختلفين . ففى البداية لا تكون لها قيمة استعمالية لصاحبها بينما تكون كذلك فى الختام . أما النقود فتظهر أولا كالصورة التى تمثل قيمة السلعة وبعد ذلك تتحال إلى مجرد شكلها المعادل . وكلا التحولان فى دورة السلعة هما فى ذات الوقت تحولان جزئيان معكوسان لسلعتين مختلفتين . فالتيل يفتتح سلسلة تحولاته ، ويتم تحول سلعة أخرى (القمح) . وخلال تحوله الأول أى البيع يلعب التيل هذين الدورين بشخصه ، وبعد ذلك إذ يدخل مظهر الذهب يتمم فى نفس الوقت التحول الأول لسلعة ثالثة . وعلى ذلك تتداخل دورة سلعة مابدورات السلع الأخرى . ومجموع هذه العمليات يتكون منه تداول السلع .

---

(١) ,, فلدينا اذن أربعة أطراف وثلاثة أشخاص متعاقدون يتدخل أحدهم مرتين ،،

Le Trosne, op. cit., p, 909.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ويختلف تداول السلع عن تبادلها المباشر (المقايضة) من حيث الجوهر والشكل . فالغزال مثلا استبدل سلعته (التيل) بسلعة آخر وهى الإنجيل . ولكن هذه الظاهرة ليست حقيقية إلا بالنسبة إليه ، ولكن بائع الإنجيل لم تكن لديه فكرة مطلقاً فى أن يبادل إنجيله بالتيل أكثر مما كان الغزال يعرف أن تيله تجرى مبادلته بالقمح . إن سلعة ب تحل محل سلعة ا ولكن كلا من ا ، ب لا يتبادلان سلعيهما . قد يحدث أن تقع مشتريات بين ا ، ب فى نفس الوقت ، ولكن هذه ليست نتيجة مترتبة على العلاقات العامة التى يحدث فيها تداول السلع . إننا نرى هنا كيف يحطم تبادل السلع العوائق الفردية والمحلية التى تصاحب عملية المقايضة ، وكيف ينمى تداول منتجات العمل الإنسانى . ومن جهة أخرى تنمو مجموعة من العلاقات الاجتماعية وهى علاقات تنشأ من تلقاء ذاتها . فالغزال يبيع ما لديه من التيل لأن الفلاح باع القمح ، ومالك الإنجيل يبيعه لأن الغزال باع التيل ، وصاحب الخمر يبيع ما عنده لأن صاحب الإنجيل قد باعه فعلا ، وهكذا . ونتيجة لهذا وبخلاف المقايضة المباشرة لا تنتهى عملية التداول بمجرد انتقال القيم الإستعمالية من مكان لآخر أو من يد إلى أخرى ، ولا تختفى النقود لأنها تخرج نهائياً من سلسلة تحولات سلعة معينة ، بل إنها تُدفع باستمرار إلى ميادين من التداول تخليها السلع الأخرى . فمثلا فى التحول الكامل للتيل (تيل — نقود — إنجيل) يخرج التيل من التداول وتحل النقود محله ، ثم يخرج الإنجيل وتحل مكانه النقود . فحينما تحل سلعة محل أخرى فإن السلعة النقدية تبقى فى أيدى شخص ثالث (١).

وليس أسخف من الرأى الذى يذهب إلى أنه لما كان كل بيع شراء وكل شراء بيعاً فإن تداول السلع يتضمن توازناً بين المشتريات والمبيعات . إذا كان المراد تساوى عدد كل من المشتريات والمبيعات الفعلية لكان هذا لغواً ، ولكن المراد من القول أن كل بائع يأتى بالمشترى إلى السوق . إن الشراء والبيع عمل واحد إذا اعتبرناهما علاقة بين شخصين فى قطبين متقابلين وهما صاحبا السلع والنقود . ولكن الشراء والبيع طرفان متقابلان متضادان إذا نظرنا إليهما كأفعال يقوم بها نفس الشخص الواحد . وعلى ذلك فتماثل الشراء والبيع معناه أن السلعة لا نفع فيها إذا لم يتم بيعها وبالتالى شراء صاحب النقود لها ، وذلك عند ما تلقى بها فى عملية التداول . وكذلك معناه أن التبادل ـ إذا تم بنجاح ـ عبارة عن مرحلة متميزة فى حياة السلعة . لما كان تحول السلعة الأولى هو فى نفس الوقت شراءاً وبيعاً ، فإن هذه العملية الجزئية عملية مستقلة فى الوقت نفسه . فللمشترى السلعة ، وللبائع النقود أى سلعة تحتفظ بقوة

(١) برغم وضوح هذه الظاهرة يغفل أمرها رجال الاقتصاد السياسى وبخاصة دعاة حرية التجارة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التوجه إلى مضمار التداول فى أى وقت بحيث تستطيع العودة إلى السوق عاجلا أو آجلا . إن المرء لا يستطيع البيع إلا إذا قام آخر بالشراء ، ولكن ليس من الضرورى أن يشترى فرد فى الحال بسبب أنه باع . فالتداول يضع حداً للقيود المختلفة من حيث الزمان والمكان والأشخاص ، والتى تفرضها المقايضة المباشرة ، وهو يفعل ذلك بأن يقسم إلى بيع وشراء التماثل المباشر الذى يوجد فعلا فى حالة المقايضة المباشرة بين التنازل عما ينتجه فرد وبين الحصول على ما ينتجه آخر . وإذا قلنا إن هاتين العمليتين المتقابلتين واللتين تكمل كل منهما الأخرى بينهما وحدة حقيقية ، كان ذلك كقولنا إن وحدتهما الحقيقية تعبر عن نفسها فى تباين Antithesis خارجى . إذا عظمت فترة الوقت بين مظهرى التحول الكامل للسلعة ، أى إذا صار الانفصال بين البيع والشراء واضحاً ، نجد أن الوحدة بين الشراء والبيع تفصح عن ذاتها بإحداث أزمة . إن التباين الكامن فى السلعة أى التباين بين القيمة الاستعمالية والقيمة ، والتناقض الذى تنطوى عليه الحقيقة القائلة بأن عملا مادياً معيناً لا تحسب أهميته إلا كعمل مجرد عام ، والتباين بين التمثيل للأشياء بالأشخاص والتمثيل للأشخاص بأشياء — نقول إن مظاهر هذه المباينات والمتناقضات الكامنة فى السلع تتخذ أشكالا متحركة كاملة التطور والنمو فى التعارض الظاهر فى تحول السلع . وهذه الأشياء تترتب عليها مجرد إمكانية وقوع الأزمات . هذه الإمكانية لا تصبح حقيقة إلا كنتيجة لسلسلة من علاقات لا وجود لها إذا نظرنا إليها من ناحية تداول السلع البسيط وهى وجهة النظر التى نبحثها الآن[1] .

إن النقود تكتسب وظيفتها من حيث كونها واسطة للتداول وذلك لأنها الأداة التى يتم بواسطتها تداول السلع .

---

(١) انظر ماسبق لى ابداؤه من ملاحظات عن جيمس مل وذلك فى كتابى ,, نقد الاقتصاد السياسى ص ٧٤ — ٧٦ ،، وفى هذا الصدد أشير الى نقطتين تتميز بها أساليب الاقتصاد الذى يحاول التماس المبررات والمعاذير . فأولا لدينا تشبيه تداول السلع بمقايضتها المباشرة وهو تشبيه يتم بمجرد اغفال الاختلافات والفوارق . وثانياً أمامنا محاولة تفسير المتناقضات التى تنطوى عليها طريقة الانتاج الرأسمالية ، وهذا العمل يتخذ شكل محاولة لرد العلاقات القائمة بين الأشخاص المشتغلين فى ذلك الانتاج الى العلاقات البسيطة الناشئة عن تداول السلع . ان انتاج السلع وتداولها ظاهرتان تنتميان الى أشد أساليب الانتاج اختلافاً وتبايناً ، وان كانا ينتميان اليها بدرجات متفاوتة . واذا كنا لا نعلم أكثر من نواحى التداول العامة المشتركة بالنسبة الى جميع أساليب الانتاج هذه ، فلن نستطيع أن نعلم شيئاً عن الفوارق النوعية أى الخاصة بين هذه الأساليب ، كما نعجز عن الحكم عليها . ليس من علم كالاقتصاد السياسى يكثر فيه هذا العرض للاراء العادية الأولية . ومثال ذلك أن ج . ب . ساى يزهو بنفسه كحجة فى موضوع الأزمات لأنه يعرف أن السلعة منتج !

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(ب) تداول النقود

إن الصيغة (س ـ ن ـ س) التى توضح تغير شكل السلعة وتسبب تداول منتجات العمل المادية تستدعى أن تكون قيمة محدودة على هيئة سلعة نقطة الابتداء فى هذه العملية ، كما تستدعى كذلك أن تعود هذه القيمة وهى على شكل سلعة أيضاً إلى نقطة الابتداء هذه . وهذه الحركة التى تجرى فيها السلع عبارة عن دورة ولكن من جهة أخرى نجد أن نفس طبيعة شكل هذه الحركة يستبعد وجود دورة تسير فيها النقود بالمعنى الدقيق المفهوم من كلمة دورة ، فالنتيجة ليست عودة النقود إلى نقطة الابتداء بل ازدياد ابتعادها عن نقطة ابتدائها . وما دام البائع متمسكاً بنقوده فالسلعة هى المظهر الأول للتحول أى أنها أتمت فقط نصف دورتها الأول . ولكن حالما يتم العملية ويتبع بيعه بشراء فإن النقود تخرج من أيدى مالكها من جديد . حقيقة تعود النقود إلى أيدى الغزال إذا باع مقداراً آخر من التيل بعد شرائه الإيجيل ، ولكن لا يرجع هذا إلى تداول العشرين ياردة الأولى الذى ترتب عليه انتقال النقود إلى أيدى بائع الإيجيل ، بل تكرار عملية التداول لسلعة أخرى ، وهذه العملية الجديدة تنتهى كسابقتها بنفس النتيجة . وعلى ذلك فالحركة التى يبعثها تداول السلع فى النقود تتخذ شكل حركة دائمة بعيدة عن نقطة ابتدائها أو تتخذ مظهر انتقال من يد مالك سلعة إلى يد آخر . هذا الانتقال هو الذى يعبر عنه بحركة النقود أو مجراها وتداولها .

فحركة النقود هى التكرار الدائم الممل لنفس العملية ، والسلعة دائماً فى أيدى البائع والنقود تكون دائماً بوصفها أداة للشراء فى يد المشترى ، والنقود تقوم بمهمة وسيلة الشراء لأنها تحقق ثمن السلعة الأمر الذى ينقل السلعة من البائع إلى المشترى ، وينقل النقود من المشترى إلى البائع حيث تمر بنفس العملية مع سلعة أخرى .

إن حقيقة كون هذا الشكل المفرد لحركة النقود نتيجة الشكل المزدوج لحركة السلع أمر يخفى على النظر ، ونفس طبيعة تداول السلع يبعث على ظهور شبه مضاد . إن التحول الأول للسلعة يبدو للنظر لا على أنه حركة النقود فحسب بل وعلى أنه حركة السلعة كذلك ، أما فى التحول الثانى للسلعة فتبدو لنا الحركة على أنها حركة النقود فقط . وفى النصف الأول من دورة السلعة نجدها والنقود يحل كل منهما محل الآخر ، وبناء على هذا تخرج السلعة بصفتها

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

شيئاً ذا منفعة من التداول إلى الاستهلاك[١] ونجد بدلا منها شكلها النقدى أى النقود ، وبعد ذلك تمر فى النصف الثانى من دورتها لا بشكلها الطبيعى بل على هيئة النقود . ودوام الحركة راجع إلى النقود وحدها ، ونفس الحركة التى تتكون فى حالة السلعة من صفتين متناقضتين تصبح عملية واحدة إذا اعتبرناها حركة النقود أى عملية مستمرة من تغيير مكانها مع سلع جديدة . وعلى ذلك تبدو النتيجة المترتبة على تداول السلع كأنها تمت لاعن طريق تغير شكل السلع بل بواسطة النقود بوصفها وسيلة (أداة) تداول أى عن طريق عمل يؤدى إلى تداول السلع التى تبدو فى الظاهر عديمة الحركة وينقلها من أيد لاتكون فيها قيماً استعمالية إلى أخرى تكون فيها، كذلك وذلك فى اتجاه معارض دائماً لاتجاه النقود . والأخيرة تسحب السلع على الدوام من التداول لتحل محلها وبهذه الطريقة يزداد ابتعادها عن نقطة ابتدائها ، وعلى هذا فبرغم أن حركة النقود هى مجرد التعبير عن تداول السلع إلا أن العكس هو الذى يبدو كأنه الحقيقة الواقعة ويظهر كأن تداول السلع هو نتيجة حركة النقود [٢] .

ومن جهة أخرى ليس للنقود إلا وظيفة أداة التداول لأنها الشكل الذى تتجسم فيه قيمة السلع . وبناء على ذلك فإن حركتها بوصفها أداة تداول ليست فى الواقع سوى حركة السلع فى شكل متغير ، وإذن فلا بد أن تنعكس هذه الحقيقة فى حركة (تداول) النقود ، هذا التغيير المزدوج فى شكل السلعة ينعكس فى كون النقود تغير مكانها مرتين خلال عملية التحول الكامل للسلعة . ومثال ذلك أن التيل يتغير من شكل السلعة إلى الشكل النقدى ، فالطرف الأخير فى تحويله الأول (س — ن) يصبح الطرف الأول فى تحوله الأخير (ن — س) أى حينما يتغير إلى إنجيل ، ولكن كلا من هذين التغيرين يسببه تبادل بين مكانى السلع والنقود . فقطعة النقود غيرت مكانها مع التيل فى العمل الأول ومع الإنجيل فى الثانى ، فالتحول الأول يضعها فى جيب الغزال والثانى يخرجها منه . أما إذا كانت السلعة تمر فى مظهر واحد من التحول أى أنه إذا كانت هناك مبيعات فقط أو مشتريات فقط — فإن قطعة النقود تغير مكانها مرة واحدة ، وتغييرها الثانى يطابق أو يعبر عن التحول الثانى للسلعة أى تحويلها من جديد إلى

---

(١) وحتى حين تباع السلعة وتباع من جديد وتباع كذلك ثانيا (وهى ظاهرة لا وجود لها بالنسبة لنا هنا الآن) ففى البيع الجديد الأخير تخرج السلعة من مجال التداول وتدخل مجال الاستهلاك لتؤدى هناك مهمة وسيلة للعيش أو أداة انتاج .

(٢) ,, ليس للنقود من حركة سوى التى تطبعها بها المنتجات ،،

Le Trosne, op. cit,, p. 885.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

سلعة يراد بها منفعة — ومن الطبيعى أن ينطبق هـذا كله على التداول البسيط للسلع وهو الشكل الذى نبحثه الآن .

إن كل سلعة حين تدخل حيز التداول لأول مرة وتتعرض لأول تغيير فى الشكل إنما تفعل هذا كى تخرج من هذا المجال لتحل محلها سلع أخرى . وعلى النقيض من هـذا فإن النقود بصفتها وسيلة التداول تظل دائماً داخل نطاق التداول وتتحرك فيه . وهنا يعرض لنا السؤال : كم من النقود يمتص مجال التداول هذا على الدوام ؟ إذا ضربنا المثل ببلد معين رأينا أنه في كل يوم وفى نفس الوقت ولـكن فى محال مختلفة تحدث تحولات ذات جانب واحد أو بعبارة أخرى تتم عمليات عدة من البيع والشراء ، وقبل أن يتم بيع السلع فإنها تعادل بواسطة أثمانها أى تجعل معادلة لمقادير خيالية من النقود . ونظراً لأنه فى التداول تقف النقود والسلع وجهاً لوجه إحداهما فى القطب الموجب وهو الشراء والأخرى فى القطب السالب وهو البيع ، يتضح أن مبلغ وسائل التداول اللازمة يعينه مقدماً مجموع أثمان هذه السلع . والواقع أن النقود تمثل مقدار أو مجموع الذهب (أى مادة النقود) الذى يجرى التعبير عنه فى الفكر بواسطة مجموع أثمان السلع ، ومن هنا يتضح تساوى هذين المجموعين . ونعلم أنه مع ثبات قيم السلع تتغير أثمانها بالارتفاع والانخفاض تبعاً لقيمة الذهب وبنفس النسبة .

فإذا حـدث بسبب ارتفاع أو هبوط قيمة الذهب أن ارتفع أو هبط مجموع أثمان السلع وجب أن ترتفع أو تنخفض كمية النقود المتداولة وهذا التغيير فى كمية النقود المتداولة سببه أن النقود مقياس للقيمة . فأولا يتغير ثمن السلع عكسياً مثل قيمة النقود ، وبعدئذ تتغير كمية واسطة التداول مباشرة كثمن السلع . ويحدث نفس الأمر تماماً إذا تصادف مثلا ـ بدلا من انخفاض قيمة الذهب أن حلت الفضة محل الذهب كمقياس للقيمة ، أو حـدث بدلا من ارتفاع قيمة الفضة أن طرد الذهب الفضة كمقياس للقيمة وحل محلها .

فى الحالة الأولى تزيد كمية الفضة المتداولة عما كانت عليه كميـة الذهب المتداولة من قبل وفى الحالة الثانية تقل كمية الذهب عما كانت عليه كمية الفضة قبلا . وفى كل من الحالتين تتغير قيمة مادة النقود أى قيمة السلعة التى تستخدم مقياساً للقيمة وأثمـان السلع المقومة بالنقود وكمية النقود المتداولة التى وظيفتها تحقيق هذه الأثمان . وقـد رأينا أن المجال الذى يتم فيه تداول السلع له فتحة ينفذ خلالها الذهب (أو الفضة مادة النقود مهما كان نوعها) ويدخل كسلعة ذات قيمة معلومة . وقبل أن تقوم النقود بوظائفها كمقياس للقيمة أى قبل أن تتحدد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأثمان تكون قيمة مادة النقود قد تحددت . فإذا حدث مثلا أن قيمة مقياس القيمة ذاتها هبطت بدا هذا أولا بواسطة تغيير فى أثمان السلع التى تجرى مبادلتها مباشرة مع المعادن النفيسة فى مكان إنتاج هذه ، وإن الجانب الأكبر من السلع الأخرى يظل مدى وقت طويل (وبخاصة في مراحل المجتمع البورجوازى الناقصة النمو) يقدر بواسطة القيمة القديمة المهملة لمقياس القيمة — وهى قيمة صارت خيالية . وبرغم هذا تؤثر كل سلعة فى الأخرى عن طريق مابينها من علاقة القيمة بحيث أن أثمانها مقدرة بالذهب أو الفضة ترد إلى النسب التى تتفق مع قيمتها النسبية — أى حتى يحدث فى النهاية أن قيم كافة السلع تقدر بعبارات من القيمة الجديدة للمعدن الذى يقوم بمهمة النقود . وعملية التعويض هذه تصحبها زيادة مستمرة فى مقدار المعادن النفيسة وهى زيادة ناشئة عن تدفق هذه المعادن لتحل محل السلع التى استبدلت بها مباشرة عند المكان الذى يستخرج منه الذهب والفضة . وعلى ذلك فبقدر ما تكتسب السلع بوجه عام أسعارها الحقيقية وبقدر ما تصبح قيمتها مقدرة وفق هذه القيمة الجديدة المنخفضة والمتضاءلة للمعادن النفيسة ، فكذلك بنفس النسبة تتوافر كمية المعدن اللازم لتحقيق هذه الأسعار الجديدة . ولما كشفت موارد جديدة من الذهب والفضة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر استنتج بعض الاقتصاديين خطأ أن أثمان السلع قد ارتفعت نتيجة لازدياد كمية الذهب والفضة اللذين يقومان بوظيفة أداة للتداول . وسنفرض فيما يلى أن قيمة الذهب محدودة كما هى فعلا مؤقتاً فى اللحظة التى فيها نقدر قيمة السلعة . فعلى أساس هذا الفرض فإن الذى يعين كمية أداة التداول هو مجموع الأثمان التى يجب تحقيقها . فإذا علمنا ثمن كل سلعة رأينا أن مجموع أثمان السلع يتوقف على مقدار السلع المتداولة . ولتوضيح الأمر نضرب المثال الآتى : اذا كان ربع من القمح يساوى ٢ جنيه فإن ١٠٠ ربع = ٢٠٠ جنيه و ٢٠٠ ربع = ٤٠٠ جنيه وهكذا ، وعلى ذلك فكمية النقود التى تستبدل بالقمح حين يباع يجب أن تزيد مع ازدياد كميته وإذا ظلت كمية السلع ثابتة فان كمية النقود المتداولة تختلف حسب تقلبات أثمان هذه السلع فهى تزيد أو تنقص لأن مجموع الأثمان يزيد أو ينقص تبعاً لتغير الثمن . وللوصول إلى هذه النتيجة ليس من الضرورى أن ترتفع أثمان كافة السلع أو تهبط فى نفس الوقت . فالارتفاع أو الهبوط فى أثمان عدد من السلع الرئيسية كاف لأن يزيد أو ينقص مجموع أثمان السلع التى فى التداول وبذا يزيد أو ينقص مقدار النقود المتداولة . وسواء كان التغيير فى الأثمان مطابقاً للتغيير الفعلى فى قيم السلع ، وسواء كان نتيجة مجرد تقلبات فى سعر السوق ، فإن التأثير الواقع على أداة التداول يظل واحداً .

لنفرض أن السلع الآتية تباع أو تحول جزئياً فى نفس الوقت فى أماكن مختلفة ، وهذه

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

السلع هى ربع من القمح ، ٢٠ ياردة من التيل ، إنجيل ، ٤ جالونات من البراندى . فإذا كان ثمن كل سلعة جنيهين ومجموع الأثمان التى يجب تحقيقها ٨ جنيه ترتب على ذلك ضرورة وجود ٨ جنيه نقداً فى التداول . ومن جهة أخرى إذا كانت هذه السلع ذاتها حلقات فى سلسلة من مجموعة تحولات كالتى سبق لنا بحثها ففى مثل هذه السلسلة ربع من القمح ـ ٢ جنيه ـ ٢٠ ياردة من التيل ـ ٢ جنيه ـ إنجيل ـ ٢ جنيه ـ ٤ جالونات من البراندى ـ ٢ جنيه ، نجد أن مبلغاً واحداً قدره ٢ جنيه يؤدى إلى تداول السلع المختلفة بنظام متتالى بحيث يمكنها أن تحقق أثمانها بالتوالى ولكنه يحقق بوجه عام مجموع الأثمان البالغ ٨ جنيه وفى النهاية يجد الجنيهان موئلا لهما فى جيب صانع البراندى ، وعلى هذا يقوم مبلغ الجنيهين بأربع حركات . إن ما تقوم به نفس القطع النقدية من تغيير مكانها يمثل التغيير المزدوج لشكل السلع أى حركتها خلال مرحلتين متضادتين من مراحل التداول ، كما أنه يمثل تشابك أو تداخل تحولات السلع المختلفة [1] . هذان المظهران المتقابلان اللذان يكمل كل منهما الآخر وتمر بهما العملية ينبغى أن يحدثا الواحد بعد الآخر ولا يمكن أن يقعا فى نفس الوقت الواحد ، ونتيجة لهذا تقاس سرعة دوران النقود بعدد الحركات التى تؤديها قطعة نقدية معلومة فى زمن معلوم . لنفرض أن عملية تداول السلع الأربع المذكورة آنفاً تستغرق يوماً ، ومجموع الأثمان التى يجب تحقيقها فى اليوم ٨ جنيه ، وعدد حركات قطعتى النقود أربعة وكمية النقود المتداولة ٢ جنيه . وحينئذ فى فترة معلومة من الوقت أثناء عملية التداول تكون كمية النقود التى تستعمل كأداة تداول مساوية لمجموع أثمان السلع مقسوماً على عدد الحركات التى تقوم بها قطع نقدية من مقياس واحد . وهذا القانون صحيح بوجه عام .

إن عملية التداول فى بلد معلوم خلال وقت معلوم تتكون من عدد من التحولات الجزئية المنعزلة التى تحدث فى وقت واحد ، أى من مبيعات هى فى الوقت ذاته مشتريات وفيها تغير قطع النقود مكانها مرة واحدة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فهذه العملية تتكون كذلك من عدد من سلاسل متمايزة من التحولات وهى مكونة من عدد أكبر أو أصغر من الحلقات وتسير جنباً إلى جنب أو يتحد بعضها مع بعض ، وفى كل من هذه السلاسل تتحرك قطعة النقود عدة مرات يزيد عددها أو يقل حسب الظروف . فإذا عرفنا العدد الكلى لحركات القطع

---

(١) ان المنتجات هى التى تدفع النقود الى الحركة وتجعلها تنتقل من يد الى أخرى ... ويمكن لسرعة حركتها أن تعوض النقص فى كميتها . واذا دعا الأمر فانها تمر من يد الى أخرى دون أن تتوقف لحظة واحدة.

Le Trosne, op. cit., p.p. 915-916

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المتداولة ذات المقياس الواحد أمكننا الوصول إلى متوسط عدد الحركات لكل قطعة نقدية من ذلك المقياس أو سرعة دوران النقود . وكمية النقود التي يلقى بها فى التداول كل يوم يعينها مجموع أثمان كافة السلع المتداولة فى نفس الوقت جنباً إلى جنب . ولكن بمجرد أن تحل النقود فى التداول تصبح كل منها مسئولة عند الأخرى ، فإذا زادت سرعة إحداها قلت سرعة الأخرى أو خرجت من مجال التداول لأن التداول لا يمتص أو يستوعب سوى تلك الكمية من الذهب التي إذا ضربناها فى متوسط عدد حركات القطعة النقدية الواحدة تصبح مساوية لمجموع الأثمان التي يجب تحقيقها . وعلى هذا إذا زاد عدد حركات القطع النقدية نقصت كمية أداة التداول، وإذا قل عدد الحركات زادت كمية أداة التداول. ومادامت النقود التي تستطيع أداء وظيفة أداة التداول معلومة حين يكون متوسط سرعة الدوران معلوماً فعلى ذلك يكفى أن تلقى فى مجال التداول بكمية محدودة من أوراق النقد من فئة الجنيه لكى تطرد من التداول عدداً مساوياً لها من الجنيهات الذهبية Sovereigns وهى حيلة يعرفها كافة الصيرفيين .

وكما أن دورة النقود بوجه عام تعكس عملية تداول السلع ، فكذلك تعكس لنا سرعة الدوران صورة السرعة التي تتغير بها السلع من شكلها ، وتعكس لنا كيف يحدث التداخل المتصل بين سلسلة من التحولات وأخرى . وكيف يتم التبادل الاجتماعى السريع للمادة ، وكيف تختفى السلع سراعاً من التداول وتحل محلها سلع أخرى بسرعة مماثلة . ففى الإسراع بدوران النقود تتراءى لنا الوحدة المنسابة للمظاهر المتقابلة المكمل بعضه بعضاً أى تحول قيمة استعمالية إلى قيمة وتحول قيمة من جديد إلى قيمة استعمالية — ومعنى هذا أنه تتراءى لنا عمليتا البيع والشراء . ومن جهة أخرى إذا أبطأ دوران النقود تراءى لنا كيف تتفكك هذه العمليات وكيف تتجه حركة كل منها إلى الاستقلال عن حركة الأخرى ، وكيف يحدث الركود فى تغييرات الشكل وبالتالى فى الطريقة التي يتم بها التداخل المتبادل الاجتماعى بين السلع . وبالطبع ليس فى استطاعتنا حين ندرس التداول أن نتحقق من كيفية نشوء هذا الركود ولكنا نعلم فقط من هذه الدراسة بوجود ذلك الركود . ولكن عامة الناس تلاحظ أنه حين يبطىء دوران النقود تقل حدوث ظهورها واختفائها فى كافة الأطراف التي فى مجرى التداول ولهذا فإنهم إزاء هذا الذى يلاحظونه يميلون إلى الظن بأن هـــذا الإبطاء مرجعه نقص فى كمية أداة التداول(١).

---

(١) « لما كانت النقود المقياس المشترك للشراء والبيع فان كل امرىء لديه شيء يبيعه ولا يجد الشارين يظن أن السبب فى عدم تصريف بضائعه راجع الى نقص النقود فى البلد ، ولهذا يتعالى الصراخ المشترك من جانب

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وعلى ذلك فالكمية الكلية من النقود التى تقوم بوظيفة أداة التداول خلال فترة معلومة من الوقت يعينها من جهة مجموع أثمان السلع التى فى التداول ، ومن جهة أخرى تعينها السرعة التى تتوالى بها المظاهر المتقابلة فى عملية التداول . فعلى هذه السرعة يتوقف مقدار ذلك الجزء من مجموع الأثمان الكلى وهو الجزء الذى يمكن لكل قطعة نقدية أن تحققه . ولكن مجموع أثمان السلع التى فى التداول يتوقف على كميتها كما يتوقف على كمية مختلف السلع . هذه العوامل الثلاثة وهى حركة الأثمان ، وكمية السلع التى فى التداول ، وسرعة دوران النقود ، قد تختلف فى اتجاهات مختلفة وطبقاً لنسب مختلفة . وبناء على هذا فإن مجموع أثمان السلع التى يجب تحقيقها وبالتالى مبلغ أو مقدار أداة التداول (الذى يتوقف على ذلك المجموع) يجب أن يخضع لتغييرات عدة حسب التأثيرات المتحدة المتجمعة لهذه العوامل المختلفة هذا وإنى سأعد هنا أن أمثال هذه التغييرات أهم ما فى تاريخ الأثمان .

حينما تظل الأثمان ثابتة فقد تزيد كمية أداة التداول نظراً لازدياد كمية السلع التى فى التداول ، أو نظراً لنقص سرعة دوران النقود . أو نظراً لفعل هذين العاملين فى نفس الوقت الواحد . وعلى العكس من هذا قد تهبط كمية أداة التداول بسبب خفض كمية السلع التى فى التداول أو ازدياد سرعة تداولها .

= الجميع وهذا الصراخ ينصب على عدم توافر النقود ، ولكن هذا خطأ كبير . ما الذى يريده هؤلاء القوم الذين يرفعون الصوت عاليا فى طلب النقود ؟ . ان الزارع يشكو ... ويظن أنه اذا زادت كمية النقود فى البلد حصل على ثمن لبضائعه . وحينئذ يظهر أن ما يطلبه ليس النقود وانما الثمن لما يملك من قمح وماشية يريد بيعها ، ولكنه لا يستطيع ذلك . ولماذا لا يستطيع أن يحقق ثمن هذه ؟ (١) اما أنه بسبب وجود غلال وماشية كثيرة فى البلد بحيث أن معظم من يأتون الى السوق يريدون البيع بينما القليل منهم راغبون فى الشراء (٢) أو لنقص ما يصدر الى الخارج . أو (٣) لسبب نقص الاستهلاك كما يحدث حين يدفع الفقر الناس الى أن ينفقوا فى بيوتهم أقل مما كانوا ينفقون من قبل ، وعلى ذلك فالذى يؤدى الى تصريف بضائع الفلاح ليس ازدياد النقود النوعية وانما ازالة أحد هذه العوامل الثلاثة وهى التى حقيقة تسبب انحطاط حالة الأسواق . . . والتاجر وصاحب الحانوت يريدان النقود بنفس الطريقة أى أنهما يطلبان منفذا للبضائع التى يتجران فيها ،، .

(ان الشعب) ،، لا يزيد رخاؤه الا اذا انتقلت الأموال من يد الى أخرى ،،

Sir Dudley North: Discourses upon Trade, London 1691, pp. 11-15.

وكل آراء Herrenschwand التافهة خلاصتها أن المتناقضات الناشئة عن نفس ماهية السلعة والتى تظهر تبعا لذلك فى تداول السلع يمكن أن تزيلها عن طريق الزيادة فى كمية أداة التداول . ولكن من جهة أخرى اذا كان الوهم السائد فى أذهان الناس يعتبر الركود فى الانتاج والتداول راجعا الى عدم كفاية أداة التداول ، فهذا يستتبع من جهة أخرى أن الندرة الفعلية فى أداة التداول (الراجعة الى محاولات تشريعية لتنظيم العملة) قد لا تسبب مثل هذا الركود .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وحين يحدث ارتفاع عام فى أثمان السلع فقـــد تظل كمية أداة التداول دون تغيير إذا كانت كمية السلع التى بالتداول تنقص بنفس النسبة التى تزيد بها أثمانها ، أو إذا كانت الزيادة فى سرعة الدوران كمثيلتها فى ارتفاع الأثمان مع بقاء كمية السلع التى في التداول ثابتة ، وقـد تنقص كمية أداة التداول لأن هبوط كمية السلع أسرع من ارتفاع الأثمـان أو لأن سرعة الدوران أكبر من سرعة ارتفاع الأثمان .

وحين يحدث هبوط عام فى أثمان السلع تظل كمية أداة التداول دون تغيير حين تكون الزيادة فى كمية السلع متناسبة مع الهبوط فى أثمانها ، أو حـين يكون تناقص سرعة الدوران متناسباً مع الأثمان . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تزيد كمية أداة التداول إذا كانت الزيادة فى كمية السلع أكبر أو إذا تناقصت سرعة الدوران بدرجة أسرع مما تهبط بها الأثمان . وقد توازن تغييرات العوامل المختلفة بعضها بعضاً بحيث أنه برغم عدم تباينها باستمرار يظل مجموع الأثمان الواجب تحقيقه و بالتالى مقدار أداة التداول ثابتاً . ولهذا السبب نجد ـ وبخاصة فى فترات طويلة ـــ أن كمية النقود المتداولة فى أى بلد تختلف بدرجه أقل مما نتوقعه من مستوى المتوسط الثابت . وذلك بالطبع بصرف النظر عن الاضطرابات العنيفة كالتى تحدث من فترة لأخرى نتيجة الأزمات الصناعية والتجارية ، أوقد تحدث بدرجة أقل بسبب تغيير فى قيمة النقود . وثمت قانون يقول إن كمية أداة التداول يعينها مجموع أثمان السلع التى فى التداول ومتوسط سرعة دوران النقود[1] فهذا القانون يمكن أن نعبرعنه بطريقة أخرى وذلك بأن نقول

---

(١) ,, هناك مقياس معين ونسبة معنة من النقود مما يستلزمه نشاط تجارة البلد أكثر أو أقل مما يضر بهذه التجارة . وكما أن هناك نسبة معينة من الفلسات farthings ضرورية فى تجارة القطاعى الصغيرة لتحويل النقود الفضية ولتسوية أمثال الحسابات التى لايمكن تسويتها بواسطة أصغر القطع النقدية الفضية . . . والآن كما أن نسبة عدد الفلسات اللازمة فى التجارة تؤخذ على أساس عدد الناس ، كما تكون درجة حدوث تداولها مأخوذة من أصغر القطع النقدية ، فكذلك بالمثل فان نسبة النقود (الذهب والفضة) اللازمة لتجارتنا تؤخذ من درجة حدوث التحولات ومن كبر حجم المبيعات،، W. Petty : A. Treatise on Taes and Contributions (لندن ١٦٦٢ ص ١٧) وفى كتاب Political Arithmetic (لندن ١٧٧٤) دافع ا . ينج عن نظريه هيـــوم ازاء هجمات ج . ستيوارت . وسواه وبهذا الكتاب فصل عنوانه ,, تتوقف الأثمان على كمية النقود ،، ـ أنظر ص ١١٢ وما بعدها . وقد كتبت فى كتابى ,, نقد الاقتصاد السياسى،، (٢٣٢) ما يأتى ,, يتجاهل آدم سميث فى صمت مسألة كمية النقود التى بالتداول ، كما أنه يخطىء اذ ينظر الى النقود على أنها لا تزيد عن كونها سلعة ،، ، وتنطبق هـذه الملاحظه على ما ارتآه سميث بصدد النقود . وأحياناً تجد بعض ملاحظاته شديدة (ومثـــال ذلك حين ينتقد نظم الاقتصاد السياسى السابقة) ,,ان كمية العملة فى كل بلد تنظمها قيمة السلع التى يتم تداولها بواسطتها ... وقيمة البضائع=

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنه إذا علمنا مجموع قيم السلع ومتوسط سرعة تداولها فان كمية العملة المتداولة السائدة أو مادة النقود تتوقف على قيمة النقود . وكان الرأى أن أثمان السلع تتحدد بكمية أداة التداول وأن الكمية ذاتها تعينها كمية مادة النقود الموجودة فى البلد(١)! وهذا الرأى الوهمى الخاطىء قائم على أساس فرض سخيف مؤداه أن السلع تدخل فى عملية التداول دون ثمن وأن النقود تدخل نفس العملية دون قيمة ، وأنه بمجرد دخول هذين العنصرين فى التداول يجرى التبادل بين أحد أجزاء مجموع السلع وأحد أجزاء ذلك الجمع المتراكم من المعادن النفيسة(٢).

= التى تشترى وتباع سنوياً فى أى بلد تتطلب كمية معلومة من النقود بقصد تداول وتوزيع هذه الطيبات على مستهلكيها . ومجرى التـــداول لا بد أن يجتذب مبلغاً من النقود كافياً لملئه ولا يسمح بأكثر من هذا (ثروة الأمم ــ الكتاب الرابع الفصل الأول) . وفى مقدمة كتابه يتحدث عن تقسيم العمل ، ولكنه فى الكتاب الأخير حيث يعالج مصادر الايراد العام ، يكرر من حين لآخر ما سبق أن ردده أستاذه ا . فرجوسن من استذكار تقسيم العمل والحملة عليه .

(١) ,, من المؤكد أن ترتفع أثمان الأشياء فى كل شعب كلما زاد الذهب والفضة بين الناس ، ونتيجة لهذا كلما نقص الذهب والفضة فى أى أمة وجب أن تهبط أثمان كافة الأشياء بما يتناسب مع مثل هذا النقص فى النقود ,, Jacob Vanderlint : Money answers all Things (لندن ١٧٣٤ ص ٥) . فأى موازنة دقيقة بين مؤلف فاندرلنت و ,,مقالات،، هيوم لا تترك فى ذهنى أى شك من حيث أن هيوم قرأ مؤلف فاندرلنت واستخدمه وهو مؤلف له أهميته وجدير بالذكر . ويعبر باريون وكثيرون سواه من الكتاب عن الرأى القائل بأن كمية أداة التداول تعين الأثمان . ويقول فاندرلنت أيضاً (مصدر سابق ص ٤٤) ,, لا يمكن أن تنشأ مشقة من تجارة غير مقيدة ولكن يترتب على ذلك مزية عظيمة . . . بما أنه اذا تسبب ذلك فى نقص أموال الشعب النقدية وهو ما ترمى قيود التحريم الى منعه فان تلك الشعوب التى تحصل على هذه الأموال النقدية ستجد بكل تأكيد كل شىء ازداد ثمناً كلما ازداد النقد بينها . . . وسرعان ما يصبح رجال الصناعة وكل شىء آخر لدينا على قدر من الاعتـــدال بحيث يحولون ميزان التجارة لصالحنا وبذلك يستردون النقود ثانية ,, .

(٢) من الفروض الواضحة بذاتها أن ثمن كل نوع من السلع عبارة عن أحد العناصر المكونة لمجموع أثمان السلع التى بالتداول . ولكن لا يمكن أن نفهم مطلقاً الطريقة التى يجب أن يجرى وفقها التـــداول بين مجموعة القيم الاستعمالية غير القابلة للموازنة فيما بينها وبين الكمية الكلية للذهب أو الفضة فى بلد ما . فاذا شئنا أن نتخيل أن عالم السلع يتكون من سلعة كلية هائلة واحدة لا تزيد فيه كل سلعة فردية عن كونها جزء من هذه السلعة فاذن نحصل على هذه النتيجة : السلعة الكلية = س هندردويت من الذهب ، السلعة ا = جزءاً من السلعة الكلية = نفس الجزء من س هندردويت من الذهب . وقد ذكر منتسكيو هذا بصفة جدية فقال ,, اذا وازنا بين الكمية الكلية من الذهب والفضة فى العالم وبين الكمية الكلية من البضائع فى العالم فمن المؤكد أن كل سلعة أو بضاعة معينة يمكن أن نقارنها بجزء معين من الكمية الأخرى . لنفرض أن العالم فيه سلعة واحدة أو أن المعروض للبيع سلعة واحدة وأنه يمكن تقسيمها كالنقود فاذن هذا الجزء من تلك السلعة يطابق جزءاً من كمية النقود ، أى أن نصف الأولى يطابق نصف الثانية وهكذا . . . ان تحديد ثمن الأشياء يتوقف دائماً وبطريقة أساسية على النسبة بين المجموع الكلى للأشياء وبين المجموع الكلى للرموز =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

القطع النقدية ورموز القيمة

تتخذ النقود هيئة قطع نقدية وهذا ناشيء عن قيامها بوظيفة أداة التداول . ووزن الذهب الذى تمثله فى الخيال أثمان السلع أو أسماؤها النقدية يجب أن يواجه هذه السلع فى عملية التداول على هيئة قطع من الذهب أو الفضة ذات معيار معادل لها . وسك العملة مثل تقرير مستوى للأثمان ، من مهام الدولة . وفى مختلف القطع النقدية القومية والتى يأتى بها فى السوق العالمية ما يؤكد الانفصال بين الميادين الداخلية أو القومية لتداول السلع وبين المجال العالمى العام لتداولها فى السوق العالمية . وهكذا نرى الفارق الوحيد بين قطع النقد الذهبية والسبائك ينحصر فى المظهر الخارجى ، ويستطيع الذهب نفسه أن يتحول من أحد الشكلين إلى الآخر فى أى وقت [1] وحينما تخرج القطعة النقدية من دار الضرب تتعرض أثناء تداولها لأن تبلى

=الدالة عليها (مصدر سابق ج ٣ ص ١٢–١٣) . راجع كتاب ,, نقد الاقتصاد السياسى ،،ص ١٤٠ – ١٤٦ ، ص ١٥٠ وما بعدها لنرى كيف حور وأتى هذه النظرية كل من ريكاردو وتلميذه جيمس ميل ولورد أوفرستون وغيرهم . واذ يستعين جون ستيوارت ميل بطريقته فى دراسة المنطق فانه يرى فى الامكان وفى هذه المسألة أن يتقبل رأى والده جيمس ميل وأن يعتنق الرأى المضاد فى نفس الوقت . راجع ,, مبادىء الاقتصاد السياسى ،، ومقدمة الطبعة الأولى حيث تحدث عن نفسه بأنه آدم سميث ذلك العصر ، وانا لا ندرى أيهما نعجب به : أنعجب ببساطة الكاتب أو بساطة الرأى العام الذى اعتقد أن الرجل آدم سميث ذلك الزمان مع أن الشبه بينه وبين آدم سميث كالشبه بين الجنرال سير و. فتوبك وليامز ودوق ولنجتون . وقد لخص جون ستيوارت ميل أبحاثه المبتكرة (وهى أبحاث لا تتسم بطابع السعة أو العمق) فى ميدان الاقتصاد السياسى ونشرها فى مؤلفه الصغير Some Unsettled Questions of Political Economy المنشور سنة ١٨٤٤ . ويؤكد لوك العلاقة بين كون الذهب والفضة عديمى القيمة وبين تعيين مقدارهما لقيمتهما . ,, واذا قبل الجنس البشرى أن يجعل للذهب والفضة قيمة خيالية ... فان القيمة الحقيقية ، التى نعتبرها فى هذين المعدنين ... ليست سوى الكمية

Some Considerations on the Consquences of the Lowering of Interest, works, vol. II London 1777, p. 15

(١) ان المسائل المشابهة لحقوق السيد الاقطاعى على ضرب العملة تقع بطبيعة الحال خارج نطاق هذا المؤلف ولكن لما كان ذلك المداح الرومانتيكى آدم مولر يعجب ,, بهذا الجود النبيل ،، الذى يقتضاه ,, تملك الحكومة الانجليزية النقود مجاناً ،، ، فانى أنتهز هذه الفرصة لكى أقتبس الرأى الذى أدلى به سير ددلى نورث ,, ان للفضة والذهب مدهما وجزرهما كما هو شأن السلع الأخرى فعند وصول كميات من أسيا نيا ... فانها تنقل الى البرج وتضرب ولن يمض طويل بعد ذلك حتى يأتى الطلب على تصدير السبائك ثانية . فاذا لم يتوافر ذلك وكان الكل

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بسرعة متفاوتة . فاسم الذهب ومادة الذهب والفحوى الأسمى والحقيقى — كل هذه تبدأ عملية الانفصال إذ أن القطع ذات الاسم الواحد تصبح ذات قيم مختلفة نظراً لكونها ذات ذات أوزان مختلفة ، فالذهب بصفته أداة للتداول يختلف ويتميز عن الذهب بوصفه مستوى للأثمان وبذا لايعود معادلا حقيقياً للسلع التى يحقق أثمانها . ويدل تاريخ العملة منذ العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر على الاضطراب الناجم عن هذا . والميل الطبيعى للتداول إلى تحويل القطع النقدية إلى مجرد مظهر لما هى عليه أو إلى رمز لوزن المعدن المفروض رسمياً أنها تتضمنه — هذه مسائل يعترف بها التشريع الحديث الذى يحدد المقدار الذى إذا فقدته القطعة النقدية صارت غير ذات قوة إبراء قانونية . لذلك نتيجة لدوران النقود يحدث انفصال بين الفحوى الحقيقى للقطعة النقدية وفحواها الإسمى أى بين وجودها المعدنى الفعلى ووجودها كشىء ذى وظيفة معينة — هذه الحقيقة تكشف لنا عن إمكانية كافية من حيث أن وظيفة النقود المعدنية فى العملة قد تتخذها رموز من مادة أخرى أى أنه فى الإمكان استبدال القطع النقدية المعدنية برموز من مادة أخرى وتؤدى نفس الغرض . وإن الصعاب الفنية القائمة فى سبيل سك المقادير الدقيقة جداً من الذهب والفضة ، وكون المعدن الأقل نفاسة يستخدم مقياساً للقيمة حتى يطرده ماهو أنفس منه . كل هذه الحقائق تفسر الأدوار التى لقيتها الرموز الفضية والنحاسية كبديلات للقطع النقدية . وتستخدم رموز الفضة والنحاس بدلا من الذهب حينما تنتقل القطع النقدية فى حالة التداول بسرعة من يد إلى أخرى وتتعرض لأقصى حد من البلى . وهذا هو الحادث حينما تتم المبيعات والمشتريات على نطاق صغير وبسرعة ، ولكى لاتثبت هذه المعادن وتغتصب مركز الذهب نجد التشريعات تحدد المقادير التى ينبغى قبولها منها فى الدفـــع بدلا من الذهب . وهذه المسالك التى تسير فيها الأنواع المختلفة من العملة المتداولة تجرى بطبيعة الحالة الواحد نحو الآخر ، فالرموز تصاحب الذهب لدفع الكسور الصغيرة جداً من القطعة الذهبية ! وكذلك ينساب الذهب على الدوام إلى التداول القطاعى أى فى حالة التجزئة ، كما أنه من جهة أخرى يتعرض دائماً إلى إخراجه من مجال هذا التداول

= عملة مسكوكة ، فاذا يحدث إذن ؟ عليك أن تذيبها ثانية فان تترتب على ذلك خسارة لأن سك العملة لايكلف صاحبها شيئاً . وهكذا أسىء استغلال الشعب . فاذا أرغم التاجر على دفع ثمن ضرب النقود لما أرسل ما لديه من فضة الى البرج دون أن يفكر فى الأمر ، ولأصبحت قيمة النقود المسكوكة أعلى دائماً من قيمة الفضة غير المسكوكة (مصدر سابق ص ١٨) — وقد كان نورث من أشهر التجار فى عهد شارل الثانى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بتحوله إلى القطع النقدية الرمزية (١).

ويحدد القانون بطريقة تعسفية وزن المعدن فى هذه الرموز الفضية والنحاسية ، ولما كانت تبلى فى دورانها بأسرع مما تبلى القطع الذهبية فإن وظائفها كقطع نقدية مستقلة تماما عن وزنها وبالتالى عن قيمتها ، وتصبح وظيفة الذهب كقطعة عملة معدنية مستقلة تماماً عن قيمة المعدن وعلى ذلك نرى أن الأشياء التى تعد نسبياً غير ذات قيمة كأوراق النقد تستطيع أن تحل محلها كنقود ، وهذا الطابع الرمزى مختف إلى حد فى الرموز المعدنية ! ولكن هـــذه الرمزية واضحة فى الورق النقدى . هكذا نرى أن الخطوة الأولى هى الصعبة .

والإشارة هنا إلى ورق النقد غير القابل وللتحويل والذى تصدره الدولة وتحتم تداوله ، وهذا ينشأ مباشرة عن العملة المعدنية — ومن جهة أخرى تنم النقود المرتكزة على الأئتمان على شروط هى — من حيث وجهة نظرنا إلى تداول السلع البسيط — لما تزل غير معروفة لنا تماماً . ولكن تجوز الإشارة العابرة إلى أنه كما أن نشأة ورق النقد راجعة إلى وظيفة النقود كأداة للتداول ، فكذلك النقود المرتكزة على الائتمان مصدرها وظيفة النقود كوسيلة لإتمام المدفوعات أو أداة للدفع (٢) .

---

(١) «واذا كانت الفضة لا تزيد عن حاجة تجارة التجزئة فلا يمكن جمعها بكميات كافية للمدفوعات الأكبر حجماً .. واستعمال الذهب فى المدفوعات الرئيسية يتضمن بالضرورة معنى استعماله فى تجارة التجزئة ، وأولئك الذين معهم العملة الذهبية يعرضونها فى المشتريات الصغيرة ويتسلمون مع السلعة المشتراة مقداراً من الفضة مقابل ذلك ، وبهذه الطريقة فان الفائض من الفضة يسحب ويوزع على التبادل ولولا ذلك لكان عائقاً فى وجه تاجر التجزئة . أما اذا كان هناك من الفضه ما يساعد على اجراء المدفوعات الصغيرة مستقلة عن الذهب وجب على تاجر التجزئة اذن أن يتسلم الفضة ثمناً للمشتريات الصغيرة ولا بد حتماً أن تتراكم فى يده » David Buchanan : Inquiry into the Taxation and Commercial Policy of Great Britain (ادنبره ١٨٤٤ ص ٢٤٨ — ٢٤٩) .

(٢) فكر وان ماو إن وزير المالية الصينى يوماً أن يقترح على ابن السماء تحويل كافة أوراق العملة الى أوراق نقدية قابلة للتحويل ، وفى ابريل ١٨٥٤ قررت اللجنة المختصة توجيه اللوم الشديد اليه وجاء فى تقريرها « درست اللجنة الاقتراح بعناية ووجدته فى صالح التجار ولا فائدة منه للانتاج » Arbeiten der Kaiserlichen Gesandschaft zu Peking uber China (ترجمه عن الروسية ك . آبل ، ف .. مكلنبرج ، المجلد الأول ، برلين ١٨٥٨ ص ٤٧ وما بعدها) وفى أثناء شهادة أدلى بها أحد محافظى بنك انجلترا أمام لجنة مجلس اللوردات التى تبحث قوانين البنك قال ما يلى بصدد تآكل العملة الذهبية أثناء تداولها « فى كل سنة يخف وزن طبقة جديدة من الخليات الذهبية ، والطبقة التى يجرى تداولها سنة يوزنها الكامل لا تلبث بسبب التآكل أن تفقد هذه الميزة » (لجنة مجلس اللوردات ١٨٤٥ رقم ٤٢٩) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وتصدر الدولة إلى التداول قطعاً من الورق ذات فئات مختلفة كالجنيه وخمسة الجنيهات الخ ، وهذه الأوراق إذ تحل محل المبالغ المذكورة آنفاً تعكس لنا مرة أخرى فى حركتها قوانين دوران النقود . والقانون الخاص بتداول الورق النقدى لا ينشأ إلا من حيث النسبة التى يمثل بها الذهب ، ويتلخص هذا القانون فى أنه يجب ألا يزيد الصادر من العملة الورقية عن الذهب (أو الفضة) الذى يكون فعلا فى التداول لو لم تحل محله الرموز . ونعلم أن كمية الذهب التى يمتصها التداول تتقلب دائماً حول مستوى متوسط معلوم ، وبرغم هذا فإن مجموع أداة التداول فى بلد ما لا يهبط دون أدنى معين تعينه التجارب العملية . إن العناصر المكونة لهذا الحد الأدنى تتغير على الدوام أى أن القطع النقدية الذهبية التى يتكون منها قد تختلف فى وقت ما عنها فى وقت آخر — هذه الحقيقة لا تؤثر بأى حال من الأحوال فى مقدار هذا الحد الأدنى وفى حركته المستمرة داخل مجال التداول ، وعلى ذلك يمكن أن تحل محله الرموز الورقية . ولكن إذا حدث أن امتلأت مجارى العملة حتى التخمة بالورق النقدى بحيث لا يستطيع مجال التداول أن يمتص نقوداً بعد ذلك ، فإذن بسبب التقلب فى تداول السلع قد تمتلأ مجارى معملة في الغد زيادة عن سعتها وطاقتها ، وبذا لا يعود هناك أى معيار أو مستوى . وإذا زاد الورق النقدى عن الحد الواجب الذى هو مقدار القطع النقدية الذهبية التى يمكن أن تكون فعلا فى التداول فإنه لن يمثل سوى ذلك القدر من الذهب اللازم والذى يمكن تمثيله بواسطة الورق النقدى ، وذلك طبقاً لقوانين تداول السلع . فإذا كانت كمية الورق الصادرة ضعف ما يجب أن تكون عليه ترتب على ذلك فى الحقيقة أن يكون الجنيه عبارة عن الإسم النقدى لثمن أوقية من الذهب لا ربع أوقية ، وتكون النتيجة كما لو أن تغييراً قد حدث فى وظيفة الذهب بصفته مقياساً للأثمان ، وتلك القيم التى كان يتم التعبير عنها قبلا بجنيه واحد يعبر عنها الآن بثمن قدره جنيهان .

إن الورق النقدى علامة تمثل الذهب أو النقود ، وعلاقته بقيم السلع أن الأخيرة تعبر عنها عقلياً بنفس مقادير الذهب التى يمثلها لورق طريقة رمزية . إن ورق النقد لا يكون رمزاً للقيمة إلا بقدر ما يمثل الذهب (الذى له قيمة شأنه فى ذلك شأن كافة السلع الأخرى) (١).

(١) تدل القطعة الآتية التى نقتبسها عن فولارتن مدى على غموض الآراء التى يبديها بصدد وظائف النقود أحسن الكتاب الذين كتبوا عن العملة ،، وفيما يختص بالمبادلات الداخلية فان جميع الوظائف النقدية التى تؤديها العملة الذهبية والفضية عادة يمكن أن يقوم بها بطريقة معالة بتداول أوراق غير القابلة للتحويل ليس لها فى الحقيقة سوى تلك القيمة الوهمية التى يفرضها القانون — أقول ان هذه الحقيقة لا تحتمل الانكار . ويجوز أن نجعل قيمة من —

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وأخيراً قد يسأل البعض : لماذا يمكن لهذه الرموز التى لا قيمة لها أن تحل محل الذهب ؟ ولكن هذا كما رأينا مرتبط بوظيفة الذهب كقطعة نقدية أو كأداة التداول لا غير . والآن نعلم أن للنقود وظائف أخرى إلى جانب هذه وأداؤها وظيفة أداة التداول ليس من الضرورى أنه الوظيفة الوحيدة المتعلقة بالقطعة النقدية الذهبية ولو أن هذا هو الحال بصدد تلك القطع النقدية التى أصابها البلى والتى تستمر فى التداول . ولكن هذا هو الحال نفسه مع الحد الأدنى من مجموع الذهب الذى يمكن أن يحل محل الورق . فهذا المجموع يظل على الدوام داخل نطاق التداول ويقوم بوظيفة أداته ولا يبقى إلا لهذا الغرض ذاته ، وحركته لا تمثل إذن سوى التغيير المتواصل للمظاهر المتقابلة للتحول التالى (س — ن — س) وهى مظاهر تواجه فيها السلع أشكال قيمتها ثم تختفى بعد ذلك سريعاً . فالوجود المستقل لقيمة السلعة التبادلية هو مظهر زائل هنا تحل بواسطته ساعة محل أخرى فى الحال ، وعلى ذلك ففى هذه العملية التى تجعل النقود تمر من يد إلى أخرى يكفى مجرد الوجود الرمزى للنقود ، ونظرا لأنه صورة موضوعية تعكس أثمان السلع فإنه يؤدى فقط وظيفة رمز لذاته وبذلك يمكن أن تحل محله رموز تدل عليه (١). ومع ذلك فثمت شىء أساسى لازم وهو أنه لابد أن يكون لهذا الرمز صلاحية اجتماعية موضوعية خاصة به وورق النقد يكتسب هذا بتداوله الإجبارى . هذا العمل الإجبارى من جانب الدولة لا يحدث إلا فى داخل المجال للتداول الذى يقف عند حدود الجماعة أو حيث تنتهى أراضيها التى تعيش عليها . وعلى ذلك ففى ذلك المجال يستطيع أن يكون له على هيئة الورق النقدى وجود يؤدى وظيفة مخصوصة متميزة عن جوهره المعدنى .

= هذا النوع تحقق كافة أغراض القيمة الحقيقية بل انها قد تنفى الحاجة الى معيار بشرط أن تكون كمية الأوراق الصادرة محدودة بالقدر المناسب ،، Regulation of Currencies (الطبعة الثانية ، لندن ١٨٤٥ ص ١١) . ونفهم من هذا أنه لما كان فى الامكان أن تحل الرموز عن القيمة محل السلعة النقدية فى مجال التداول ، فعلى ذلك ليس من حاجة الى السلعة النقدية كمقياس للقيم ومستوى للأثمان !

(١) نظراً لأن الذهب والفضة من حيث أنهما عملة أو يقومان بصفة أداة بوظيفة أداء التداول ، يصبحان مجرد رموز فى حد ذاتهما ، لهذا استنتج نيقولا باربون أن للحكومة الحق فى ،، أن ترفع النقود ،، أى تسبغ على وزن القطعة الفضية التى يقال لها شلن اسم وزن أكبر مثل الكراون Crown وبذا ندفع للدائنين شلنات بدلا من كرونات . ،، ان النقود تتآكل ويخف وزنها ... ان الذى يهتم به الناس فى أعمالهم التجارية انما هو تداول النقود وما تدل عليها لا كمية الفضة ... ان السلطة العامة على المعدن هى التى تجعل منه نقوداً ،، (مصدر سابق ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٥) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

٣ — النقود

النقود هى السلعة التى تؤدى وظيفة مقياس القيمة وبذا تقوم (بشخصها أو عن طريق ما يمثلها) بوظيفة أداة التداول ، وعلى ذلك يكون الذهب أو الفضة نقوداً . إن هذه السلعة تقوم بدور النقود إذا تعين وجودها فى شكلها الذهبى أو الفضى وحينئذ بوصفها سلعة نقدية تكون خيالية (كما يحدث حين تؤدى وظيفة مقياس القيمة) كما لا يمكن أن تمثلها رموز تحل محلها (كما يحدث حين تقوم بدور أداة التداول) . هذا من جهة ، ومن أخرى يقوم الذهب بوظيفة النقود حيما يتجمع بنفسه أو عن طريق ما يمثله إلى مجرد شكل للقيمة أى كالشكل الوحيد المناسب الذى تكون عليه القيمة التبادلية لكافة السلع الأخرى .

ا — الاختزان

إن التداول المستمر فى التحولين المتقابلين للسلع ، والتبادل الذى لا ينقطع للبيع والشراء — كل هذا ينعكس فى دوران النقود الدائم أى فى الوظيفة التى تضطلع بها النقود من حيث كونها الحركة الدائمة للتداول . ولكن بمجرد أن تتوقف سلسلة التحولات ، بمعنى أنه بمجرد أن تتم مبيعات لا تكملها مشتريات ، تصبح النقود ثابتة غير متحركة أو تتحول كما يقول Boisgeuillebert من متاع منقول (متحرك) إلى غير منقول (غير متحرك) أى من عملة جارية إلى نقود ذات مظهر عام . ومع ذلك ففى أثناء المراحل المبكرة من تطور نظام تداول السلع تمت الحاجة أو الرغبة الملحة فى التمسك بنتاج التحول الأول وهذا الناتج هو شكل السلعة الذى تغيرت إليه أى مظهرها الذهبى (١)، فتباع السلع لا بقصد شراء غيرها ولكن لكى يحل شكلها النقدى مكان شكلها الطبيعى المادى . هذا التغيير فى الشكل والذى كان الغرض منه أولا تنمية تداول السلع تحول فصار غاية فى حد ذاته . بهذا تجمد النقود وتتحول إلى اكتناز للمال ويصبح البائع مكتنزاً له . وفى المراحل المبكرة من تداول السلع لا يتحول إلى نقود سوى فائض القيمة الاستعمالية ، وبذا يصبح الذهب والفضة تعبيرات اجتماعية عن الإمتلاء أو الثروة . ويستمر هذا الشكل البسيط من الاختزان فى الجماعات التى تتبع الأسلوب التقليدى فى الإنتاج الذى يرمى إلى سد الدائرة الثابتة المحدودة من حاجيات الجماعة ، وهذا هو شأن شعوب آسيا وبخاصة

---

(١) ,,الثروة على شكل نقود ليست سوى ... ثروة فى شكل انتاج تحول الى نقود،، .

Mercier de la Rivière, op. cit., p. 557

,, والقيمة فى المنتجات انما غيرت شكلها ،، — نفس المصدر ص ٤٨٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى جزر الهند الشرقية . وإنا لنجد فاندرلنت الذى يتوهم أن أثمان السلع فى بلد ما تعينها كمية الذهب والفضة فيه يتساءل عن السبب فى رخص السلع الهندية ، والجواب على ذلك أن الهنود (يدفنون) نقودهم . ويلاحظ الكاتب نفسه أنه فيما بين ١٦٠٢ و ١٧٣٤ اختزن الهنود ١٥٠ مليوناً من الجنيهات الإسترلينية من الفضة جاءت فى الأصل من أمريكا إلى أوربا[١] ، وفى السنوات العشر (١٨٥٦ — ٦٦) صدرت انجلترا إلى الهند والصين ماقيمته ١٢٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه من الفضة حصلت عليه مقابل الذهب الأسترالى . ويذهب معظم الفضة الصادرة إلى الصين صوب الهند .

بازدياد نمو تداول السلع أصبح كل منتج للسلع مضطراً أن يتأكد من الضمان الإجتماعى[٢] لحاجاته فى ازدياد وتتطلب الشراء المستمر لسلع الغير ، بينما إنتاج سلعة وبيعها يقتضيان وقتاً ويتوقفان على الظروف . ولكى يستطيع الشراء دون أن يبيع لابد أنه قد باع شيئاً دون أن يصحب هذه العملية شراء . ويبدو على هذه العملية أو الظاهرة طابع التناقض إذا أجريت على نطاق واسع ، ولكن المعادن النفيسة تستبدل عند مواطن إنتاجها مباشرة بسلع أخرى وفى هذه الحالة تجد مبيعات (من جانب أرباب السلع) بدون مشتريات (من قبل أصحاب الذهب والفضة) [٣] ، والمبيعات التالية لذلك (من جانب المنتجين) والتى لا تعقبها مشتريات إنما تؤدى إلى توزيع المعادن النفيسة المنتجة حديثاً بين جميع أرباب السلع ، وبهذه الطريقة تتراكم خلال عملية التبادل مقادير مختزنة من الذهب والفضة . ولما كان بالإمكان خزن القيمة التبادلية على هيئة سلعة معينة نشأ الجشع فى سبيل الاستحواذ على الذهب . وإذ يتسع نطاق التداول تعظم قوة النقود ذلك المظهر الاجتماعى الذى ينم عن الثروة . لقد كتب كولمبس من جاميكا سنة ١٥٠٣ يقول « إن الذهب شىء مدهش ، ومن يملكه يصبح سيداً لكل ما يحتاج إليه ، ويستطيع المرء بواسطته أن يبعث الحياة فى الجثة الهامدة » . وبما أن الذهب لايدل على الأشياء التى تحولت إليه تبع هذا أن كل شىء سواء كان سلعة أم لا يمكن أن يتحول إلى ذهب ، وصار كل شىء قابلا للبيع والشراء . بل لاتستطيع مقاومة هذا السحر حتى عظام القديسين ، وتقل عن ذلك من حيث المقاومة الأشياء المتناهية فى الدقة والرقة والأشياء ذات القدسية مما يقع

---

(١) « وعن هذا الطريق يجعلون أثمان بضائعهم ومصنوعاتهم منخفضة » ، فاندرلنت ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) « النقود ضمان » John Bellers; Essays adout the Poor, Manufactures, Trade, Plantations and Immorality, London, 1659, p. 13.

(٣) فى المعنى المطابق لهذه العبارة نقصد حين نتحدث عن الشراء أن البضائع يدفع ثمنها بالذهب أو الفضة الموجود كل منهما على هيئة شكل متغير من سلع وهو الشكل الذى تولد عن عملية بيع .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

خارج مجال النشاط التجارى للناس (١) وكما أن أى اختلاف كمى بين السلع يختفى فى النقود كذلك تقضى الأخيرة على كافة المميزات والفوارق(٢). ولكن النقود ذاتها سلعة وجسم خارجى يمكن أن يكون ملكا خاصاً لأى فرد من الأفراد ، وبهذا تصير القوة الإجتماعية قوة خاصة يملكها أفراد مخصوصون ، ومن أجل هذا السبب حمل الأقدمون على النقود ونسبوا إليها العمل على هدم النظام الاقتصادى والأخلاقى(٣) .

والمجتمع الحديث الذى — ولما يزل فى بداية عهـــده — جذب بلوطو من شعر رأسه وأخرجه من باطن الأرض (٤) ، يعد الذهب الصورة البراقة التى يتجسم فيها مبـدأ الحياة وأصولها .

والسلعة بصفتها قيمة استعمالية تشبع حاجة معينة ، وهى عنصر خاص من عناصر الثروة المادية . ولكن قيمة السلعة مقياس درجة اجتذابها لكافة العناصر الأخرى التى تكوّن هذه

---

(١) درج هنرى الثالث ملك فرنسا العظيم التمسك بالمسيحية على أن يسلب ما فى الأديرة من تحف وآثار كى يحولها الى نقود ، وانا لنعلم الدور الذى لعبه فى تاريخ الاغريق ما أقدم عليه القوقيون من نهب معبد دافنى . ويقول الأقدمون إن إله السلع كان يقيم فى المعبد ، فكانت المعابد عبارة عن « مصارف مقدسة » ، وكان القوقيون وهم شعب تجارى قبل كل شىء ، ينظرون الى النقود على أنها الشكل الذى تتحول اليه كافة الأشياء . ولهذا كانت العذارى اللاتى يبعن أنفسهن للاغراب فى عيد آلهة الحب يقدمن اليها ماتسلمنه من قطع النقود .

(٢) الذهب ! الذهب لأشفر البراق النفيس !

وهكذا فكثير من هذا يجعل الأسود أبيض ، والخبيث طيب ، والضلال حقاً ، والمنحط نبيلا ، والشيخ شاباً والجبان شجاعا ... ماهذا أيتها الآلهة ؟ ماالسبب الذى يجعل هذا الشىء ينزع الكهنة والأتباع من جانبكم ، وينزع الوسائد من تحت رؤوسهم . هذا العبد الأصفر يصدع الأديان ويحطمها ، ويبارك الملعون ، ويجعل الماهرة البرصاء موضع الاعجاب والعبادة ، ويرفع للصوص ويسبغ عليهم الألقاب والمراكز والتقدير أسوة بأعضاء الهيئات الحاكمة . هذا هو الذى يجعل الأرملة الباكية تتزوج من جديد .

... تعالى أيتها الأرض الملعونة ، أيتها الطاهرة التى تحدبين الناس جميعاً ...

Shakespeare, Timon of Athens, act IV, sc. III.

(٣) ان المال من أعظم المساوىء السائدة على ظهر الأرض

ان المال هو الذى يسبب نهب المدن وسلبها ، ويؤدى الى اخراج الناس من بيوتهم ، ويخدع الأبرياء ويجعلهم يسلكون سبيل الضلال والدناءة ، ويربى فى النفوس الخيانة ويجعل منها عادة ثابتة .

Sophocles, Antigone, 11, 295 et seq. (F. Storr's Translation Loeb Classical Library, Sophocles, vol. 1, p. 337)

(٤) « والجشع الذى يخرج بلوطو نفسه من باطن الأرض »

Athentaeus, The Deipnosophists, VI, 23.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الثروة المادية ، وبذلك فهى المقياس لثروة صاحبها الاجتماعية . وتبدو القيمة فى نظر فلاح غرب أوربا غير منفصمة العرى عن شكل القيمة ، ولهذا فهؤلاء يعتبرون ازدياد مايكنزون من ذهب أوفضة كأنه زيادة فى القيمة . حقيقه تختلف القيمة النسبية للنقود نظراً للتغير فى قيمتها من جهة أو بسبب تغيير فى قيمة السلع من جهة أخرى ، ولكن هذا لا يمنع أن لمائتى أوقية من الذهب قيمة أكبر مما لمائة أوقية ، وأكثر من هذا فسواء تغيرت قيمة النقود أم لم تتغير فإن الشكل المعدنى الواقعى لهذه السلعة هو الشكل المعادل العام لكافة السلع ، والصورة الاجتماعية المباشرة التى يتجسد فيها كل عمل إنسانى .

والرغبة الدافعة على الاكتناز هى بحكم طبيعتها مما لا يمكن إشباعه . وإذا نظرنا إلى النقود من ناحية الكيف أو الشكل وجدنا أنها غير ذات حد وأنها المظهر العام الذى يمثل الثروة المادية وذلك بسبب قابليتها للتحول إلى أية سلعة . وبرغم هذا فإن كل مبلغ من المال محدود من حيث مقداره وبذا لا يصلح إلا لشراء مقدار محدود مقيد من البضائع . هذا التباين بين ظاهرة التقييد الكمى المفروض على النقود وبين ماتتصف به من عدم التقيد بحدود من حيث الكيف ـ تقول هذا التباين هو الذى يحدس رغبة الفرد فى الاختزان . فهو مثل الفاتح الذى يرى فى كل بلد جديد يغزوه جداً جديداً .

وحتى يتسنى اختزان الذهب يجب منعه من التداول أى من أن يتحول إلى وسيلة للاستمتاع بأن يستخدم لإتمام عمليات الشراء . فالمختزن إنما يضحى بشهوات الجسد أمام هذا المعبود وهو الذهب ، ولكنه من جهة أخرى لا يستطيع أن يسحب من التداول أكثر مما ألقى فيه على هيئة سلع . فكلما زاد إنتاجه زادت مقدرته على البيع ، وعلى ذلك فالفضائل التى تميزه هى الجد والاقتصاد والجشع ، وهكذا تتلخص مبادىء الإقتصاد السياسى الذى يؤمن به فى أن يبيع كثيراً ويشترى قليلا (١) .

وإلى جانب هذا الشكل البسيط الخشن من الاختزان نجد شكلا آخر أشد تهذيباً وينحصر فى امتلاك الأدوات الذهبية والفضية ، وتعظم الرغبة فى هذه الأشياء الأخيرة بازدياد ثروة المجتمع البورجوازى .

لقد قال ديدرو « لتكن أغنياء ، أو فلتبد بمظهر الأغنياء » بهذه الوسيلة ينشأ سوق يتسع باطراد للذهب والفضة لاعلاقة له بوظيفتهما كنقود ، ومن جهة أخرى يتكون مورد يمكن

---

(١) « والعناصر التى تدور عليها عمليات الاقتصادى السياسى تنحصر فى أن تزيد الى أكبر حد ممكن عدد أولئك الذين يبيعون مختلف أنواع السلع ، وأن نقلل ما أمكن من عدد المشترين » . Verri, op. cit., p. 52.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الالتجاء إليه من وقت إلى آخر وبخاصة فى عهود الأزمات والاضطرابات الاجتماعية .

ويؤدى الاكتناز أغراضاً أخر فى اقتصاد تداول المعادن النفيسة وتنشأ وظيفته الأولى من الأحوال والظروف التى يحدث فيها تداول العملة الفضية أو الذهبية . لقد رأينا كيف أن كمية النقود المتداولة (الجارية) تزيد وتنقص تبعاً لما يطرأ من تقلبات غير منقطعة على السلع من حيث مداها وسرعة تداولها ، وكذا أثمانها . فعلى ذلك يجب أن تكون العملة قابلة للانكماش والامتداد ، فمرة يجب اجتذاب النقود كى تكون عملة متداولة ، وأخرى يجب إبعاد العملة المتداولة لتصبح نقوداً راكدة . وحتى يتسنى لمجموع النقود التى فى التداول فعلا أن يشبع دائما طاقة التداول على الامتصاص ، من الضرورى أن تكون كمية الذهب والفضة فى بلد أعظم من الكمية اللازمة لأداء وظيفة العملة . وهذا الشرط يتوافر فى النقود التى تتخذ شكل مختزن . إن الأموال المختزنة خزانات ذات اتصال بالمجارى التى بها النقود المتداولة ، بحيث لا يفيض مجرى العملة الجارية على جانبيه [1].

ب — وسيلة الدفع

إذ توافرنا حتى الآن على بحث الشكل المباشر من تداول السلع رأينا كل حجم معلوم من القيمة موجوداً دائماً فى صورة مزدوجة أى كسلعة فى طرف ونقود فى الطرف المقابل ، وعلى ذلك اتصل أصحاب السلع بعضهم ببعض بصفتهم الممثلين لمكافئات سبق وجودها من قبل . ولكن نمو التبادل أدى إلى ظهور حالات يرجع إليها الفضل فى أن انفصل نقل ملكية

---

(١) لكى يتسنى مواصلة تجارة الأمة لابد من مقدار معين من النقود النوعية وهو مقدار يتغير فيزيد أحياناً وينقص أخرى تبعاً للظروف السائدة ... ويحدث هذا الازدياد والنقص فى النقود وينظمان أنفسهما دون ثمت مساعدة من جانب رجال السياسة ... حين تندر النقود تسك السبائك ، وحين تندر السبائك تذاب النقود ،،

Sir Dudley North, op. cit., postscript, p. 3 — وكذلك نجد أن جون ستيوارت مل الذى اشتغل زمنا طويلا موظفاً فى خدمة شركة الهند الشرقية يؤيد مايقول من أن الهنود لايزالون يكنزون الحلى المصنوعة من الفضة ، ويقول انهم يخرجونها لتحويلها الى نقود حين يرتفع سعر الفائدة فاذا ماهبط هذا الأخير أعادوها الى حيث يكتنزونها — راجع الشهادة التى أدلى بها Reports on Bank Act, 1857, n. 2084 — وجاء فى وثيقة برلمانية (١٨٦٤) عن صادرات الهند ووارداتها من الذهب والفضة أن سنة ١٨٦٣ شهدت زيادة الواردات من الذهب والفضة عن الصادرات منهما قدرها ١٩،٣٦٧،٠٧٦٤ من الجنيهات . وخلال سنوات ثمان تمتد حتى سنة ١٨٦٤ زادت واردات المعادن النفيسة عن الصادر منها بما مقداره ١٠٩،٦٥٢،٩١٧ من الجنيهات . وفى خلال القرن الحالى بلغ مقدار النقود المسكوكة فى الهند أكثر من مائتى مليون جنيه .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

السلع عن تحقيق أثمانها بواسطة فترة من الزمن ، ويكفي أن نشير إلى أبسط هذه الحالات . فثمت نوع من السلع يتطلب إنتاجه وقتا طويلا بينما يتم إنتاج نوع آخر فى وقت أقصر ، ويتوقف إنتاج بعض السلع على أحوال فصلية ، ويمكن تسويق سلعة ما فى مكان إنتاجها بينما يتعين على غيرها أن تشق سبيلها إلى سوق بعيدة عن الوطن الذى توجد فيه . ولهـذه الأسباب يعرض صاحب سلعة معينة نفسه بائعاً لها قبل أن يتهيأ لمالك سلعة آخر الوقت الذى يقوم فيه بدور المشترى . وحيثما تتكرر عمليات متشابهة باستمرار بين نفس الأشخاص فإن تنظيم أحوال البيع يجرى وفقاً لأحوال الإنتاج . هذا من جهة . ومن جهة أخرى تباع منفعة سلعة معينة كالمنازل مثلا لفترة مخصوصة من الزمن بحيث أن المشترى لا يحصل على كل قيمة السلعة حقيقة إلا بعد انقضاء أجل البيع ، وعلى ذلك فان مثل هـذا المشترى يشتريها قبل أن يدفع مقابلها . فالبائع يبيع سلعة موجودة ، والمشترى يشتريها على أنها مجرد شيء يمثل النقود أو يمثل نقوداً مستقبلة ، وبهذا يصبح البائع دائناً والمشترى مديناً وإذ تبـدو هنا تحولات السلع أو تطور شكل قيمتها فى مظهر جديد فان النقود كذلك تكتسب وظيفة جـديدة أى تصير وسيلة للدفع(١)

وتداول السلع البسيط تترتب عليه صفة كون المرء دائناً أو مديناً ، ولـكن هـذا الطابع الجديد يدمغ البائع والمشترى حين يغير تداول السلع الشكل الذى هو عليه . وعلى ذلك أولا يتخذ نفس عاملى التداول هذين الدورين بصورة مؤقتة ويلعبانهما الواحـد بعد الآخر أى بالتبادل وذلك كما يحدث اتخاذ دورى البائع والمشترى بصفة مؤقتة وكما يتم القيام بهما بالتبادل. ولـكن هذا التعارض أو التباين بين الدائن والمدين أقل رحمة بكثير وأكثر ميـلا للتثبيت والاستقرار(٢)

وينبغى أن نذكر أن من المستطاع اتخاذ نفس دورى المدين والدائن بعيداً ومستقلا عن تداول السلع . فقـد اتخذ الصراع الطبقى فى العالم القديم شكل نضال بين دائنين ومدينين

---

(١) يميز لوثر بين النقود بوصفها وسيلة للشراء وبصفتها وسيلة للدفع وذلك لأنه يقول ,, انك تعمل لى توأما من المرابى لأنى لا أستطيع الدفع هنا ولا أتمكن من الشراء هناك ،، : انظر :

An die Pfarrherrn, wider den Wucher zu predigen, Wittenberg, 1540

(٢) نقرأ مايلى بصدد العلاقات بين الدائن والمدين فى صفوف التجار الانجليز فى بداية القرن الثامن عشر ,,وتسود مثل هذه الروح من القسوة هنا فى انجلترا بين أهل التجارة ، الأمر الذى لانلقى له مثيلا فى أى مجتمع من الناس ولافى أى مملكة أخرى فى العالم ،، .

An essay on credit and the Bankrupt Act. London, 1707, p. 2.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وانتهى فى روما بدمار المدينين من طبقة العامة فصاروا عبيداً ، وفى العصور الوسطى ختم هذا الصراع بدمار المدينين الإقطاعيين الذين فقدوا سلطانهم السياسى حين ضاع منهم الأساس الاقتصادى الذى قام عليه ذلك السلطان . وبرغم هذا فان الشكل النقدى (والعلاقة النقدية بين الدائن والمدين لها شكل علاقة نقدية) يعكس هنا مجرد التعارض بين أحوال البقاء الاقتصادية التى توجد فى مستوى على قدر كبير من العمق فى صرح المجتمع ونظامه .

لنعد الآن إلى موضوع تبادل السلع . فالمتعادلان وهما السلع والنقود لا يعودان يظهران فى قطب عملية البيع فى نفس الوقت الواحد . فأولا تؤدى النقود الآن وظيفة مقياس قيمة فى تعيين ثمن السلعة المبيعة ، فالثمن الذى يحدده العقد مقياس للالتزام الواقع على المشترى أى ذلك المبلغ من المال الذى يتعين عليه دفعه فى ميقات محدود . وثانياً تضطلع النقود بدور شىء فكرى أى على أنها وسيلة غير مادية لإتمام عملية الدفع فرغم أنها لا توجد إلا على صورة وعد بالدفع من جانب المشترى فانها تؤدى إلى انتقال السلعة من أيدى البائع إلى أيدى المشترى . إن أدوات الدفع لا تدخل فعلا فى نطاق التداول حتى ينقضى الأجل المشروط ، ولا تنتقل النقود من يد المشترى إلى يد البائع حتى يحين ذلك الأجل . لقد تحولت أداة التداول إلى اختزان لأن عملية التداول توقفت فى ختام المظهر الأول ، كما سحبت من التداول النقود التى تمثل السلعة فى شكل متغير ، وبعد أن تخرج السلعة من مجال التداول تدخله وسيلة الدفع . إن النقود لا تعود الوسيلة التى تسبب تلك العملية ، وإنما تختم العملية وذلك بأن تبدو فى الشكل القديم لوجود القيمة التبادلية . يغير البائع سلعته إلى نقود كى يقضى حاجة بواسطة النقود ؛ ويحول البخيل سلعته الى نقود ليختزن السلعة فى شكلها النقدى ، ويحول المدين السلعة إلى نقود كى يدفع ثمن ما اشتراه من قبل ، وإذا لم يدفع المدين ما عليه لوقع الحجز على ما لديه . لقد أصبحت الآن النقود أى الشكل النقدى المعبر عن قيمة السلعة الغاية المرجوة من البيع ، وهذا يعبر عن حاجة اجتماعية ناشئة عن عملية التداول ذاتها .

والمشترى يعيد تحويل نقوده إلى سلع قبل أن يكون قد حول سلعه إلى نقود ، وبعبارة أخرى يجرى التحول الثانى للسلع قبل أن يتم التحول الأول . وتتداول سلعة البائع وتحقق ثمنها ولكنها لا تفعل ذلك الا بصفتها ذات حق قانونى إزاء النقود . إنها تحول إلى قيمة استعمالية قبل أن تحول نفسها إلى نقود ، أى يتأجل إتمام التحول الأول(١) .

---

(١) من العبارة الآتية التى وردت فى كتابى الذى وضعته سنة ١٨٥٩ يتضح السبب الذى من أجله لم ألق بالا فى النص الى شكل مضاد ، ومن جهة أخرى ففى العملية ن ـ س يمكن نقل ملكية النقود كوسيلة حقيقية للشراء وبهذا يمكن تحقيق ثمن السلعة قبل أن تتحقق القيمة الاستعمالية للنقود وقبل أن تسلم السلعة فعلا ، ويحدث هذا عادة فى الشكل المألوف من=

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والالتزامات التى تستحق الوفاء خلال فترة معلومة تمثل مجموع أثمان السلع التى سبب بيعها هذه الإلتزامات . ومبلغ النقود اللازم لتحقيق مجموع هذه الأثمان الكلى يتوقف أولا على سرعة دوران وسيلة الدفع ، وهذه نفسها تحدد بحالتين : سلسلة العلاقات بين الدائنين والمدينين بحيث أنه حين يتسلم ا نقوداً من مدينه ب يسلمها فى الحال إلى دائنه ج وهكذا . والحالة الثانية هى طول الفترات الواقعة بين مختلف الأيام التى تحدث فيها تسوية الحساب . هذه السلسلة المستمرة من المدفوعات أو هذه التحولات الأولى المؤخرة تختلف اختلافاً أساسياً عن ذلك التداخل بين سلسلات التحولات التى عرضنا لها فى مرحلة سابقة من بحثنا هذا. وفى دوران وسيلة الدفع تجد أن العلاقة بين البائعين والشارين تنشأ فعلا عن تداول (دوران) النقود وتوجد فيه . ومن جهة أخرى تعبر حركة وسيلة الدفع عن علاقة اجتماعية قائمة قبل بدء الحركة .

والمدى الذى يمكن فيه إتمام مبيعات عدة فى نفس الوقت الواحد بحيث تسير جنباً إلى جنب ، يعمل على تحديد درجة تعويض النقص النسبى فى مقدار العملات النقدية بواسطة زيادة سرعة دورانها. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن وقوع المبيعات فى نفس الوقت الواحد فيه دافع جديد على الاقتصاد فى وسيلة الدفع .

وبالنسبة التى تتركز بها مبيعات عدة فى بقعة واحدة تنشأ بطبيعة الحال نظم وأساليب خاصة لإجراء التوازن بينها ، ومن هذا القبيل مثلا تلك المؤسسات المعروفة باسم « virements » لتسوية وتصفية الحسابات والتى قامت فى ليون خلال العصور الوسطى . فيكفى أن توضع ديون ـ ا ـ إزاء ـ ب ، و ـ ب ـ إزاء ـ ح ، و ح ـ إزاء ـ ا بحيث يلغى كل منها الآخر ، إلى حد ما كما تفعل الأحجام الموجبة والسالبة ، وبهذا يتبقى دين واحد بارز لتسويته . وكلما زاد نطاق تركز المدفوعات قل الميزان بالنسبة إلى مجموعها الكلى ، وعلى ذلك صغر مجموع وسيلة الدفع الموجودة المتداولة .

وتنطوى الوظيفة التى تؤديها النقود من حيث كونها وسيلة للدفع على تناقض مباشر . فمن حيث أن المدفوعات يوازن كل منها الآخر فإن النقود تؤدى عملها بطريقة فكرية بحتة بصفتها نقود حسابية أى مقياس للقيمة . وبقدر مايجب إجراء المدفوعات الفعلية فإن النقود

= الدفع المتقدم . ونراه كذلك فى طريقة الشراء التى تتبعها الحكومة البريطانية لشراء الأميون من الزراع الهنود ... فى هذه الحالات تقوم النقود بدورها دائما بالطريقة المعتادة بوصفها وسيلة للشراء ... وبطبيعة الحال يدفع رأس المال مقدما على شكل نقود ... وعلى كل فان وجهة النظر هذه لاتدخل فى نطاق التداول البسيط .

Zur Kritik der politischen Oekonomie, pp. 119—120 .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لاتصلح كأداة للتداول بل كالصورة الفردية التى يتجسم فيها العمل الاجتماعى أى كالمجموع الكلى المستقل للقيمة التبادلية أو كالسلعة المطلقة . ويبلغ التعارض أقصاه فى تلك المظاهر من الأزمات الصناعية والتجارية مما يعرف باسم الأزمات النقدية (١).

ولا تقع أزمة من هذا القبيل إلا إذا توافرت لدينا سلسلة من المدفوعات وطريقة اصطناعية فى موازنتها وتسويتها قد بلغتا حد النمو الكامل . وحينما يصاب هذا الجهاز باضطراب عام مهما كان مصدره تفقد النقود هذا الشكل الفكرى للنقود الحسابية وتتخذ صورة مادية هى صورة نقود فعلية ، ولا تعود السلع قادرة على أن تحل محلها ، وتصبح القيمة الاستعمالية للسلع دون أية قيمة ، ويقضى شكل القيمة الذى لها على قيمتها ويحطمها . وقد ملأ الرخاء المؤقت البورجوازيين غروراً وصلفاً بحيث قالوا إن النقود وحدها هى السلعة . وكما يلهث الظبى فى عدوه نحو المجارى التى تطفأ ظمأه كذلك تتعطش نفوس هؤلاء إلى النقود أى الثروة الوحيدة (٢) . ففى خلال الأزمة يبلغ التعارض بين السلعة والنقود — أى الشكل الدال على قيمتها — غايته فيصبح تعارضاً مطلقاً ، ولا يهم الشكل المظهرى الذى قد تكون عليه النقود إذ التعطش شديد سواء حدث الدفع بالذهب أو بنقود الائتمان كالأوراق النقدية (٣) .

---

(١) أن الأزمة النقدية التى أشير اليها فى النص على أنها مظهر خاص فى كل أزمة صناعية وتجارية عامة ، يجب تمييزها بوضوح عن نوع خاص من الأزمات (يعرف كذلك باسم ,,الأزمة النقدية،،) وهو نوع قد يقع مستقلا عن الأزمة الصناعية والتجارية وان كان له رد فعل غير مباشر على الصناعة والتجارة . وأساس مثل هذه الأزمات وأس المال النقدى ولهذا السبب يجد مجال فعلها انما يكون فى المصارف والبورصة والمالية بوجه عام .

(٢) ,, هذا الرجوع المفاجىء من نظام الائتمان الى نظام الدفع بالنقد يضيف رعباً نظرياً الى ذلك الذعر العملى ، ويرتعد فرقا أولئك المتجرون الذين يتم التداول عن طريقهم أمام ذلك السر الغامض الذى تشتبك فيه علاقاتهم وهم عاجزون عن ادراك كنهه ،، Karl Marx, op. cit., p. 126. ,, ويظل الفقراء فى حالة توقف وسكون اذ ليس لدى الأغنياء أموال لاستخدامهم وان كان لديهم الأرض والأيدى التى تنتج الغذاء والكساء وهذا هو ثروة الشعب الحقيقية لا النقود ،، .

John Bellers, ; Proposals for Raising a College of Industry, London, 1696, p. 3.

(٣) ترينا القطعة كيف يستغل مثل هذه الأوقات أولئك الذين يطلق عليهم أصدقاء التجارة ,, ففى أحد لمرات وكان ذلك سنة ١٨٣٩ كان مصرفى جشع عجوز جالساً فى غرفته الخصوصية فأزاح غطاء الدرج الذى كان جالساً عليه وأبرز لصديق له ربطات من أوراق النقد قائلا وقد غمره فرح شديد أن لديه من ذلك ٦٠٠٫٠٠٠ جنيه ، وكانت هذه الأوراق كلها مربوطة وسيخرجها جميعاً بعد الساعة الثالثة فى نفس اليوم ،،

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وإذا نظرنا إلى المجموع الكلى للنقود المتداولة خلال فترة معلومة لوجدناه مساوياً لأثمان السلع التى تحققت زائداً مجموع مبالغ المدفوعات المستحقة ناقصاً المدفوعات التى يوازن بعضها بعضاً وناقصاً عدد الدورات التى تقوم بها نفس قطعة العملة النقدية بصفتها أداة تداول ووسيلة للدفع - وهذا كله مع فرض ثبات سرعة دوران أداة التداول ووسيلة الدفع . مثال ذلك يبيع الفلاح حباً بجنيهين يصلحان بذلك أداة تداول . وفى يوم التسوية يستخدم هذين الجنيهين ليدفع ثمن التيل الذى سبق أن اشتراه من الغزال . حينئذ يشترى الغزال نسخة من الإنجيل بالجنيهين ويدفع الثمن نقداً بحيث أن الجنيهين يؤديان من جديد وظيفة أداة التداول وهكذا . ومن هنا مع افتراض الأثمان وسرعة الدوران والاقتصاد فى المدفوعات - فإن كمية النقود المتداولة خلال فترة معلومة من الزمن كيوم مثلا تماثل أو تطابق مجموع السلع المتداولة خلال هذه الفترة . إن النقود التى تمثل سلعاً سبق سحبها من التداول تظل متداولة ، ويجرى تداول السلع التى لن يظهر على المسرح المعادل النقدى لها إلا فى يوم مستقبل ، وعلاوة على ذلك فالديون التى تعقد كل يوم والمدفوعات التى تستحق الوفاء فى نفس اليوم هى كميات غير قابلة للموازنة والتعادل فيما بينها . وتنشأ نقود الائتمان مباشرة من وظيفة النقود من حيث كونها وسيلة للدفع ، بما أن الكمبيالات التى تمثل مقادير يدين بها البعض مقابل سلع اشتروها ، يجرى تداولها بقصد نقل هذه الإلتزامات من واحد إلى آخر . ومن جهة أخرى يتسع نطاق وظيفة النقود من حيث كونها وسيلة للدفع وذلك تبعاً لاتساع نطاق نظام الائتمان . وإذ تؤدى نقود الائتمان وظيفة وسيلة الدفع فإنها تتخذ أشكالا مختلفة خاصة بها وهى أشكال تجعلها مألوفة ميسورة فى مجال العمليات التجارية الكبرى . ومن الناحية الأخرى يزداد الاحتفاظ بالذهب والفضة كى يسد حاجة تجار التجزئة(١)

The Theory of Exchanges, the Bank Charter Act. of 1844, London 1864, p. 81,

وجاء فى صحيفة الأوبزرفر فى عددها الصادر يوم ٢٤ أبريل ١٨٦٤ مايأتى ,, تروج شائعات غريبة عن بعض الأساليب التى لجأ اليها البعض بقصد احداث ندرة فى الأوراق النقدية .. ومع أن افتراض استخدام خدع من هذا القبيل من الأمور التى تحتمل الشك ، الا أن الأقوال تتداولها الألسن فى كل مكان بحيث يستحق الأمر الاشارة اليه حقيقة ،،

(١) لكى يمكن بيان مدى ضآلة مقادير النقود الموجودة نقداً اللازمة لاجراء عمليات تجارية واسعة النطاق أذكر البيان التالى الذى أصدره أحد البيوت التجارية الكبرى بلندن (بيت موريسون ، ديلون وشركاهم)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حينما ينمو إنتاج السلع إلى درجة كافية فإن وظيفة النقود من حيث كونها وسيلة للدفع تنتشر إلى ماوراء مجال تداول السلع ، وتصبح النقود أساس العقود العام[1] ويصير الآن دفع الريع والضرائب الخ نقداً بدلا من دفعها عيناً . ويدل على عظم مدى توقف إمكانية هذا التحول على الطبيعة العامة لأحوال الإنتاج أن الامبراطورية الرومانية بذلت محاولتين لجباية الضرائب نقداً وأخفقت فى كلتيهما . ونعلم أن طبقة الفلاحين الفرنسيين فى عهد لويس الرابع عشر كانت تئن من الفقر الشديد مما أشار اليه بعبارات بليغة بواجلبرت ومرشال فوبان وسواهما . هذا

= بصدد المبالغ الواردة اليه والمدفوعة منه كل عام . ونجد فى البيان ذكر عمليات البيت المالية التى تبلغ عشرة ملايين من الجنيهات فى العام وقد خفضت الى مقياس المليون . وتجد الجدول وارداً فى Report From the Select Committee on the Bank Acts, July 1858 p. LXXI.

المبالغ التى حدث تسليمها		المبالغ المدفوعة	
جنيه		جنيه	
٥٣٣٬٥٩٦	كمبيالات المصرفيين والتجار المستحقة الدفع بعد التاريخ	٣٠٢٬٦٠٤	كمبيالات تدفع بعد التاريخ
٣٥٧٬٧١٥	شيكات على المصرفيين الخ تدفع عند الطلب	٦٦٣٬٦٧٢	شيكات على المصرفيين فى لندن
٩٬٦٢٧	الأوراق النقدية بالأقاليم	٢٢٬٧٤٣	أوراق نقدية صادرة من بنك انجلترا
٦٨٬٥٤	أوراق نقدية صادرة من بنك انجلترا	٩٬٠٢٧	ذهب
٢٨٬٠٨٩	ذهب	١٬٤٨٤	فضة ونحاس
١٬٤٨٦	فضة ونحاس		
٩٢٣	أذونات البريد		
١٬٠٠٠٬٠٠٠	المجموع الكلى	١٬٠٠٠٬٠٠٠	المجموع الكلى

(١) وإذ ينقلب سير التجارة من تبادل البضائع بالبضائع أو التسليم والتسلم ، الى بيع ودفع فان كافة العمليات تذكر حسب الثمن بالنقود ،

An Essay upon Public Credit. third edition, London, 1710, p. 8.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفقر لم يكن سببه فداحة الضرائب فحسب ، وانما كان مرجعه جبايتها نقداً لا عيناً[١] وفى آسيا من جهة أخرى حيث تدفع مختلف أنواع الريع عيناً وحيث المدفوعات العينية هى الجانب الأكبر من الضرائب ، تتوقف الظواهر على علاقات الانتاج التى تتكرر تبعاً لانتظام الظواهر الطبيعية . إن الدفع العينى أحد أسرار بقاء الإمبراطورية العثمانية . وإذا قدّر للتجارة الخارجية التى فرضتها الدول الكبرى الغربية على اليابان أن تؤدى إلى دفع ريع الأرض نقداً لا عيناً لا تنتهى نظام الزراعة النموذجى فى ذلك البلد إذ ستزول الظروف الاقتصادية المقيدة التى مارس فى ظلها الأهلون ذلك النظام .

وتجد فى كل بلد أياماً مخصوصة حددها العرف لإتمام التسويات ، ويرجع جانب من اختيار هذه الأيام إلى التغييرات الفصلية وهى الأحوال والشروط الطبيعية للانتاج . وإذ يتحدد موعد هذه الأيام فإنها كذلك تنظم المدفوعات التى لا تتصل مباشرة بتداول السلع كالضرائب والريع الخ . ومقدار النقود الذى يتطلبه إتمام المدفوعات المستحقة فى مثل هذه التواريخ فى كافة أنحاء البلد يؤدى إلى حدوث اضطرابات فترية — وإن كانت سطحية — فى اقتصاد وسائل الدفع [٢] ويترتب على القانون الخاص بسرعة دوران وسيلة الدفع أنه فيما يختص

---

(١) « أصبحت النقود نوعا من الجلاد العمومى » وفن المالى « البوتقة التى يتم فيها تسخين كمية هائلة من البضائع وتدميرها وذلك بقصد انتزاع هذا المتبقى المنذر بالشر » . وكذلك « تملق النقود الحرب على الجنس البشرى بأجمعه » .

Boisuillebert, Dissertation sur la nature des richesses, de l'argent et des tributs.

(طبعة ديير . باريس ١٨٤٣ ، المجلد الثانى ص ٤١٣ ، ٤١٧ ، ٤١٩) .

(٢) قال مستر كريج أمام لجنة مجلس العموم وذلك سنة ١٨٢٦ ما يأتى « فى عيد العنصرة سنة ١٨٢٤ اشتد طلب الأوراق النقدية على بنوك دنبره بحيث لم تبق فيها ورقة واحدة لما حلت الساعة الحادية عشرة . أرسلت البنوك الى كافة المصارف الأخرى بغية الاقتراض منها فلم استطع ذلك ولهذا سويت كثير من العمليات باعطاء قصاصات من الورق فقط ، ولكن لم تأت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى عادت جميع الأوراق النقدية الى المصارف التى كانت قد خرجت منها ! لقد كان ذلك مجرد نقل من يد الى أخرى » .

وبرغم أن متوسط الأوراق المتداولة فى اسكتلندا يبلغ أقل من ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه فعالباً ما يحدث فى بعض أيام دفع الأجور تداول جميع الأوراق التى فى حوزة المصرفيين ومبلغها ٧٠٠٠٠٠٠ جنيه . فى مثل هذه الأيام تقوم النقود بوظيفة واحدة مخصوصة فاذا ما تم أداؤها رجعت الى المصارف ثانية . انظر :

John Fullarton; Regulation of Currencies, London 1844, p. 85, note.

وعلى سبيل الايضاح أقول انه فى ذلك الوقت الذى كتب فيه فولارتن كانوا فى اسكتلندة يصدرون أوراماً نقدية لاشيكات مقابل الودائع .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بكافة المدفوعات الفترية مهما كانت طبيعتها يتناسب مبلغ وسائل الدفع تناسباً عكسياً مع طول الفترة المحدودة للدفع(١).

إن تطور النقود إلى وسيلة للدفع يجعل من الضرورى جمع النقود احتياطياً للحاجة التى تنشأ فى أيام التسويات . وبينما نجد أن الاختزان ، بصفته أسلوباً خاصاً من أساليب اجتناء الثروة ، يختفى بتقدم المجتمع البورجوازى ، فإن تكوين احتياطيات لإعداد وسائل الدفع يعظم مداه كلما زاد نمو ذلك المجتمع .

حـ — النقود العالمية Universal Money

عندما تخرج النقود من مجال التداول تنزع عن نفسها الأردية التى اتخذتها من حيث كونها مقياساً للثمن ، وعملة ، ورموزاً للقيمة ، ثم تعود إلى شكلها الأصلى وهو السبيكة . وفى التجارة القائمة بين أسواق العالم يعبر عن قيمة السلع بطريقة يقرها العالم أجمع . وعلى ذلك فالشكل النقدى للسلع يواجهها فى هذه الحالات أيضاً على هيئة نقود عالمية . وفى أسواق العالم فقط تكتسب النقود — إلى أعظم حد — صفة السلعة التى يكون شكلها الطبيعى الصورة الاجتماعية المباشرة التى يتجسم فيها العمل الإنسانى بصفته المجردة ، وينطبق أسلوب وجودها فى هذا المجال انطباقاً مناسباً ومتفقاً مع فكرتها التصورية .

ولا يوجد فى مجال التداول القومى (الداخلى) سوى سلعة واحدة تصلح مقياساً للقيمة وبذلك تؤدى وظيفة النقود ، ولكن فى السوق العالمية مقياسين للقيمة وهما الذهب والفضة(٢).

---

(١) اذا استدعى الحال جمع ٤٠ مليوناً فى السنة فهل الملايين الست (ذهباً) تكفى لما تتطلبه التجارة من أمثال هذه الدورات ومثل هذا التداول ؟ .. لو سألنا هذا السؤال لأجاب بيتى بطريقته البليغة العادية قائلا .. انى أجيب عن السؤال بنعم ، ذلك أنه اذا كانت النفقة ٤ مليوناً فى حالة قصر هذه الدورات كأن تكون أسبوعية كما يحدث بين فقراء أهل الحرف والعمال الذين يتسلمون أجورهم ويدفعون ماعليهم فى كل سبت ، اذن لكان فى جـ٤ جزءاً من المليون من النقود ما يحقق هذه الأغراض . ولكن اذا كانت هذه الدورات تقع كل ثلاثة شهور طبقاً لعادتنا فى دفع الريع وجباية الضرائب ففى هذه الحالة يتطلب الأمر عشرة ملايين . وبناء عليه اذا فرضنا ان المدفوعات تتم فى دائرة مختلطة تتراوح بين أسبوع وثلاثة عشر أسبوع فعليل اذن أن تضيف ١٠ ملايين الى جـ٤ فيكون نصف ذلك لـ ٥ بحيث اذا كان لدينا لـ ٥ ملايين لكان لدينا ما فيه الكفاية ..

Political Anatomy of Ireland, London, 1691 Appendix, Verbum sapienti, p.p. 13-14.

(٢) ومن هنا تبدو سخافة التشريع الذى يوجه المصارف القومية نحو تكوين احتياطيات من ذلك المعدن النفيس

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تقوم النقود بوظيفة أداة الدفع العالمية ، ووسيلة الشراء العالمية ، والصورة التى تتجسم فيها والتى يقرها العالم ، وتنحصر وظيفتها الرئيسية فى أنها أداة الدفع لتسوية الديون الدولية ومن هنا جاء شعار التجاريين عن « الميزان التجارى » (١) . ويصلح الذهب والفضة وسائل دولية للشراء وخاصة فى الأحوال التى يضطرب فيها التوازن العادى فى تبادل المنتجات بين الشعوب المختلفة ، وأخيراً فهى تؤدى وظيفة الصورة العالمية التى تتجسم فيها الثروة حينما لا تتعلق المسألة بالشراء أو البيع وإنما بنقل الثروة من بلد إلى آخر ، وحينما يتعذر هذا النقل على شكل سلع إما بسبب أزمات فى الأسواق أو بسبب طبيعة الغرض الذى يجب تحقيقه (٢) .

وكما أن كل دولة فى حاجة إلى احتياطى من النقود للتداول الداخلى فيها ، كذلك تحتاج إلى احتياطى مثله لأغراض التداول الخارجى فى أسواق العالم . وعلى ذلك فوظائف الاختزان

= وحده الذى يقوم بوظيفة النقود فى داخل الدولة ، وانا لنعرف جيداً تلك « الصعاب السارة » التى أوجدها بنك انجلترا لنفسه . راجع كارل ماركس (مصدر سبق الاشارة اليه ص ١٣٦ وما بعدها) لكى تعلم أهم الفترات فى تاريخ تغيير ات التى طرأت على القيم النسبية للذهب والفضة . وقد صرح سير روبرت بيل فى قانون البنك الصادر سنة ١٨٤٤ مصرحاً لبنك انجلترا أن يصدر أوراقاً مالية بضمان الفضة بشرط ألا يزيد الاحتياطى من الفضة عن ربع احتياطى الذهب ، وقد أراد من هذا التصريح مساعدة البنك على تخطى تلك الصعوبة التى وجد نفسه فيها ؛ وتقرر أن تؤخذ قيمة الفضة حسب ثمنها بالذهب فى سوق لندن .

(١) كان النظام التجارى عبارة عن النظام الذى ابتدعه أولئك الاقتصاديون الذين اعتبروا ان هدف التجارة الدولية ينحصر فى تسوية موازين التجارة الفضة بالذهب والفضة ، وقد اخفق خصومهم بدورهم اخفاقاً كاملا فى فهم وظيفة النقود العالمية وقد اوضحت فى موضع آخر بالتمثيل بريكاردو كيف أن الفكرة الباطلة عن القوانين التى تنظم كمية أداة التداول تنعكس فى فكرة خاطئة بالمثل عن الحركات الدولية للمعادن النفيسة . ويقول ريكاردو « ان الميزان التجارى غير الصالح لا ينشأ مطلقاً الا من تداول زائد عن الحاجة ... ان تصدير العملة النقدية سببه رخصها ، وهو السبب فى الميزان التجارى غير الصالح وليس نتيجة مترتبة عليه » ، هذا المذهب الخاطىء نجد مثيله لدى باربون الذى كتب يقول « ان الميزان التجارى — ان كان له وجود — ليس السبب فى اخراج النقود من البلد ولكنه نتيجة الاختلاف فى قيمة السبائك فى كل بلد » (باربون : مصدر سابق ص ٥٩ — ٦٠) وفى كتاب The Literature of Political Economy, A Classified Catalogue (لندن ١٨١٥) نجد أن McCulloch يمتدح باربون على هذا الرأى ولكنه على قدر كاف من الحذر والفطنة يسمح له بتجاهل بساطة الأشكال التى يزين بها باربون هذا الغرض السخيف الذى يرتكز عليه « مبدأ العملة » ، وكتاب مالك كولوخ المشار اليه لا يتصف بطابع النقد بل انه لا يتردى الأمانة ويبلغ الذروة من هاتين الناحيتين فى الأجزاء التى خصصها لتاريخ نظرية النقود ، والسبب فى ذلك أنه فى هذا الجزء يلعب دور المداهن للوبد أو فرستون حيث يدعوه « زعيم الماليين » .

(٢) قد تنشأ الحاجة الى القيمة بشكلها النقدى كى يمكن دفع الاعانات ، وتقديم القروض النقدية للمساعدة فى مواصلة الحروب ، ولتقديم الأموال التى تمكن المصارف من استئناف دفع المبالغ المطلوبة منها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

منشؤها فى وظيفة النقود كأداة للتداول والدفع فى الداخل، كما تنشأ عن وظيفتها كنقود عالمية(١) ولهذه الوظيفة الأخيرة لا بد من السلعة النقدية الصحيحة أى الذهب والفضة فعلا . وهذا هو السبب الذى من أجله يدعو سير جيمس ستيوارت الذهب والفضة « نقود العالم » وذلك بقصد تمييزهما عن البديل القومى .

إن مجرى الذهب والفضة مزدوج ، فهو من جهة ينتشر من مصادره إلى أسواق العالم كى تمتصه ميادين التداول القومية المختلفة . وكى يحل محل العملة الذهبية والفضية التى تعرضت للتآكل وليمد الناس بأدوات الترف ، وليتجمد على شكل كنوز مختزنة(٢) . وهذا المجرى الأصلى تبدأه الدول التى تستبدل عملها محققاً فى السلع بعمل ممثل فى المعادن النفيسة بواسطة البلاد التى تنتج الذهب والفضة . ومن جهة أخرى هناك اتجاه من ناحية إلى أخرى للذهب والفضة بين مختلف ميادين التداول القومية ، وهو تيار تتوقف حركته على التقلبات التى لا تنقطع فى مجرى التبادل الدولى (٣) .

وفى البلدان التى نما فيها الأسلوب البورجوازى فى الإنتاج تحدد الكنوز المتركزة فى حجرات المصارف بالحد الأدنى اللازم كى تؤدى هذه الوظائف الخاصة التى تضطلع بها.(٤) وحينما يحدث أن تكون هذه الكنوز فوق المستوى العادى بشكل واضح عد هذا دليلا على

---

(١) « لست فى حاجة حقاً الى دليل مصنع يشهد بكفاية آلة الاخبزان فى البلاد التى تدفع الذهب والفضة لتحقيق كل نواحى التسويات والضبط الدولية دون أية مساعدة ملموسة من التداول ، أكثر من الدليل الذى تقدمه السهولة التى تمكنت بها فرنسا — ولما تنهض بعد من صدمة الغزو الأجنبى المدمر — من أن تدفع فى ظرف سبع وعشرين عاما عشرين مليوناً فرضتها عليها قسراً الدول العظمى المتحالفة ومن هذا المبلغ نسمة كبيرة من الذهب وذلك دون أن تتعرض العملة الأهلية لأى قدر محسوس من النقص أو الاضطراب ، بل وبدون أى قلب مزعج فى بورصاتها »

Fullarton, op. cit., p. 134

(٢) توزع النقود بين الأمم بالنسبة الى حاجياتها المتباينة ..... نظراً لأن المشتريات تجتذبها دائما »

Le Trosne, op. cit,, p. 196

« ان المناجم التى تخرج الذهب والفضة باستمرار تنتج المقدار الكافى الذى تحتاجه كل أمة »

J. Vanderlint, op. cit., p. 40

(٣) « تعلو المبادلات وتهبط كل أسبوع ، وتصعد فى أوقات معينة من السنة ضد صالح الأمة ، بينما ترتفع كثيراً فى أوقات أخرى ويكون الارتفاع حينذاك فى صالحها » باربون (مصدر سابق ص ٣٩) .

(٤) تتعرض هذه الوظائف المتباينة الى أن يتصادم بعضها مع بعض حينما يكون على الذهب والفضة أيضاً أن يصير رصيدا يستخدم فى تحويل الأوراق النقدية .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ركود فى تداول السلع أى توقف فى نفس سير تحولاتها (١).

(١) أن مايزيد من النقود عن الحاجة المطلقة للتجارة المحلية رصيد ميت لايعود بربح على الدولة التى يحبس فيها. John Bellers : Essays, etc.p. 39 ص ١٢ ـ ,,وماذا يحدث اذا كان لدينا من العملة النقدية أكثر من القدر اللازم؟ اننا قد نذيب أثقلها وزنا ونحيلها الى أدوات بضيه وآنيه من الذهب والفضة ، أو نبعث بها فى الخارج كأنها سلعة حيث عليها نفس الطلب ، أو نؤجرها بمقابل فائدة حيث تكون الفائدة مرتفعة ،،

W. Petty : Quantu lumcunque, p. 39.

,, ليست النقود سوى الشحم فى الجهاز السياسى ، حيث كثير منه غالبا مايعرقل سرعة عمل الجهاز وقليل جداً يمنعه من الحركة ... فكما أن الشحم يلين حركة العضلات ، ويغذى الجسم اذا لم يتوافر الغذاء ، ويملأ الفجوات غير المستوية ، ويبعث على جمال الجسم ، فكذلك النقود فى الدولة تسرع من حركتها ، وتغذيها من الخارج فى أوقات الجدب الداخلى ، وتسوى الحسابات ... وتسبب جمال الكل — ولو أن ذلك ينصب بصفة خاصة على أولئك الذين يملكون الكثير منها ،، W. Petty : Political Anatomy of Ireland. ص ١٤ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب الثانى

تحول النقود إلى رأس مال

الفصل الرابع

تحول النقود إلى رأس مال

١ — الصيغة العامة لرأس المال

إن تداول السلع نقطة ابتداء رأس المـــال ، وأساسه التاريخى هو إنتاج السلع وذلك الشكل النامى من تداولها ويعرف باسم التجارة . ويبدأ التاريخ الحديث لرأس المال فى القرن السادس عشر مع قيام نظام تجارى عالمى وفتح السوق العالمية .

وإذا أغفلنا الجوهر المادى لتداول السلع ، وأغفلنا تبادل مختلف القيم الاستعمالية وقصرنا النظر على الأشكال الاقتصادية التى تولدها عملية التداول ، لألفينا أن نتيجتها النهائية عبارة عن النقود .

وهذا الناتج الأخير لتداول السلع أول شكل يظهر به رأس المال . ومن وجهة النظر للتاريخية ، يبدو رأس المال . بخلاف الثروة الزراعية ، على هيئة نقود أى يبدو كثروة نقدية أو رأس مال التاجر والمرابى (١) .

غير أنه لا حاجة بنا للبحث عن أصل ونشأة رأس المال كيما ندرك أن النقود هى الشكل الذى ظهر فيه ، لأن هذا التاريخ يتكرر كل يوم . وكل مجموعة من رأس المال تأتى إلى السوق (سوق السلع أو العمل أو النقود) على هيئة نقود لابد أن تتحول بطريقة محدودة معينة إلى

---

(١) أن التباين بين القوة المرتكزة على العلاقات الشخصية من السيادة والعبودية . وهى القوة التى تستغلها الزراعة من جهة ، وبين القوة غير الشخصية الناجمة عن ملكية النقود — نقول ان هذا التباين تجد أحسن التعبير عنه بمثلين فرنسيين يمكن ترجمتهما كالآتى ,, لا مال من أرض بدون سيد ،، ، ,, ليس للنقود سيد ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

رأس مال . والفارق الأول بين النقود من حيث كونها نقوداً ورأس مال ، ليس إلا الفارق بين شكلى تداولها .

وأبسط صورة لتداول السلع وهى (س ـ ن ـ س) عبارة عن تحويل السلع إلى نقود ثم تحويل الأخيرة إلى سلع من جديد وهذا هو البيع بقصد الشراء . وهناك صورة أخرى مختلفة من حيث الكيف وهى (ن ـ س ـ ن) ويقصد بها تحويل الأخيرة إلى نقود ، بمعنى أننا نشترى بقصد البيع . والنقود التى تتحول طبقا لهذه الطريقة الأخيرة تصبح رأس مال .

إذا أنعمنا النظر فى الدورة (ن ـ س ـ ن) رأينا أنها ، مثل الدورة البسيطة (س ـ ن ـ س) تمر خلال مظهرين متقابلين : (ن ـ س) أى الشراء وفيه تتغير النقود إلى سلع ، (س ـ ن) أى البيع وفيه تتحول السلع ثانية إلى نقود . واتحاد هذين المظهرين يكون حركة واحدة يرجع إليها الفضل فى مبادلة النقود بسلعة ثم إعادة مبادلة هذه السلع بنقود ـ أو إذا أغفلنا الفارق الشكلى بين الشراء والبيع لقلنا إن النقود تشترى السلع ثم بعد ذلك تشترى السلع النقود(١) ونتيجة هذه العملية كلها تبادل النقود بالنقود (ن ـ ن) فاذا اشتريت ٢٠٠٠ رطل من القطن بمائة جنيه وبعتها بمبلغ ١١٠ جنيه ، أكون فى الواقع قد استبدلت ١٠٠ ب ١١٠ .

ومن الجلى الآن أن الدورة (ن ـ س ـ ن) تصبح لا معنى لها إذا انتهت بعد هذا العناء الذى تجشمناه بأن يحل مبلغ من النقود مكان مبلغ آخر مساو له تماماً أى ١٠٠ جنيه مقابل ١٠٠ جنيه ، لأنه فى هذه الحالة تصبح طريقة البخيل أبسط وأضمن إذ أنه يحتفظ بالمائة جنيه التى لديه ولا يعرضها لأخطار التداول ، ومن جهة أخرى سواء كان التاجر الذى دفع ١٠٠ جنيه ثمناً لقطنه قد باعها بمبلغ ١١٠ أو ١٠٠ أو حتى بخمسين جنيهاً ، فإن نقوده مرت فى حركة مختلفة من حيث الكيف عن حركة تداول السلع البسيط كما لو كان الفلاح مثلا يبيع قمحاً ثم يشترى ملابس بما يحصل عليه من نقود . وغايتنا الأولى الآن أن ندرس الخواص التى تميز الدورتين (ن ـ س ـ ن) ، (س ـ ن ـ س)

ولنتساءل الآن عن النواحى المشتركة بينهما ، فهما يتحللان إلى المظهرين المتقابلين ، وفى كل من هذين يقف نفس العنصرين الماديين أى السلعة والنقود وجهاً لوجه ، وكذلك يقف شخصان هما البائع والمشترى كل منهما إزاء الآخر وقد ارتديا نفس القناع الاقتصادى فكل دورة إن هى إلا وحدة تجمع بين نفس المظهرين المتقابلين ، وفى كل حالة تتم هذه الوحدة عن

---

(١) يقول Mercier de la Riviére ,, بالنقود نشترى بضائع ، وبالبضائع نشترى نقوداً ،، فى كتابه L'Ordre naturel et essentiel des societés politiques ص ٥٤٣

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

طريق تدخل أطراف ثلاثة أحدهما بائع والثانى مشتر بينما الثالث بائع ومشتر .

ولكن الشيء الذى يمثل الدورتين (س ـ ن ـ س) ، (ن ـ س ـ ن) هو النظام العكسى لترتيب أو توالى المظهرين . فتداول السلع البسيط يبدأ ببيع وينتهى بشراء ، أما تداول النقد بصفتها رأس مال فيبدأ بشراء وينتهى ببيع . وفى الحالة الأولى تكون السلع هى البداية والهدف ، وتكون النقود فى الحالة الثانية نقطة الابتداء والغاية . وفى الشكل الأول تحدث الحركة عن طريق تداخل النقود ، وفى الثانية تحدث بواسطة السلعة .

وفى الدورة (س ـ ن ـ س) تتحول النقود فى النهاية إلى سلع تصلح قيما استعمالية ، بينما فى الدورة الأخرى (ن ـ س ـ ن) يعرض المشترى النقود حتى يستردها بصفته بائعاً . فهو فى حالة الشراء يلقى بالنقود فى التداول حتى يتسنى له سحبها منه ثانية حيث يبيع نفس السلعة وهو إذن لا يفرط فى نقوده إلا لغرض ما كر وهو استردادها ، وعلى ذلك فهو لا ينفق النقود وإنما يدفعها مقدماً[1].

وفى الشكل (س ـ ن ـ س) تغير نفس قطعة النقود مكانها مرتين ، فالبائع يحصل عليها من المشترى ثم يدفعها إلى بائع آخر . فالعملية كلها التى تبدأ بتسلم النقود مقابل السلع تنتهى بدفع النقود مقابل السلع . ولكنا نشاهد العكس فى الشكل (ن ـ س ـ ن) إذ السلعة لا قطعة النقود هى التى تغير مكانها مرتين فالمشترى يأخذها من البائع وينقلها إلى آخر . وكما أنه فى حالة تداول السلع البسيط يسبب التغيير المزدوج لمكان قطعة النقود مرورها من يد إلى أخرى

فكذلك تجد هنا أن التغيير المزدوج لمكان نفس السلعة يؤدى إلى عودتها إلى النقطة التى بدأت فيها . هذه العودة لا تتوقف على بيع السلعة بأكثر من ثمن شرائها إذ هذا لا يؤثر إلا فى كمية النقود التى تعوده فهذه العودة نفسها تحدث بمجرد أن يعاد بيع السلعة المشتراة ، وبعبارة أخرى بمجرد أن تتم الدورة (ن ـ س ـ ن) وبهذا نلمس فرقاً واضحاً بين تداول النقود بوصفها نقوداً ؛ فقط وتداولها بصفتها رأس مال . وتنتهى الدورة (س ـ ن ـ س) حالما تؤخذ منا النقود التى نحصل عليها من بيع سلعة ، وذلك حين نشترى سلعة أخرى . وإذا ترتب على هذا أن رجعت النقود إلى نقطة ابتدائها فلن يتم هذا الأمر إلا بتجديد العملية كلها . فإذا بعت ربعاً من القمح بثلاثة جنيهات واشتريت بهذا المبلغ ملابس ، تكون النقود من ناحيتى قد

---

(١) «حين يشترى شيء كى يباع ثانية ، فالمبلغ الذى استخدم هكذا يقال له نقود مدفوعة مقدما ؛ وحين يشترى الشيء لكيلا يباع يجب أن يقال أن المبلغ أنفق» : مؤلفات جون ستيوارت مل لناشرها الجنرال سير جيمس ستيوارت (انه) لندن ١٨٠١ ج ١ ص ٢٧٤ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أنفقت لأنها أصبحت ملكا لصاحب الملابس وهو الذى يعنيه شأنها . وإذا ما بعت ربعاً ثانياً عادت النقود إلىّ لأن هـذه العملية قد تكررت . وإذا أتممت العملية الثانية بشراء جديد خرجت النقود من يدى . وهكذا يتضح أنه فى (س ـ ن ـ س) لا علاقة بين إنفاق النقود وعودتها . ومن جهـــة أخرى تتوقف عودة النقود فى الدورة (ن ـ س ـ ن) على طريقة إنتاجها . وبغير هذه العودة تخفق العملية أو تتوقف ولا تكون كاملة نظراً لعـدم وجود مظهرها الختامى الذى يكملها ألا وهو البيع .

والدورة (س ـ ن ـ س) تبدأ بسلعة وتنتهى بأخرى تخرج من مجال التبادل وتدخل فى حيز الاستهلاك . فالاستهلاك أوقضاء الحاجات اوالقيمة الاستعمالية هو النهاية والغاية . ولكن الدورة (ن ـ س ـ ن) تبدأ وتنتهى بالنقود ، والقيمة التبادلية هى الدافع عليها . وفى تداول السلع البسيط نجد اطرفى الدورة شكلا اقتصادياً واحداً . فكلاهما سلعتان لهما حجم قيمة واحد وفى هذه الحالة نرى أن أساس الحركة هو تبادل المنتجات أى مختلف المواد التى يتمثل فيها عمل المجتمع . ويختلف الحال فى (ن ـ س ـ ن) التى تبدو لأول نظرة عديمة القيمة ، ففيها تجد لـكلا الطرفين نفس الشكل الاقتصادى ، وكلاهما نقود أى إنهما ليسا قيماً استعمالية مختلفة من حيث الكيف نظراً لأن النقود هى الشكل الذى تحولت إليه السلع أى الشكل الذى فقدت فيه قيمتها الاستعمالية المخصوصة . إن استبدال مائة جنيه بقطن ثم مبادلة الأخير بمائة جنيه مجرد طريقة ملتوية لاستبدال نقود بنقود ، الأمر الذى يحمل على الظن بأنها عملية سخيفة غير ذات غرض أو مغزى(١) .

والطريقة الوحيدة التى يمكن بهـــا تمييز مبلغ من النقود عن مبلغ آخر طريقة متعلقة بالحجم . وعلى ذلك فالعملية لاتعزو معناها إلى أى اختلاف كيفى Qualitative بين طرفيها

---

(١) يقول مرسيه دى لاريفيير فى معارضة حجج الاقتصاديين ,, اننا لانستبدل النقود بنقود ،، (نفس المصدر ص ٤٦٨) . وفى مؤلف يدل عنوانه على أنه يعالج ,, التجارة ،، و ,, المضاربة ،، نقرأ الآتى : ,, تنحصر التجارة كلها فى اجراء التبادل بين أشيا من أنواع مختلفة ، وتنشأ الميزة (النسبة الى التاجر) عن هذا الاختلاف فاستبدال رطل من الخبز برطل الحر من الخبز لاتترتب عليه أية ميزة ... ومن هنا تقارن التجارة بالمقامرة التى تنحصر فى مجرد تبادل نقود بنقود ،، .

Thomas Corbet : An Inquiry into the Causes and Modes of the Wealth of Individuals; or the Principles of Trade and Speculation explained, London 1841; p. 5

وبرغم أن كوربت يخفق فى أن يرى أن ، ن ـ ن ، أى مبادلة النقود بالنقود شكل يتميز به التداول لاى حالة =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إذ كلاهما نقود ، وإنما تعزو معناها إلى الاختلاف الكمى بين هذين الطرفين ، لأن النقود التى نسحبها من التداول فى ختام العملية أكبر قدراً من تلك التى نلقى بها فى التداول عند البداية ، فالقطن الذى يشترى بمبلغ ١٠٠ جنيه قد يباع بمبلغ قدره ١٠٠ + ١٠ أى ١١٠ من الجنيهات . وبهذا يكون الشكل الصحيح لهذه العملية هو (ن - س - ن') وفيه ن' = المبلغ المدفوع أصلا مضافاً إليه الزيادة . هذه الزيادة أدعوها « فائض القيمة » . إن القيمة المدفوعة فى الأصل تتعرض فى التداول لتغيير فى حجم قيمتها إذ تضيف إلى ذاتها فائض قيمة أو بعبارة أخرى إنها تتمدد وتنتشر . هذه الحركة هى التى تحولها إلى رأس مال .

وطبيعى أيضاً أنه من الممكن فى (س - ن - س) قيام الطرفين س ، س (كالقمح والملابس مثلا) بتمثيل حجمين مختلفين من القيمة . فقد يبيع الفلاح قمحه بأكثر من قيمته أو يشترى بما دون قيمته ، وقد يخدعه تاجر الملابس . غير أن هذه الفوارق عرضية بحتة فى هذا الشكل من التداول الذى نبحث أمره . فالعملية هنا لا تفقد معناها لأن طرفيها القمح والملابس معادلان أحدهما للاخر ، كما هو الحال فى العملية ن - س - ن التى تفقد معناها حينما تكون النقود فى البداية والنهاية متساوية فى مقدارها . والواقع أن تعادل القيم فى العملية (س - م - س) بالأخرى شرط لازم لكى تكون الدورة عادية غير شاذة .

وتكرار عملية البيع بقصد الشراء يظل فى داخل الحدود التى يرسمها هدف هذا التكرار ، ألا وهو الاستهلاك أى إشباع حاجات من نوع مخصوص . وهذا هدف خارج تماماً عن نطاق التداول . ولكن من جهة أخرى حين يشترى الشىء لنبيعه تكون بداية العملية ونهايتها واحدة أى النقود أو القيمة التبادلية . ولو لم تكن لهذا السبب وحده لكانت الحركة لا نهاية لها . لاشك أن (ن) تصبح ن + حـ ن أى أن ١٠٠ جنيه تصير ١١٠ من الجنيهات . ولكن لو نظرنا إلى الأمر من ناحية مظهره الكيفى البحت لوجدنا أن ١١٠ هى نفس ١٠٠ وهى

= رأس مال التاجر فقط بل فى حالة رأس المال كله الا أنه على كل حال يعترف بأن هذا الشكل مشترك بالنسبة الى المقامرة والمضاربة . وهنا يظهر Mc Cullach ويحدثنا أن الشراء بقصد البيع مضاربة ، وبهذا يختفى الفارق بين الاتجار والمضاربة « ان كل عملية يشترى فيها الفرد منتجا لكى يبيعه ثانية . هى فى الواقع مضاربة » .

A Dictionary Practical of Commerce لندن ١٨٤٧ ص ٥٨ - ١٠ . وبقدر أكثر من البساطة يلاحظ بنتو وهو شاعر بورصة الأوراق المالية بأمستردام « التجارة لعبة حظ » . (هذه العبارة مقتبسة من لوك) ولن نكسب شيئا اذا كان الذين نلعب ضدهم من المتداولين . وحتى اذا ربحنا فى الأجل الطويل ، فسنضطر مع هذا الى التنازل عن الجانب الأكبر من ربحنا ان شئنا ابتداء اللعب من جديد »

Traite de la circulation et du credit. امستردام سنة ١٧٧١ ص ٢٣١ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

النقود . وفضلا عن هذا لو نظرنا إلى المسألة من وجهة الكم فإن ١١٠ جنيه شأنها كشأن المائة جنيه ، مقدار محدود من القيمة . فإذا أنفقت ١١٠ جنيه كنقود بطل عملها ولم تعد رأس مال ، إذ بمجرد سحبها من التداول تصبح اختزاناً ولا تزيد فلساً حتى ولو ظلت موضع الاختزان إلى يوم الدين . وعلى ذلك إذا كان الغرض تمدد القيمة فهناك نفس الإغراء لزيادة قيمة الجنيهات الـ ١١٠ كقيمة المائة جنيه لأنهما تعبيران محدودان للقيمة التبادلية ، الأمر الذى يجعل لكليهما مهمة الاقتراب بقدر الإمكان من الثروة المطلقة وذلك بواسطة امتداد الحجم . ويبدو بمجرد النظر أن القيمة التى دفعت فى الأصل وهى مبلغ المائة جنيه متميزة عن فائض القيمة وقدره ١٠ جنيهات والذى أضيف أثناء التداول . ولكن سرعان ما يختفى هذ الفارق إذ فى نهاية العملية لا نتسلم المائة جنيه الأصلية بيد والعشرة جنيهات أى فائض القيمة باليد الأخرى ، بل كل ما يحدث هو أننا نحصل على ١١٠ جنيه وهى صالحة لبدء عملية الامتداد للمائة الأصلية . فالنقود تنهى العملية لكى تبدأها من جديد[١] ، وعلى ذلك فالنتيجة النهائية لكل دورة منفصلة تكون من تلقاء ذاتها نقطة الابتداء فى دورة أخرى . وعلى ذلك فالتداول البسيط للسلع . أى البيع بقصد الشراء . وسيلة لتحقيق غرض لا اتصال بينه وبين التداول وهو امتلاك القيم الاستعمالية أو قضاء الحاجات . وعلى النقيض من ذلك فتداول النقود غاية فى ذاته لأن تمدد القيمة لا يحدث إلا فى داخل نطاق هذه الحركة المتجددة على الدوام . ولهذا لا تكون لتداول رأس المال حدود[٢] .

---

(١) ينقسم رأس المال ... إلى رأس مال أصلى وربح والأخير هو زيادة رأس المال ... ولو أن هذا الربح من الناحية العملية يتحول مباشرة وفى الحال إلى رأس مال ويتحرك مع الأصل ،،

F. Engels : Umrisse zu einer Kritik der Nationaloekonomie

فى مجلة «Deutsch-Französische Jarbücher» والتى رأس تحريرها أرنولد روج وكارل ماركس ، باريس ١٨٤٤ ص ٩٩ .

(٢) يفرق أرسطو بين ,, الاقتصاد ،، وعلم تكوين الثروة ،، ، فالأول من حيث أنه فن كسب العيش ينحصر فى الحصول على الأشياء اللازمة للبقاء والتى فيها نفع للأسرة أو الدولة . وإليك ما يقوله ,, تتكون الثروة الحقيقية من أمثال هذه القيم الاستعمالية لأن كمية الممتلكات التى من هذا النوع والتى تجعل الحياة بهجة ، غير محدودة . وهناك طريقة أخرى للحصول على الأشياء ، ومن الحق والصالح أن تطلق اسم chrematistics وفى مجال هذا الأخير ليس من حد للثروة والممتلكات . إن التجارة لا تنتمى من حيث طبيعتها الى هذا العلم لأن التبادل هنا خاص فقط بالأشياء الضرورية للمشترى والبائع ،، يقصد أرسطو من كلمة التجارة ,, تجارة التجزئة ،، وهو يستعمل هذه الكلمة لأن القيم الاستعمالية تسود فى تجارة التجزئة . بعد ذلك أخذ أرسطو يوضح كيف كانت المقايضة الشكل الأصلى من التجارة ، فلما اتسع نطاق المقايضة نشأت النقود بالضرورة فبكشف النقود تحولت المقايضة الى تجارة — وهى بخلاف الميل الأصلى —

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وصاحب النقود الذى يمثل هذه الحركة ، يصبح رأسمالياً ويصير شخصه أوجيبه النقطة التى تبدأ منها النقود . والغرض الموضوعى أى تمدد القيمة هو هدفه الذاتى وأساس الدورة (ن ـ س ـ ن) . وهذا الشخص يقوم بوظيفة صاحب رأس المال أى رأس المال مجسما فى شخص له شعور وإرادة . وعلى ذلك ينبغى ألا ننظر إلى الرأسمالى على أن هدفه الحقيقى القيمة الاستعمالية (١) أو الحصول على ربح من عملية واحدة ، لأن مايهدف إليه فعلا عملية لاتنتهى غايتها تحقيق الربح (٢) ويشترك الرأسمالى والبخيل فى الجرى غير المحدود وراء الإثراء المطلق ، وبالنهم الشديد وراء القيمة . ولكن بينما البخيل رأسمالى فقد صوابه فالرأسمالى بخيل عاد إلى صوابه . والبخيل فى سعيه الدائم نحو زيادة القيمة التبادلية ينقذ نقوده من التبادل (٣) ، أما زميله الأصدق نظراً فيحقق هذه الغاية بمواصلة إلقاء النقود فى مجال التداول (٤) .

والأشكال النقدية التى تتخذها قيمة السلع فى عملية التداول البسيط لها فائدتها فى إتمام تبادل السلع ثم تختفى فى النتيجة النهائية للحركة . أما فى الدورة (ن ـ س ـ ن) فالسلعة والنقود تمثلان وسيلتين مختلفتين لوجود القيمة ، وتكون فيهما النقود عبارة عن طريقة

= تحولت الى تكوين الثروة . ويتميز علم تكوين الثروة عن علم الاقتصاد من حيث ,, انه فيما يختص بالأول يكون التداول مصدر الثروة ، ويبدو ان تكوين الثروة يتوقف على النقود لأنها البداية فى هذا النوع من التبادل ، الغاية فيها وعلى ذلك فالثروة ، كما يحاول علم تكوين الثروة الحصول عليها غير محدودة وكما ان كل فن لا يكون وسيلة لغاية بلغاية فى حد ذاته غير مقيد من حيث هدفه لأنه يحاول دواماً الاقتراب من هذا الهدف ، بينما الأعمال التى تكون وسيلة لغاية لأن الهدف نفسه يفرض عليها حدوداً — نقول نه لهذه العوامل لا تجد لعلم تكوين الثروة حداً للهدف منها نظراً لأن هذا الهدف هو الإثراء المطلق . ان للاقتصاد حدوداً بعكس تكوين الثروة ... ويهدف الأول إلى شىء مختلف عن النقود بينما يعمل الثانى على ازدياد النقود ... وبسبب الخلط بين هذين الشكلين المتداخلين نظراً البعض الى الاحتفاظ بالنقود وزيادتها كأنهما الغاية النهائية من علم الاقتصاد Aristotle: De Republica, lib. 1, caps. 8 and 9, passim.

(١) ,, ليست السلع (ويحسن ان نقرأها القيم الاستعمالية) الهدف الأخير الذى يضعه نصب عينه الرأسمالى المتاجر ... إن النقود الغاية التى يسعى اليها Thowas Chalmers: On Politieal Economy etc, Second edition, London 1832, p. 166.

(٢) يعبأ التاجر قليلا او لايهتم مطلقاً بما حقق من ربح لأن غرضه الحصول على ربح آخر A. Genovesi, Lezioni di economia civile, 1765, Custodi's edition, modern section, vol VIII, p. 136,

(٣) كلمة ,,وينقذ،، بمعناها المزدوج لها مقابل مضبوط فى اليونانية

(٤) ,,هذه الغاية التى لاتمتلكها الأشياء حين تتحرك مباشرة نحو الأمام، تملكها حين تدور إلى الوراء،، جالياني

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وجودها العامة بينما تمثل السلعة الوسيلة الخاصة (أو المستترة إن شئنا القول [١] ؟) . فقيمة السلع تغير شكلها على الدوام دون أن تضيع خلال هذا الانتقال من شكل إلى آخر ، وبهذا تكتسب صيغة فعالة بطريقة آلية . وإذا أخذنا كلا من الشكلين المختلفين اللذين تتخذهما القيمة المتمددة بذاتها واحداً بعد الآخر خلال حياتها ، لوصلنا إلى الغرضين التاليين وهما : « رأس المال هو النقود » ورأس المال هو السلع [٢] . وفى الحقيقة فان القيمة هنا ، بينما تتخذ على الدوام شكل نقود وشكل سلع الواحد بعد الآخر ، فانها العامل الفعال فى عملية تتغير خلالها وفى نفس الوقت من حيث الحجم ، وتولد فائض القيمة بحيث أن القيمة تتمدد بطريقة تلقائية ، ذلك لأن الحركة التى تضيف القيمة خلالها فائضاً إلى ذاتها هى حركتها نفسها وتمددها الذاتى . ونظراً لكونها قيمة تكون قد اكتسبت الصفة الخفية التى تمكنها من إضافة القيمة إلى ذاتها . فهى تلد نسلا حياً أو على الأقل تصبح بيضاً ذهبياً .

فالقيمة إذن لكونها العامل الفعال فى مثل هذه العملية (أى تتخذ مرة شكل نقود وأخرى شكل سلع برغم محافظتها على ذاتها وتمددها خلال هذه التغيرات) تتطلب شكلا مستقلا قائماً بذاته تستطيع بواسطته أن تثبت شخصيتها ، وهى لاتتخذ هذا الشكل إلا على هيئة نقود . فعلى هيئة النقود تبدأ القيمة وتنتهى ثم تبدأ من جديد . لقد بدأت بأنها ١٠٠ جنيه وهى الآن ١١٠ وهكذا ، ولكن النقود نفسها لا تزيد عن كونها أحد شكلى القيمة . فإذا لم تتخذ شكل سلعة ما فلن تصبح رأس مال . وليس هنا تناقض بين النقود والسلع كما فى حالة الاختزان ، فالرأسمالى يعلم أن كافة السلع هى فى الحقيقة نقود ووسيلة عجيبة تتيح له المجال كى يحصل من النقود على مقدار أكبر منها .

فى التداول البسيط (س ـ ن ـ س) لا تكتسب قيمة السلع أكثر من شكل مستقل عن قيمها الاستعمالية أى الشكل النقدى ، ولكن نفس تلك القيمة تبدو لنا فجأة فى التداول (ن ـ س ـ ن) أى تداول رأس المال كمادة ذات حركة ذاتية مستقلة ، وكمادة لا تكون فيها النقود والسلع إلا مجرد أشكال تتخذها أو تطرحها بالدور . وأكثر من هذا فبدلا من أن تمثل علاقات سلع فإنها تدخل (إذا صح القول) فى علاقة خاصة بالنسبة الى ذاتها . فتميز نفسها كقيمة أصلية

---

(١) ليس الجوهر المادى هو الذى يكون رأس المال ، وإنما قيمة الجوهر المادى هى التى تفعل ذلك . B. Say : Traité de l'economie politique الطبعة الثالثة باريس ١٨١٧ ـ ١ ص ٤٢٨

(٢) « العملة (١) المستخدمة فى إنتاج السلع ... رأس مال » Mac Leod. : Theory and Practice of Banking, London, 1855, vol. 1, chap, 1, p. 55. رأس المال سلع James Mill, Elements of Political Economy. لندن ١٨١٠ ص ٧٤

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عن ذاتها كفائض قيمة ، لأن المبلغ المدفوع فى الأصل وهو ١٠٠ جنيه يصبح رأس مال فقط بواسطة فائض القيمة وقدره ١٠ جنيهات ، وبمجرد أن يحدث هذا يزول الفارق ويصبحان شيئاً واحداً وهو ١١٠ جنيه .

وعلى ذلك تصبح القيمة قيمة فى عملية ونقوداً فى أخرى وعلى هذا النحو تصير رأس مال . فهى تخرج من نطاق التداول ثم تعود إليه ، وتحفظ ذاتها وتتضاعف داخل نطاق دورتها وتخرج منها وقد تمدد حجمها وتبدأ الدورة من جديد دائماً [1] ؛ (ن ـ ن) المال الذى يخلق المال ، هذا هو الوصف الذى أطلقه التجاريون على رأس المال .

إن الشراء بقصد البيع بسعر أكبر وهو ما نمثله بالصيغة ن ـ س ـ ن يبدو فى الحقيقة شكلا خاصاً بنوع واحد من رأس المال ، وهو رأس المال التجارى . ولكن رأس المال الصناعى أيضاً نقود تتحول إلى سلع ، وببيعها تتحول ثانية إلى نقود أكثر قدراً . والعمليات التى تقع خارج نطاق التداول ، فى الفترة ما بين الشراء والبيع ، لا تؤثر فى شكل هذه الحركة . وأخيراً ففى رأس المال الذى يدر فائدة يختصر التداول (ن ـ س ـ ن) لأنه يتمثل لنا نتيجة أمكن تحقيقها بدون دور وسيط يتمثل لنا فى الصيغة (ن ـ ن) أى نقود مساوية لنقود أكثر منها أو قيمة أكبر من ذاتها .

وعلى ذلك فى الواقع نجد أن ن ـ س ـ ن هى الصيغة العامة لرأس المال كما يبدو فى نطاق التداول .

(٢) مناقضات فى الصيغة العامة لرأس المال

إن الشكل الذى يتخذه التداول حين تتحول النقود إلى رأس مال يناقض كافة القوانين التى بحثناها بخصوص طبيعة السلعة والقيمة والنقود بل والتداول ذاته . والشىء الذى يميز هذا الشكل عن التداول البسيط للسلع هو الوضع العكسى لتوالى هاتين العمليتين المتقابلتين وهما البيع والشراء . فكيف يتسنى لهذا التميز الشكلى البحت أن يغير طبيعة هاتين العمليتين كما لو أن هذا قد تم بطريق السحر؟

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد إذ ليس لهذا الوضع المعكوس أو هذا القلب من وجود إلا بالنسبة إلى أحد الأشخاص الثلاثة الذين يتعاملون فيما بينهم . فيصفق رأسمالياً

---

(١) « رأس المال ... جزء مثمر من الثروة المتراكمة . . . قيمة دائمة تضاعف ذاتها » Sismondi, Nouveaux principes de l'économie politique, vol. 1. pp. 88—89.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أشترى السلع من ا وأبيعها إلى ب ، ولكن بصفتى صاحب سلع بسيط أبيعها إلى ب ثم اشترى سواها من ا ، وكل من ا ، ب لا يرى أى فرق فى العمليتين فهما يبدوان بائعين أو مشتريين لاغير ، وينحصر موقفى منهما فى أى الحالين فى أنى صاحب نقود أوصاحب سلع ، أو بائع أو مشترواً كثر من هذا ففى كلتا العمليتين أواجه (ا) بصفتى مشترياً ، (ب) بصفتى بائعاً ، وأبدو بالنسبة للأول كنقود وأظهر للثانى كسلع ، ولست أواجههما كرأسمال أو كرأسمالى أو ممثل لشىء خلاف النقود أو السلع ، أو شىء له تأثير يخالف ماتحدثه النقود أو السلع . وبالنسبة إلىّ يبدو الشراء من (ا) والبيع إلى (ب) جزئين من سلسلة ، ولكن العلاقة بين العملين لاجود لها إلا فيما يتعلق بى فقط . وكل من (ا ، ب) لايهتم بما يجرى بينى وبين الآخر . وإذا ماحاولت أن أوضح لهما الخدمة التى أؤديها من حيث قلب الترتيب لاعتبرونى مخطئاً وقالوا إن العملية كلها بدلا من أن تبدأ بشراء وتنتهى ببيع بدأت بالبيع وانتهت بالشراء . وحقيقة يعد عملى الأول وهو الشراء بيعاً من وجهة نظر (ا) بينما البيع يعتبره (ب) شراء ، بل إن (ا ، ب) لايكتفيان بهذا بل يصرحان أن السلسلة كلها غيرذات معنى وأنه فى المستقبل سيشترى ا من ب وسيبيع ب الى ا مباشرة . وبذا ترد العملية كلها إلى عمل واحد ينتمى إلى ميدان التداول العادى للسلع ، فهو لايعدو كونه بيعاً فى نظر (ا) وشراء من وجهة نظر (ب) . وعلى ذلك فقلب الترتيب لايخرجنا عن مجال تداول السلع البسيط ، وينبغى بالأحرى أن نبحث لنرى إن كان فى هذا التداول البسيط مايسمح بتمدد القيمة التى تدخل فى التداول ، وبالتالى مايسمح بخلق فائض القيمة .

لنبحث عملية تداول تبدو كمجرد تبادل للسلع ، وهذا هو الشأن دائماً عند مايشترى مالكا سلع كل منهما من الآخر ، وعندما تتساوى فى يوم تصفية الحساب المبالغ المستحقة لكل منهما ويلغى بعضها بعضا . فالنقود فى هذه الحالة أداة محاسبة وتصلح للتعبير عن قيمة السلع بواسطة أثمانها ، ولكن النقود لا تواجه السلع على أنها عملة .

وفيما يختص بالقيم الاستعمالية فمن الواضح أن الطرفين قد يكسبان إذ يستغنيان عن بضائع بوصف كونها قيماً استعمالية لاتفيدهما ، ويأخذان أخرى يستطيعان الاستفادة منها ، وقد يكون فى هذا أيضا كسب آخر ، فإن (ا) الذى يبيع النبيذ ويشترى القمح ربما ينتج نبيذاً بقدر معلوم من وقت العمل أكثر مما ينتج الفلاح (ب) . ومن جهة أخرى قد ينتج (ب) قمحا أكثر مما يستطيعه منتج النبيذ . وعلى ذلك قد يحصل (ا) مقابل نفس القيمة التبادلية على قمح أكثر ، كما سيحصل (ب) على نبيذ أكثر مما يستطيع أيهما الحصول عليه بدون أى تبادل إذا أنتج كل منهما قمحه ونبيذه . وبناء على هذا فمن حيث القيمة الاستعمالية قد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يكون هناك أساس للقول بأن « التبادل عملية يكسب بها الطرفان[١] » . ولكن الحال خلاف ذلك بالنسبة للقيمة التبادلية . « إذا تعامل رجل يملك مقداراً من النبيذ وليس لديه قمح مع رجل لديه قمح كثير دون النبيذ ، حدث بينهما تبادل فى القمح بقيمة ٥٠ مع النبيذ بنفس القيمة . وهذا العمل لايترتب عليه أى زيادة فى القيمة التبادلية لأيهما لأن كلا منهما كان يملك قبل التبادل قيمة مساوية لتلك التى حصل عليها بواسطة هذه العملية » [٢] ولا تتغير النتيجة بإدخال النقود كأداة للتداول بين السلع بحيث يصبح البيع والشراء عملين كل منهما متميز عن الآخر [٣]. إن قيمة السلع يعبر عنها فى أثمان السلع قبل أن تذهب الأخيرة إلى السوق ، فالقيمة فرض سابق لحدوث التداول وليست نتيجة له [٤] .

وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة النظر المجردة أى بغض النظر عن الظروف التى لا تنشأ مباشرة من قوانين التداول البسيط للسلع فإنه فى أى تبادل لايوجد سوى تحول أى مجرد تغيير فى شكل السلعة (وذلك إذا استثنينا إحـــلال قيمة استعمالية مكان أخرى) . ونفس القيمة وبعبارة أخرى نفس كمية العمل الإجتماعى ، تظل فى أيدى مالك الســلعة أولا على هيئة سلعة وثانيا على هيئة نقود تتحول إليها السلعة ، وأخيراً على هيئة السلعة التى تحولت إليها النقود . وهذا التغير فى الشكل لاينطوى على أى تغيير فى حجم القيمة . ولكن التغيير الذى يصيب قيمة السلعة مقصور على التغيير فى الشكل النقدى الذى يعبر عنها . وهذا الشكل يوجد أولا كثمن السلعة المعروضة للبيع ، ثم كمبلغ فعلى من النقود ، وأخيراً كثمن السلعة المعادلة . وهذا التغيير فى الشكل إذا أخـــذناه بمفرده لا يدل كذلك على تغيير فى كمية القيمة أكثر مما يدل تغيير ورقة نقدية من فئة الخمسة جنيهات إلى جنيهات ذهبية أو أنصافها أو شلنات . وعلى ذلك مادام تداول السلع يحدث تغييرات فى شكل قيمتها فقط وخاليا من التأثير الداعى إلى الاضطراب فينبغى أن يكون تبادلا بين المعادلات . ونتيجة لهذا فإن الاقتصاديين بسبب قلة فهمهم ماهية القيمة يفترضون دائماً ، حين يرغبون نظر الظاهرة بدون نواحيها المعقدة ،

---

(١) Destutt de Tracy, Traitè de le volonté et de ses effets. Traite de l'economie politique باريس ١٨٢٦ ص ٦٨ ، وقد اعيد إصدار هذا الكتاب باسم

(٢) Mercier de la Rivière, op. cit., p. 544.

(٣) « لايهم مطلقاً أن كانت احدى هاتين القيمتين نقوداً او كانت كلتاهما بضاعة عادية » .
Mercier de la Riviére op. cit., p. 543.

(٤) « ليس الطرفان المتعاقدان هما اللذان يعينان القيمة ، لأن هذه تتقرر قبل ان يجرى التبادل » .
Le Trosne, op. cit., p. 906.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أن العرض والطلب متساويان ومعنى هذا أن ليس لهما تأثير. وعلى ذلك إذا كان المشترى والبائع يكسبان شيئاً فى حالة مبادلة القيم الاستعمالية فليس هذا هو الحال فيما يتعلق بالقيم التبادلية. وهنا يتعين أن نقول « إذا توفرت المساواة انعدم الكسب »(١). حقيقة قد تباع السلع بأثمان تحيد عن قيمتها، ولكن هذه الاختلافات خروج عن قوانين تبادل السلع(٢) الذى هو فى حالته العادية عبارة عن تبادل المعادلات وبذا لا يكون وسيلة لزيادة القيمة (٣).

بهذا نرى أنه خلف كافة المحاولات التى يراد بها تمثيل تداول السلع على أنه مصدر فائض القيمة يكمن كذلك مزيج من القيمة التبادلية. فمثلا يقول كوندياك « ليس من الصحيح أننا فى حالة مبادلة السلع نعطى قيمة أقل مقابل قيمة أكبر. إذا كنا فعلا نستبدل قيماً متساوية فلن يحقق أى من الجانبين ربحاً. ومع ذلك كلاهما يربح. لماذا ؟ إن قيمة الشىء تنحصر فقط فى علاقتها بحاجاتنا. فما هو أكثر بالنسبة لواحد أقل بالنسبة لآخر والعكس.. ولا يجب افتراض أننا نعرض للبيع سلعاً نحتاجها لاستهلاكنا.. إننا نبغى التخلص من شىء غير نافع كى نحصل على آخر نحن فى حاجة إليه، أى نريد أن نعطى القليل مقابل الكثير.. لقد كان من الطبيعى أن يُظن أنه فى التبادل تعطى قيمة مقابل قيمة حينما تكون كل من السلعتين المتبادلتين ذات قيمة متساوية مع نفس الكمية من الذهب. ولكن هناك أمراً لا بد من أن ندخله فى حسابنا. إن المهم هو هل كلانا يتبادل شيئا فائضاً مقابل شىء ضرورى »(٤) ونرى فى هذه القطعة التى اقتبسناها كيف يخلط كوندياك بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، وكيف أنه بطريقة تافهة يفترض أنه فى مجتمع تما فيه إنتاج

---

(١) Galiani, Della moneta, Custodi's edition, moderm section, vol IV p. 244.

(٢) ,,قد لايكون فى صالح احدالطرفين حين تعمل ظروف خارجية على خفض او رفع الثمن، وحينئذ يحدث اعتداء على المساواة ولكن هذا الاعتداء نتيجة السبب المشار اليه وليس نتيجة التبادل ،،

Le Trosne, op. cit., p. 904,

(٣) ,, ان التبادل من حيث طبيعته الأساسية عقد على اساس شروط متساوية فيه يجرى التبادل بين قيمة واخرى مساوية لها. ونتيجة لهذا فهو ليس وسيلة يمكن ان يغتنى بها شخص مادام مايعطيه يساوى ما يأخذه ، شرحه ص ٩٠٣ .

(٤) Le Commerce et le gouvernement, 1776, Daire's and Molinari's edition in Mélanges d'economie politique باريس ١٨١٧ ص ٢٦٧ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

السلع ينتج كل منتج وسائل عيشه ويعرض فى التداول مايزيد عن حاجته (١) . ومع ذلك لايزال الاقتصاديون الحديثون يستخدمون حجة كوندياك وبخاصة عندما يريدون أن يوضحوا أن التجارة أى الشكل الراقى من تداول السلع هى التى تنتج فائض القيمة . فمثلا يقال « التجارة تضيف قيمة إلى المنتجات لأن نفس المنتجات فى أيدى المستهلكين تساوى أكثر منها فى أيدى المنتجين ، ويجوز أن نعتبرها عملا منتجاً.(٢)» . ولكن السلع لايدفع ثمنها مرتين . الأولى على أنها قيمة استعمالية ، والثانية باعتبار قيمتها . وبرغم أن القيمة الاستعمالية للسلعة أكثر نفعاً للمشترى فإن شكلها النقدى أكثر نفعاً للبائع . ولو كان الأمر خلاف ذلك فلماذا يبيعها ؟ وإذن يجوز أن نعد المشترى قائماً بعمل من الإنتاج حين يحول الجوارب مثلا إلى نقود .

إذا جرى التبادل بين السلع بصفتها معادلات ، أو إذا جرى التبادل بين سلع ونقود لها نفس القيمة التبادلية ، فمن الواضح أن القيمة التى نسحبها من التداول تزيد عما نطرحه منها فى ميدانه . وإذن ليس هناك خلق لفائض القيمة . وتداول السلع فى شكله العادى يتطلب تبادل المعادلات ، ولكن نلاحظ من الناحية العملية الواقعية أن العملية لاتحتفظ بشكلها العادى وعلى ذلك لنفرض إمكان وجود تبادل بين غير المتعادلات .

على أية حال لايزتاد سوق السلع سوى أصحاب الأخيرة ، وسلطان هؤلاء بعضهم على بعض هو السلطان الذى لسلعهم . والاختلاف المادى بين هذه السلع هو الحافز على التبادل ويجعل المشترين والبائعين يعتمد بعضهم على بعض إذ ليس لدى أحدهم الشىء الذى يقضى حاجاته ، وكل منهم يملك مايشبع حاجة الآخر . وإلى جانب هذه الإختلافات المادية فى قيمها الإستعمالية يوجد فرق واحد آخر بين السلع وهو الفرق بين شكلها الطبيعى والشكل الذى تتحول إليه نتيجة البيع ، أى الفرق بين السلع والنقود . ونتيجة لهذا يتميز أصحاب السلع كبائعين أى الذين

---

(١) يجيب لوتر ن صديقه كوندياك إجابة سديدة حين يقول ، فى المجتمع الذى لا وجود لهذه الوفرة الزائدة عن الحد ، ولكنه يلاحظ فى الوقت ذاته ، إذا كان الطرفان فى عملية التبادل يتسلمان فى نفس الوقت مقداراً أكبر مقابل مقدار اقل فان كليهما يأخذان مقدارين متساويين ، ولما كان كوندياك لم تكن لديه ادنى فكرة عن طبيعة القيمة التبادلية لذا استشهد به وهلم روشر لتأييد آرائه الخاطئة . انظر : —

Roscher, Die Grundlagen der Nationaloekoneruie. third edition, 1858.

(٢) S. P. Newman: Elements of Political Economy Andover and New York, 1835 p. 175.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يملكون السلع ، ومشترين أى الذين يملكون النقود .

ولنفرض أنه لسبب غير مفهوم استطاع البائع أن يبيع سلعته بأكثر من قيمتها أى باع ما يساوى ١٠٠ جنيه بما مبلغه ١١٠ جنيه . فى هذه الحالة يرتفع الثمن إسمياً بمقدار ١٠ ٪ وبذا يضع البائع فى جيبه فائض قيمة قدره ١٠ ، ولكنه بعد البيع يصير مشترياً ويأتى إليه ثالث من أصحاب السلع كبائع ويبيع إليه بزيادة قدرها ١٠ ٪ . فصاحبنا قد كسب ١٠ كبائع وخسرها ثانية كمشتر(١). وتكون النتيجة الخالصة أن أصحاب السلع يبيعونها بعضهم إلى بعض بأكثر من قيمتها بمقدار ١٠ ٪ ، وهذا شبيه تماماً بما لو أنهم باعوا سلعهم بقيمها الحقيقية . ومثل هذا الإرتفاع الاسمى العام فى الأثمان له نفس الأثر كما لو كانت القيم مثلا قد عبرنا عنها بالفضة بدلا من الذهب . فالأسماء النقدية أى أثمان السلع ترتفع ولكن النسبة بين القيم المختلفة لا تتأثر .

لنفرض العكس وهو أن المشترى يشترى السلع بأقل من قيمتها . فى هذه الحالة ليس من الضرورى أن نذكر أنه سيصبح بدوره بائعاً فقد كان كذلك قبل أن يصبح شارياً ، وهو كبائع خسر ١٠ ٪ قبل أن يكسب ١٠ ٪ كمشتر(٢). فكل شىء يبقى كما كان تماماً .

إن تكوين فائض القيمة وبالتالى تحويل النقود إلى رأس مال لا يمكن تفسيره بأن نفرض أن السلع تباع بأعلى أو تشترى بأقل من قيمتها (٣). ولا تسهل المشكلة بإدخال مسائل تافهة كما يفعل الكولونيل تورنس حيث يقول « إن الطلب الفعال ينحصر فى القدرة والميل (!) من جانب المستهلكين إلى أن يدفعوا فى السلع عن طريق المقايضة المباشرة أو المدارة مقداراً .. من رأس المال أكثر مما يتكلفه إنتاج السلع » (٤). فى عملية التداول

---

(١) « بزيادة قيمة المنتج الأسمية .. لا يرى البائعون .. مادام ما يكسبونه بوصفهم بائعين ينفقونه تماماً بصفتهم مشترين The Essential Principles of the Wealth of Nations etc, London, 1797, p. 66.

(٢) إذا اضطررنا ان ندفع مقابل ١٨ جنيهاً مقداراً من منتج يساوى ٢٤ ، فحين نستخدم نفس هذه النقود للشراء فسنحصل بدورنا على ١٨ تساوى ٢٤ Le Trose, op. cit., p. 897.

(٣) وعلى ذلك لن يستطيع بائع بصفة عادية ان يبيع بضاعته بسعر زائد عن الحد المعقول إلا إذا رضى بدوره ان يدفع سعراً باهظاً فى بضاعة بائعين آخرين ، ولنفس السبب لن يستطيع اى مستهلك ان يدفع ثمناً قليلا جداً فيما يشتريه إلا إذا كان مستعداً ان يقبل ثمناً قليلا مماثلا عن الأشياء التى يبيعها Mercier de la Riviére, op. cit., p. p. 555.

(٤) An Essay on the Production of Wealth, London, 1821, p. 349.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يتقابل المنتجون والمستهلكون كمشترين وبائعين فقط . إذا قلنا إن فائض القيمة الذى يحصل عليه المنتج سببه أن المستهلكين يدفعون أكثر من قيمة السلع كان ذلك شبيهاً بقولنا إن صاحب السلعة يملك بصفته بائعاً امتياز البيع بثمن أعلى . إن البائع قد أنتج السلع أو يمثل منتجها ولكن المشترى أنتج السلع التى تمثلها نقوده أو أنه يمثل من أنتجها . والفارق الذى يميزهما أن أحدهما يشترى والآخر يبيع . وعلى ذلك لا نتقدم خطوة فى البحث إذا قلنا إن صاحب السلع بصفته منتجاً يبيعها بأكثر من قيمتها ، وبصفته مستهلكا يدفع فيها ثمناً كثيراً (١) . أما الذين يتوهمون أن فائض القيمة ناشىء فى الأصـــل عن ارتفاع اسمى فى الأثمان أو من امتياز للبائع يخوله حق البيع بثمن عالٍ ، فلا بد لهم لكى لا يناقضوا أنفسهم من افتراض وجود طبقة تشترى ولا تبيع أى تستهلك ولا تنتج . ومن وجهة النظر التى وصلنا إليها وهى التداول البسيط لا يمكن تفسير وجود مثل هذه الطبقة . ولكن لنستبق الأمور لحظة . فالنقود التى تشترى بها هذه الطبقة دائماً لا بد أن تنساب على الدوام فى جيوبهم بدون التبادل أى مجاناً وبالحق أو بالقوة ، من جانب جيوب أصحاب السلع أنفسهم . وإذا بعنا السلع بأكثر من قيمتها لمثل هذه الطبقة فإننا نسترجع جزءاً مما سبق أن أعطيناه لها بلا مقابل (٢) . وقد كانت مدن آسيا الصغرى تدفع جزية سنوية لروما القديمة التى كانت تشترى بهذه الجزية السلع من تلك المدن ، وهكذا خدع أهل الأقاليم روما واستردوا عن طريق التجارة جانباً من الجزية ولكن برغم هذا كان الفاتحون هم الذين يخدعونهم ، كانوا يدفعون ثمن السلع من الجزية التى حصلوا عليها من أهل البلاد المفتوحة ، وليست هذه هى الطريقة للاثراء أو خلق فائض القيمة.

وعلى ذلك فلنبق فى داخل حدود تبادل السلع أى فى المنطقة التى فيها نجد أن (البائع الشارى) (والشارى البائع) يواجه كل منهما الآخر . وقد تنشأ الصعوبة التى تواجهنا عن النظر إلى الأشخاص فى مسرحيتنا هذه لا بوصفهم أفراداً بل بصفة كونهم صوراً تمثل غيرها .

---

(١) إن الفكرة القائلة بأن المستهلكين يدفعون الأرباح فكرة سخيفة بكل تأكيد . من هم المستهلكون ؟

G. Ramsay An Essay on the Distribution of Wealth, Edinburgh, 1836, p. 184

(٢) حين يفتقر امرىء الى الطالب فهل يوصيه المستر مالتس بأن يدفع لشخص آخر حتى يأخذ بضائعه ؟ هذا هو السؤال الذى أثار غضب أحد تلامذة ريكاردو فوجهه الى مالتس الذى يفعل كتلميذه بارسن تشالمرز فيمجد الطبقة التى تتكون من مشترين أو مستهلكين فقط . أنظر

An Inquiry into those Principles respecting the Nature of Demand and the Necessity of Consumption, lately advocated by Mr. Malthus, etc., London 1821 p. 55

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

قد يكون صاحب سلعة وهو ا على قدر من المهارة يسمح له بالاستفادة من (ب) أو (حـ) دون أن يستطيعا مثل ذلك معه فيبيع ا نبيذاً ثمنه ٤٠ جنيهاً الى ب ويحصل منه مقابل ذلك على قمح قيمته ٥٠ جـ فكأن ا حول ٤٠ جـ إلى ٥٠ جـ أى حصل على نقود أكثر مقابل نقود أقل ، وحول سلعه إلى رأس مال . لنبحث الأمر بطريقة أدنى إلى الدقة . قبل التبادل كان لدينا نبيذ قيمته ٤٠ جـ فى يد ا ، و قمح ، قيمته ٥٠ جـ فى يد ب ، وقيمة السلعتين الكلية ٩٠ جـ . وبعد إجراء التبادل تظل القيمة الكلية ٩٠ جـ أى لم تزد شيئاً فى التبادل ولكن توزيعها تم بطريقة مختلفة فما يعد خسارة فى القيمة بالنسبة إلى ب هو زيادة فى القيمة بالنسبة إلى ا ، وكان من الممكن حدوث نفس الأمر لو أن ا سرق ١٠ جـ من ب بدلا من الإلتجاء إلى شكليات التبادل . فمجموع القيم التى فى التداول لا يمكن أن يزيد ، والطبقة الرأسمالية بوجه عام فى أى دولة لا تستطيع أن تتخطى حدودها(١). ومهما حورنا الموضوع تظل الحقيقة واحدة وهى أنه إذا أجرينا التبادل بين المعادلات أو بين غير المعادلات فلن يكون هناك فائض قيمة(٢) ، فالتداول أو تبادل السلع لا يخلق قيمة(٣).

وعلى ذلك سيفهم القارىء السبب الذى من أجله عند تحليلنا الشكل الأساسى لرأس المال أى للشكل الذى يعين فيه التنظيم الاقتصادى للمجتمع الحديث ، نستطيع أن نتجاهل تماماً شكليه العاديين أو الأوليين وهما رأس مال التاجر ورأس مال المرابى .

إن الدورة ن ـ س ـ نَ وهى الشراء بقصد البيع بثمن أعلى يمكن مشاهدتها واضحة فى حالة رأس المال التجارى الحقيقى . ولكن الحركة تحدث تماماً داخل نطاق التداول . وبما أنه

---

(١) يأخذ ديتوت دى تراسى بالرأى المخالف مع أنه عضو بالمعهد أو لعل ذلك لأنه عضو به . ويرى الرجل أن الرأسماليين من رجال الصناعة يجنون الأرباح لأنهم يبيعون الشىء بأكثر مما كلفهم إنتاجه . والى من يبيعون ؟ أولا يبيع كل منهم للاخر (مصدر سابق ص ٢٣٩) .

(٢) ,, حينما يحدث التبادل بين قيمتين متساويتين فهذا التبادل لا يزيد أو ينقص مجموع القيم فى مجتمع ما . اذا جرى التبادل بين قيمتين غير متساويتين ... فان هذا التبادل لا يؤثر فى المجموع الكلى للقيم الاجتماعية ولو أنه يزيد ثروة طرف عن طريق ما يأخذه من ثروة الآخر (ج . ب . ساى : مصدر سابق ، جـ ١ ص ٤٣٤ - ٤٣٥) وفيما يلى مثال آخر للطريقة التى استخدم بها المسيو ساى كتابات الفيزيوكرات (والتى كاد الناس ينسونها فى أيامه بقصد التوسع فى نظريته عن « القيمة » . ومن أشهر أقواله ,, اننا نشترى المنتجات بالمنتجات (جـ ٢ ص ٤٣٨) وهى شبيهة بقول Le Trosne اننا ندفع ثمن المنتجات بالمنتجات (مصدر سابق ص ٨٩٩)

(٣) ,, لا يسبغ التبادل مطلقاً أية قيمة على المنتجات

F. Wayland : The Elements of Political Economy, Boston 1853 p. 168.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من المستحيل رغم ذلك أن نعلل بواسطة التداول وحده تحويل النقود إلى رأس مال أو أن نفسر تكوين فائض القيمة . فيبدو إذن أن تكوين رأس المال التجارى أمر مستحيل ما دام التبادل يجرى بين المتعادلات[١]، أو أن منشأه هو الميزة المزدوجة التى يحصل عليها التاجر بالنسبة إلى المنتجين الذين يبيعون ويشترون ، ولهذا يقول فرنكلين «الحرب سرقة والتجارة غش[٢]. وإذا كان تحويل نقود التجار إلى رأس مال يمكن تفسيره بغير غش المنتجين ، لكان من الضرورى وجود سلسلة طويلة من الخطوات الوسطى التى لا وجود لها فى حالة ما إذا كان التداول البسيط هو الأمر الوحيد الذى نفترضه .

وما سبقت الاشارة اليه بشأن رأس مال التجار ينطبق كذلك على رأس مال المرابين . ففى حالة الأول تجد الطرفين المتباعدين وهما النقود التى يلقى بها فى السوق والنقود الزائدة التى تسحب منه ، يتصلان عن طريق الشراء والبيع أو بعبارة أخرى بواسطة حركة التداول . أما فى حالة رأس مال المرابين فان الشكل ن ـ س ـ ن' يقتصر على طرفين لا وسيط بينهما فيصبح ن ـ ن' أى نقوداً تستبدل بنقود ، وهذا شكل لا يتفق مع طبيعة النقود ، وبهذا يظل بدون تفسير وذلك من وجهة نظر تداول السلع . لهذا قال أرسطو « بما أن علم الثروة علم مزدوج ينتمى جانب منه إلى التجارة والآخر إلى الاقتصاد ، فالأخير ضرورى وممتدح والأول قائم على أساس التداول ومستنكر بحق (لأنه لا يرتكز على الطبيعة وإنما على الخداع المتبادل) . وعلى ذلك فالمرابى مكروه بحق لأن النقود نفسها هى مصدر كسبه ولا تستعمل للأغراض التى ابتدعت من أجلها . إنها نشأت بقصد تبادل السلع ، ولكن الفائدة تخلق من النقود نقوداً أكثر[٣] . ومن هنا جاء اسمها (فائدة أو نسل) لأن المولود شبيه بمن يلده . والفائدة نقود مكتسبة من نقود ، وبهذا تعد أشد وسائل العيش مخالفة للطبيعة[٤] .

---

(١) « تصبح التجارة مستحيلة فى ظل سيطرة المتعادلات التى لا تقبل التغير

G. Apdyke : A. Treatise on Political Economy, New York,1851 p.69

اذا ما كشفنا الغطاء عن الفارق بين القيمة الحقيقية والقيمة التبادلية لوجدنا تحته الحقيقة التالية وهى أن قيمة الشىء تختلف عما يصرف فى التجارة باسم المعادل ، ومعنى ذلك أن مثل هذا المعـادل ليس بمعـادل مطلقا » فردريك انجلز (مصدر سابق ص ٩٦) .

(٢) المؤلفات (طبعة سباركس ج ٢ ص ٣٧٦ فى

Positions to be examined Concerning National Wealth,

(٣) كلمة « ربا » فى اللغة الاغريقية كان معناها فى الأصل « النسل »

(٤) Aristotle, op. cit., cap. 10.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وسنرى خلال بحثنا أن رأس مال التجار ورأس المال الذى يغل فائدة شكلان مشتقان ، كما سيتضح فى الوقت نفسه السبب الذى من أجله يظهر هذان الشكلان فى التاريخ قبل الشكل العادى المعروف لرأس المال . لقد رأينا أن التداول لا يمكن أن يخلق فائض قيمة ولهذا لابد من وجود شىء من وراء الستار وإن لم يظهر فى التداول ذاته (١) . ولكن هل يمكن تكوين فائض القيمة فى شىء خلاف التداول الذى هو مجموع العلاقات التبادلية بين أرباب السلع بقدر ماهم مقيدون بسلعهم ؟ وإذا أغضينا النظر عن أمثال هذه العلاقات فإن صاحب السلعة لا علاقة له إلا بسلعته .

وأما فيما يختص بقيمتها فإن تلك العلاقة مقصورة على الآتى وهو أن السلعة تحتوى على مقدار من عمله يقاس وفق معيار اجتماعى محدود ، وقيمة السلعة تعبر عن هذا المقدار . وبما أن القيمة تحسب بالنقود الحسابية فهذا المقدار يعبر عنه بالثمن الذى سنفرض أنه ١٠ ج ، ولكن عمله لا تعبر عنه فى نفس الوقت قيمة السلعة وذلك الجزء المضاف الى تلك القيمة ، ولا يعبر عنه الثمن البالغ ١٠ والذى هو فى نفس الوقت ثمن ١١ ، ولا تعبر عنه قيمة أكبر مما هى عليه .

ويستطيع صاحب السلعة عن طريق عمله أن يخلق القيمة ولكنها ليست القيمة التى تتمدد بذاتها ، ويستطيع أن يزيد قيمة سلعته بإضافة عمل جديد وبذلك يضيف قيمة إلى القيمة التى فى يده بأن يعمل مثلا من الجلد أحذية . فالمادة نفسها أصبحت الآن ذات قيمة أكبر لأنها تحتوى على قدر أكبر من العمل ، والأحذية ذات قيمة أعظم من الجلد ، ولكن قيمة الجلد تظل على ما كانت عليه فهى لم تتجدد ولم تضف إلى ذاتها فائضاً أثناء عمل الأحذية . ولذلك ففى خارج مجال التداول يستحيل على منتج السلع أن يزيد القيمة بدون أن يحتك بأصحاب السلع الآخرين ، أو أن يستطيع تحويل النقود أو السلع إلى رأس مال .

وعلى ذلك من المستحيل أن يخلق التداول رأس المال ، كما أنه من المستحيل أن ينشأ الأخير بعيداً عن التداول . فيجب أن يكون منشؤه فى التداول وكذلك يجب ألا ينشأ فى التداول . وهكذا نصل إلى نتيجة مزدوجة وهى أن تحويل النقود إلى رأس مال يجب تفسيره على أساس القوانين التى تنظم تبادل السلع بحيث أن نقطة الابتداء هى تبـــادل الأشياء المتعادلة (٢) .

---

(١) فى الأحوال العادية للسوق لا تسبب عمليـة التبادل الربح ، فاذا لم يوجد قبل هذه العملية لما امكن ان يكون له وجود بعدها . رمزى (مصدر سابق ص ١٨٤) .

(٢) لا بد أن التفسيرات السابقة مكنت القارئ من أن يدرك ان هذه العبـــارة معناها فقط أن تكوين

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وصاحبنا مالك النقود الذى لا يزال رأسمالياً فى طريق التكون يجب أن يشترى سلعه حسب قيمتها ، وأن يبيعها بقيمتها ، ومع ذلك ففى النهـــاية يجب أن يسحب من التداول نقوداً أكثر مما ألقى إليه منها فى البداية . وهكذا يجب أن يتطور إلى رأسمالى كامل النمو فى داخل مجال التداول وفى خارجه هذان هما شرطا المسألة ، وهذه هى البندقة التى يجب علينا أن نكسرها !

٣ — شراء و بيع قوة العمل

إن تغير القيمة الذى يحدث فى حالة النقوداً التى تحول إلى رأس مال لا يمكن أن يحدث فى النقود ذاتها لأنها بحكم وظيفتها كأداة للشراء والدفع ؛ لا تعمل أكثر من تحقيق سعر السلعة التى نشتريها أو ندفع ثمنها ، وهى بصفتها نقوداً حقيقية عبارة عن قيمة متجمدة لا تتغير مطلقاً من حيث الحجم(١). والتغيير لا ينشأ عن الفعل الثانى فى عملية التداول أى من إعادة بيع السلعة لأن هذا

= رأس المال يجب أن يكون مستطاعا حتى ولو كان ثمن السلعة مساوياً لقيمتها . ان تكوين رأس المال لا يمكن تفسيره عن طريق انحراف أثمان السلع عن قيمها فاذا حدث أن انحرف الثمن حقيقة عن القيمة وجب علينا أولا أن نرد الثمن الى القيمة ، و بعبارة أخرى ننظر الى الاختلاف أو الفرق على أنه عرضى ، حتى يتسنى أن نبحث ظاهرة تكوين رأس المال على أساس تبادل السلع بكل ما تتميز به هذه الظاهرة من بساطة . وبدون أن تضطرب ملاحظاتنا عن طريق تدخل ظروف اضافية لا علاقة لها بالمسألة الحقيقية . ونعلم فضلا عن ذلك ان ارجاع الثمن الى مقياس القيمة ليس مجرد عملية نظرية . ان التقلبات المستمرة فى أثمان السوق يلغى كل منها الآخر وترد جميعاً الى ثمن متوسط . ومتوسط الأثمان هو النجم الذى يهدى التاجر أو رجل الصناعة فى كل عمل يتطلب و تاً . وهو يعلم أنه اذا تعلق الأمر بفترة طويلة الى حد كاف من الزمن ، فان السلع لا تباع بأعلى أو أقل من ثمنها ، وانما تباع بثمن وسط . فاذا وجد من صالحه أن ينظر الى المسألة مجرداً عن المصلحة الشخصية ، لصاغ عملية خلق رأس المال بالشكل التالى . كيف نعلل نشأة رأس المال على أساس فرض أن الأثمان ,, فى الملجأ الأخير ،، ينظمها ثمن متوسط ، ومعنى هذا أن الأثمان تنظمها قيمة السلع ؟

وأقول ,, فى الملجأ الأخير ،، لأن متوسط الأثمان (بخلاف ما اعتقده آدم سميث وريكاردو وسواهما) لا يتفق بطريقة مباشرة مع قيمة السلع .

(١) ان رأس المال لا ينتج ربحاً اذا كان على شكل نقود

Ricardo, Principles of Political Economy, p, 267

نجد فى التواميس القديمة مثل هـذا الكلام عديم المعنى ومثال ذلك القول بأن رأس المال فى العالم القديم كان كامل النمو ولكن لم يكن وجود للعامل الحر و نظام الائتمان ويورد Mommsen فى مؤلفه Römische Geschichte أخطاء كثيرة من هذا النوع .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لا يؤدى إلا إلى إرجاع السلعة من شكلها الجسمى (المادى) النقدى الذى يعبر عنها . وعلى ذلك يجب أن يحدث التغيير فى السلعة التى تشترى بواسطة الفعل الأول (ن ـ س) ولكنه لا يحدث فى قيمة تلك السلعة نظراً لأن التبادل يجرى بين متعادلات ، ونظراً لأن السلعة تشترى حسب قيمتها الصحيحة . وعلى ذلك نرى أنفسنا مضطرين إلى الاستنتاج بأن التغيير ينشأ فى القيمة الاستعمالية للسلعة أى فى استهلاكها . ولكن إذا أريد استخلاص القيمة من استهلاك السلعة فلا بد أن يكون صديقنا صاحب النقود موفقاً إلى الحد الذى يسمح له بأن يجد فى مجال التداول وفى السوق سلعة لقيمتها الاستعمالية خاصية كونها مصدر قيمة ، ويكون استهلاكها الفعلى فى حد ذاته صورة يتجسم فيها العمل ، والذى بواسطته يمكن خلق القيمة . وإن صاحبنا ليجد فعلا مثل هذه السلعة فى السوق ، وهذه السلعة هى قوة العمل أو المقدرة على العمل وانى استخدم تعبير المقدرة على العمل أو قوة العمل للدلالة على مجموع قوى الإنسان العقلية والجثمانية والتى يستخدمها حين ينتج قيمة استعمالية من أى نوع وشكل . ولا بد من تحقيق شروط عدة حتى يتيسر لصديقنا صاحب النقود أن يلقى قوة العمل معروضة للبيع كأنها سلعة . إن تبادل السلع فى حد ذاته لا يدل على أى علاقات من اعتماد شىء على آخر أكثر مما ينجم عن طبيعة هذا التبادل . وعلى هذا الفرض لا تظهر قوة العمل بالسوق كسلعة إلا إذا كان صاحبها يعرضها للبيع على أنها سلعة ولا يتسنى له هذا إلا إذا كانت تحت تصرفه أى كان مالكا لشخصه ذاته . وهو يتقابل فى السوق مع صاحب المال ولهما حقوق متساوية أى أنهما متساويان أمام القانون والفارق الوحيد بينهما أن أحدهما مشتر والآخر بائع . ودوام هذه العلاقة يتطلب من صاحب قوة العمل أن يبيعها لمدة محدودة ، لأنه لو باعها نهائيا كان كمن باع نفسه وهبط من منزلة الشخص الحر إلى مرتبة العبد أو نزل من مستوى صاحب السلعة إلى مستوى السلعة ذاتها . وعلى ذلك يجب عليه أن ينظر إلى ما يملك من قوة العمل على أنها ملك له وأنها سلعة ، ولا يكون هذا الا بوضعها مؤقتاً تحت تصرف المشترى لفترة محدودة من الزمن . وبهذه الوسيلة وحدها يتجنب التنازل عن حقوقه فى ملكيتها (١) .

---

(١) ومن هنا تجد التشريع يضع حداً أعلى لمدة عقد العمل . وحينما يسود العمل الحر تضع القوانين قواعد لانتهاء أمثال هذه العقود . وفى بلاد مختلفة وبخاصة فى المكسيك (وكذا قبل الحرب الأهلية الأمريكية فى الأراضى التى انتزعتها الولايات المتحدة من المكسيك ، وكذلك فى ولايتى الداتوب حتى عهد الثورة التى قام بها كوزا) يستتر الرق تحت غطاء من العمل الزراعى تسديداً للديون Peonage فبواسطة مبالغ مدفوعة على أن تدفع بطريق العمل وهى مبالغ تتوارثها الأسرة من جيل الى جيل يصبح العامل وأسرته أيضاً من الوجهة العملية ملكا لأشخاص آخرين وأسرات أخرى . وقد الغى جواريز هذا النظام فاعاده الامبراطور مكسمليان بمرسوم ، وفى مؤتمر وشنطن =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والشرط الثانى اللازم لصاحب النقود الذى يبحث عن قوة العمل كسلعة بالسوق هو أن العامل بدلا من أن يكون فى مركز الذى يبيع سلعاً تتضمن عمله يكون مضطراً أن يعرض للبيع كسلعة هذه القوة ذاتها التى لا وجود لهـــا إلا فى شخصه . وكى يستطيع المرء أن يبيع سلعاً خلاف قوة العمل لابد له من امتلاك أدوات الإنتاج كالمادة الأولية والأدوات الخ . فلا يمكنه عمل الأحذية بغير الجلد ، وهو فى حاجة كذلك إلى وسائل العيش إذ لايستطيع امرىء أن يعيش على منتجات مستقبلة أو على قيم استعمالية فى حالة غير كاملة . وقد كان الإنسان منذ ظهوره على الأرض ولايزال مستهلكا قبل وأثناء الإنتاج . وفى المجتمع الذى فيه تتخذ كافة المنتجات شكل السلع يجب أن تباع هذه السلع بعد إنتاجها ، وهى لاتقضى مطالب منتجها إلا بعد إنتاجها . ويضاف الوقت اللازم لبيعها الى الوقت اللازم لإنتاجها . وعلى ذلك فلتحويل النقود الى رأس مال يجب على صاحب النقود أن يتقابل فى السوق مع العامل الحر ويقصد بالحر معنى مزدوج فهو من جهة حر فى التصرف فيما يملك من قوة العمل أى سلعته ، كما أنه من جهة أخرى ليست لديه سلعة أخرى يبيعها ، وينقصه كل شىء لازم لتحقيق مالديه من قوة العمل .

وصاحب النقود لايعنيه السبب الذى من أجله يقابله هـذا العامل الحر فى السوق لأن الأول يعد سوق العمل فرعاً من سوق السلع للعام . وهناك شىء واحد ظاهر جلى وهو أن الطبيعة لاتنتج فئتين إحداهما تملك النقود أو السلع والأخرى ليس لديها الا قوة العمل . هذه العلاقة ليس لهـا أساس طبيعى ، كما أن أساسها الاجتماعى ليس مشتركا بالنسبة إلى جميع العصور التاريخية . فمن الواضح أنهـا نتيجة تطور تاريخى ماض ، وثورات اقتصادية كثيرة ، والقضاء على سلسلة كاملة من أشكال الإنتاج الاجتماعى القديمة .

كذلك الأنواع الإقتصادية التى بحثناها من قبل تحمل آثاراً تنم عن أصلها التاريخى ، فلابد من توافر شروط وحالات تاريخية مخصوصة قبل أن يصبح المنتج سلعة ، فيجب أولا عدم إنتاجه على أنه وسيلة عيش المباشرة للمنتج نفسه . وإذا أردنا أن نبحث الظروف التى فيها تتخذ المنتجات أو أغلبيتها شكل السلع لوجدنا أن هذا لايحدث إلا فى ظل إنتاج من نوع معين

= هوجم هذا المرسوم على أنه محاولة لاعادة الرق الى بلاد المكسيك ,, قد أتنازل لآخر لمدة محـدودة عن استعمال ما أملك من استعدادات ومقدرات جثمانية وعقلية ولكن بفضل هذا التحديد فان هذه المقدرات تحتفظ بعـلاقة ظاهرية بالنسبة الى شخصيتى الكلية . ولكن اذا ما تنازلت عن جميع وقت العمل الذى أملكه وعن كل انتاجى فانى اتنازل اذا عن نشاطى وحقيقتى العامين وعن فرديتى فأجعلها ملكا لآخر .

Hegel, Philosophie des Rechts, Berlin, p. 104—67.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وذلك هو الإنتاج الرأسمالى . مثل هذا البحث يكون خارجاً عن نطاق تحليلنا للسلعة . وقد يحدث الإنتاج وتداول السلع برغم أن الأغلبية أو المجموعة الساحقة من المنتجات (التى أنتجت ليستعملها المنتج) لا تتحول إلى سلع ، وبرغم أن عملية الإنتاج الإجتماعية بعيدة عن أن تكون خاضعة كلها للقيمة التبادلية ، فلا يمكن أن تنتج الأشياء كسلع إلا إذا كان تقسيم العمل فى المجتمع قد وصل إلى حـــد كمل فيه الانفصام بين القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية (وهو الانفصام الذى يظهر لأول مرة فى حالة المقايضة المباشرة) .

ولكن مثل هذه الدرجة من النمو مشتركة بالنسبة إلى الكثير من أشكال المجتمع الاقتصادية وهى الأشكال التى تمثل من نواح أخرى أشد المميزات التاريخية تنوعاً واختلافاً . ومن جهة أخرى إذا تحولنا للنظر إلى النقود لألفينا أن وجودها يدل على مرحلة محدودة فى تبادل السلع . إن وظائف النقود بصفتها مجرد مكافىء للسلع أو أداة تداول أو وسيلة للدفع أو اختزان أو نقود شاملة ، تشير إلى مراحل مختلفة فى إنتاج هذه الأشكال كلها وذلك تبعاً لمدى تفوق إحدى الوظائف بالنسبة لغيرها . ولكن الأمر خلاف ذلك فى حالة رأس المال إذ مجرد ظهور تداول السلع والنقود لا يكفى لتوافر الظروف التاريخية اللازمة لوجود رأس مال . فهذا الأخير ينشأ حين يجد صاحب وسائل الإنتاج والعيش فى السوق عاملا حراً يعرض للبيع ما يملك من قوة العمل . وهذا الشرط التاريخى الواحد ينطوى على مظهر بأكمله من التاريخ العالمى الشامل . وعلى ذلك يكون ظهور رأس المال لأول مرة مؤذناً بعصر جديد فى عملية الإنتاج الاجتماعية (١) .

ولنبحث الآن ماهية هذه السلعة ذات الطابع الخاص وهى قوة العمل ، وهى كغيرها من السلع ذات قيمة (٢) ، فكيف يتسنى تعيين هذه القيمة ؟

وكما هو الشأن بالنسبة للسلع الأخرى فالذى يعين قيمة قوة العمل إنما هو وقت العمل اللازم لإنتاج هذه السلعة الغريبة وكذلك لإعادة انتاجها . فمن حيث أنها ذات قيمة فقوة العمل نفسها لا تمثل أكثر من مقدار محدود من متوسط العمل الاجتماعى الذى تتضمنه . وقوة

---

(١) ونتيجة لهذا يتميز العصر الرأسمالى بما يأتى وهو أن قوة العمل تتخذ فى نظر العامل شكل سلعة هى ملك له ، ولهذا السبب يتخذ عمله شكل العمل الأجير . وعلاوة على هذا فمن هذه اللحظة فقط تتخذ منتجات العمل شكل سلع .

(٢) „ قيمة الرجل ثمنه — وبعبارة أخرى مقدار ما يدفع لقاء استعمال قوته „

Thomas Hobbes, Leviathan, in Works, Mobes worth's edition, London, 1839—1844, vol. III, p. 76

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمل لا وجود لها الا كطاقة أو مقدرة الفرد الحى ، وإنتاجها يفترض مقدماً وجود هذا الفرد ، وعلى ذلك فإنتاج قوة العمل يتوقف على إبقاء العامل على ذاته . وينطلب الفرد الحى كى يعيش مقداراً معيناً من وسائل العيش . وهذا يؤدى بنا الى النتيجة الآتية وهى أن وقت العمل الضرورى لإنتاج قوة العمل هو وقت العمل اللازم لإنتاج وسائل العيش هذه ، وبعبارة أخرى أن قيمة قوة العمل هى قيمة وسائل العيش اللازمة للابقاء على حياة صاحب قوة العمل ولكن قوة العمل لا تقوم بدور عامل فعال إلا فى العمل ، وبهذا يبذل مقدار محدود من عضل الإنسان وأعصابه ومخه الخ وهذه الأشياء التى تنفق لابد من تعويضها وازدياد الانفاق يتطلب دخلا أكبر[1] وصاحب قوة العمل الذى اشتغل اليوم لابد له من أن يكون قادراً على تكرار نفس العملية فى الغد فى ظل نفس الأحوال من حيث النشاط والصحة . ونتيجة لهذا يجب أن يكون مقدار وسائل العيش كافياً للابقاء على الفرد العامل كفرد عامل فى حالته العادية من الحياة . ولكن الحاجات الطبيعية من الغذاء والكساء والمسكن والوقود وغير ذلك تختلف من بلد إلى آخر طبقاً للأحوال المناخية والطبيعية . ومن جهة أخرى فما يقال لها حاجات إن هى إلا ثمرة التطور التاريخى وذلك من حيث عددها ومداها وأساليب إشباعها ، وبذلك فهى تعتمد إلى حد كبير على درجة حضارة البلد ، وتتوقف كذلك بنوع خاص على الظروف والعادات ودرجة الرفاهية التى تكونت فيها طبقة العمال الأحرار[2] ، وهكذا نرى أنه عند تعيين قيمة قوة العمل يدخل عنصر تاريخى وأخلاقى ، وهذا ما يميز هذه السلعة عن غيرها من السلع ، ومع هذا فبالنسبة إلى بلد مخصوص يمكن أن نعتبر متوسط شمول ضروريات الحياة كمية ثابتة .

إن صاحب قوة العمل من أهل الفناء ، فاذا كان لا بد من دوام ظهوره فى السوق وهو الأمر الذى يفرضه تحول النقود الى رأس مال دائم ، فلا بد لبائع قوة العمل من العمل على أن يديم نفسه بالطريقة التى يتبعها كل فرد حى أى عن طريق التوالد . وقوة العمل التى تسحب من السوق عن طريق البلى والموت يجب أن يحل محلها باستمرار مقدار مساوٍ لها من قوة العمل الجديدة . وبناء على ذلك يجب أن يكون مجموع وسائل العيش اللازمة لإنتاج قوة العمل شاملا للوسائل الضرورية لمن يحل محل العامل أى لأطفاله حتى يمكن استدامة ظهور هذا

---

(١) ولهذا السبب كان مقدم العبيد الزراعيين عند الرومان يتناول أجراً أعلى بقليل من أجر العبيد العاملين لأن عمله كان أخف Mommsen, Romische Geschichte, 1859, p. 810

(٢) See Overpopulation and its Remedy, London, 1846, by W.T. Thornton.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الجنس الذى يملك تلك السلعة الغريبة فى السوق[1] . ولكى يتسنى تعديل الطبيعة البشرية بحيث يكتسب الأفراد المهارة والحذق فى فرع معين من الصناعة وبذا يصبحون قوة عمل من نوع حسن مخصوص ، لابد من تعليم أو تدريب خاص . وهذا يكلف معادلا من السلع يختلف مقداره زيادة أو نقصاً . ويتفاوت هذا المقدار تبعا لصفة قوة العمل واختلافها من حيث مدى التعقيد . فالنفقات التى يستلزمها هذا التعليم (وهى صغيرة فى حالة قوة العمل العادية) تدخل فى تكوين القيمة الكلية التى تنفق على إنتاج هذه القوة . ونتيجة لهذا نجد أن قيمة قوة العمل تصبح عبارة عن قيمة مقدار محدود من وسائل العيش ، وعلى ذلك تختلف قيمته تبعاً للتغيرات فى قيمة وسائل العيش أى التغيرات فى مقدار وقت العمل اللازم لإنتاجها .

وبعض وسائل العيش كالغذاء والوقود يستهلك كل يوم ويجب إعداد غيره كذلك يومياً . والبعض الآخر كالملابس والأثاث يدوم زمنا أطول ولا يحل محله غيره إلا فى فترات أطول . فبعض هذه الوسائل يجب شراؤه ودفع ثمنه يومياً . بينما يحدث ذلك الأمر بالنسبة إلى بعض الوسائل الأخرى كل أسبوع أو كل ثلاثة أشهر وهكذا . ولكن مهما كانت طريقة توزيع المجموع الكلى لهذه المصروفات على السنة فلا بد من تغطيته عن طريق متوسط الدخل اليومى .

فلو فرضنا أن مجموع السلع اللازمة يوميا لإنتاج قوة العمل = ا ، واللازمة أسبوعياً = ب ، واللازمة كل ثلاثة أشهر = جـ وكذا ، فإن المتوسط اليومى لهذه السلع = $\frac{٣٦٥\ ا + ٥٢\ ب + ٤\ جـ + \text{الخ}}{٣٦٥}$. لنفرض أنه فى هذه المجموعة من السلع اللازمة للمتوسط اليومى يوجد ٦ ساعات من العمل الاجتماعى فإذن يوجد فى قوة العمل اليومية ¼ يوم من متوسط العمل الإجتماعى أو بعبارة أخرى ¼ يوم من العمل اللازم لإنتاج قوة العمل كل يوم .

فإذا كان نصف يوم من متوسط العمل الاجتماعى يتضمن ٣ شلنات كانت الثلاث شلنات هى الثمن الذى يطابق قيمة يوم من قوة العمل . فإذا عرضها صاحبها للبيع بثلاث شلنات فى اليوم فإن سعر بيعها يساوى قيمتها ، وحسب الفرض الذى أوردناه يدفع هذه القيمة صديقنا صاحب النقود الذى لاهم له إلا تحويل النقود إلى رأس مال . فالحد الأدنى لقيمة قوة العمل

---

(١) والثمن الطبيعى « للعمل » ينحصر فى مقدار من ضروريات الحياة وكمالياتها مما يكفى لاعالة العامل وذلك تبعاً لطبيعة مناخ البلد وعاداته ، ولتمكينه من تربية أسرة تعمل على أن يظل فى السوق مورد غير منقوص من العمل ، ويلاحظ أن كلمة « عمل » تستعمل هنا خطأ بدلا من « قوة العمل » .

R. Torrens : An Essay on the External Trade, London, 1815, p. 62.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تعينه قيمة السلع التى لا يستطيع العامل بدونها أن يجدد نشاطه ، أو بالتالى تعينه قيمة وسائل العيش التى لا غنى عنها من الوجهة الجثمانية . وإذا هبط ثمن قوة العمل إلى هذا الحد الأدنى فإنها تهبط إلى ما دون قيمتها لأنه فى ظل هذه الأحوال لا يمكن الابقاء عليها وتنميتها إلا فى حالة سيئة . ولكن قيمة كل ساعة يعينها وقت العمل اللازم لإنتاجها بصورة عادية .

هذه الطريقة فى تعيين قيمة قوة العمل تنشأ عن ضروريات الحال ، وما الشكوى من أنها طريقة وحشية إلا نوع من العاطفية الرخيصة ، وإن روسى ليبدو عاطفياً حين يقول « إذا كنا نرى فى الطاقة على العمل شيئا له وجود منفصل عن وسائل عيش العمل أثناء عملية الإنتاج كنا كمن يتصور شبحاً . وحين نتحدث عن العمل أو عن الطاقة على العمل فإننا نقصد كلا العامل ووسائل العيش أى كلا العامل والأجر »(١) . حين نتحدث عن الطاقة على العمل فإنا لا نتحدث عن العمل كما أننا حين نقول الطاقة على الهضم لا نقصد الهضم . إن كل امرىء يعلم أن عملية الهضم تتطلب أشياء أخرى إلى جانب المعدة السليمة ، وذلك الذى يتحدث عن الطاقة على العمل لا يفكر فيها منفصلة عن وسائل العيش الضرورية لإنتاجها .

إن قيمة وسائل العيش يعبر عنها فى قيمة الطاقة على العمل . فإذا ظلت هذه الطاقة على العمل دون أن تباع لما استفاد العامل منها ولأسف على الضرورة الطبيعية القاسية التى تحتم على ما لديه من طاقة على العمل أن تتطلب مقداراً محدوداً من وسائل العيش لإنتاجها ومورداً متجدداً من هذه الوسائل لاعادة انتاج هذه الطاقة ، وحينئذ يتفق مع سيسموندى على أن « الطاقة على العمل ... لا تعد شيئا الا اذا بيعت »(٢) .

هذه الخاصية التى تميز تلك السلعة المخصوصة وهى قوة العمل يترتب عليها أنه عند إجراء التعاقد بين الشارى والبائع تنتقل قيمتها الاستعمالية مباشرة إلى يدى الأول ، فقيمتها ـ كقيمة أية سلعة أخرى ـ قد عينت قبل أن تنتقل إلى مجال التداول ، نظراً لأن كمية محدودة من العمل الإجتماعى قد بذلت فيها . ولكن قيمتها الاستعمالية تتحقق فقط بسبب ممارستها فيما بعد . وانتقال قوة العمل واستحواذ المشترى عليها فعلا ثم استخدامها كقيمة استعمالية عمليتان تفصلهما فترة من الزمن . ولكن فى الحالات التى تنتقل فيها القيمة الاستعمالية للسلعة بطريق البيع فى نفس الوقت الذى تسلم فيه فعلا للمشترى تكون وظيفة نقود الأخير فى العادة أنها

---

(١) Coursvd' économie politique, Brussels, 1842, p. 370.

(٢) Nouqeaux principes etc., vol. 1, p. 112.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

واسطة للدفع .(١) ففى كل دولة يسودها النظام الرأسمالى جرت العـــادة بعدم دفع أجر قوة العمل قبل استخدامها خلال المدة المحدودة فى العقد كأن يكون الدفع مثلا فى نهاية الأسبوع .

وعلى ذلك ففى كل مكان يقدم العامل القيمة الاستعمالية لما يملك من قوة العمل إلى الرأسمالى أى أن بائع قوة العمـل يسمح للمشترى باستهلاك قيمتها الاستعمالية ، وذلك قبل أن يقبض ثمنها . وبعبارة أخرى يقدم العامل اعتماداً مالياً للرأسمالى ، وهو اعتماد غير وهمى والدليل على ذلك لانجده فقط فى الأجور التى يخسرها العمال(٢) من وقت لآخر حين يفلس الرأسمالى ، بل ونجده أيضاً إذا ما أخذنا فى دراسة النتائج والعواقب الدائمة(٣). ومع هذا فسواء استعملت

---

(١) ,,كل عمل يدفع مقابله بعد أن ينقطع An Inquiry into those Principles respecting the Nature of Denamds. etc., p. 104.

كان لابد من أن يبدأ الائتمان التجارى حين صار العامل البـدوى أى أول صانع الانتاج قادراً بفضل مدخراته على أن ينتظر على أجره حتى نهاية الأسبوع أو الأسبوعين أو الشهر أو ربع السنة الخ Charles Ganilh, Des systemes de l'économie politique, second edition, 1821, vol 1, p. 150.

(٢) يعير العامل جده و نشاطه ـــ هكذا يقول ستورش ولكنه حريص بحيث يضيف الى ذلك أن العامل ,, لايخاطر بشيء .. خلاف خسارة أجره ... ان العامل لايعطى الرأسمالى شيئاً مادياً Cours d'économie politipue طبعة سان بطرسبورج ، الطبعة الثانية ج ٢ ص ٣٧)

(٣) اليك مثال . فى لندن نوعان من الخبازين أحدهما يبيع الخبز بقيمته الكاملة والآخر يبيعه دون هذة القيمة ، وينتمى أكثر من ثلاثة ارباع الخبازين الى النوع الأخير

وتجد أن خبازى النوع الثانى بلا استثناء تقريباً يبيعون خبزاً مغشوشاً بطرق مختلفة وذلك باضافة مزيج من الشب والصابون والجير الخ هن أمثال هذه المواد الدينة والمغذية والصحية (أنظر الكتاب الأزرق السابق الذكر ، وكذلك تقرير لجنة سنة ١٨٥٥ عن غش الخبز ، وكذلك كتاب الدكتور هاسال الطبعة الثانية لندن ١٨٦٢) .

وذكر مسيو جون غردون أمام لجنة ١٨٥٥ أنه نتيجة لهذه الغشوشات تجد أن الفقير الذى يعيش على رطلين من الخبز فى الأسبوع ، لا يحصل على ربع المادة المغذية ، خل عنك الآثار السيئة التى تتعرض لها صحته . ويقول تريمنهير (مصدر سابق ص ٤٨) إن السبب فى قبول هـــذه المواد برغم علمهم بهذا الغش راجع إلى اضطرارهم إلى أخذ الخبز ممن يبيعه ولما كان العمال لا يتناولون أجورهم الا فى ختام الأسبوع ، لهذا لايستطيعون دفع ثمن ما تستهلكه أسرانهم من الخبز الا عند انتهاء الأسبوع ، وقد ذكر تريمنهير بناء على أقوال شهود ان الخبز المكون من أمثال هذا المزيج يصنع لكى يباع بهذه الطريقة بصفة خاصة . وغالباً ما تدفع الأجور فى المناطق الزراعية بانجلترا واسكتلندة كل أسبوعين بل وكل شهر ، ونظراً لطول الفترات الواقعة بين مواعيد الدفع ، يضطر العامل الى الشراء بالأجل وبأثمان أعلى . فمثلا فى هورتنجهام بويلتس حيث الدفع بالشهر يشترى العامل ما زنته Stone من الدقيق بسعر =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

النقود وسيلة للشراء أو الدفع ، فإن هذا لا يؤثر فى طبيعة تبادل السلع .

إن ثمن قوة العمل تحدده عملية البيع ، وإن كانت قوة العمل لا تتحقق إلا بعد إتمام العملية (ويحدث نفس الشيء حيث يستأجر شخص بيتاً إذ أن المستأجر لا يحقق ميزة هذه العملية إلا تدريجاً) . إن قوة العمل يتم بيعها وإن لم يدفع مقابلها (ثمنها) إلا بعد ذلك بوقت . وعلى ذلك يسهل علينا أن نفهم طبيعة العلاقة إذا فرضنا مؤقتا فى هذه اللحظة أن صاحب قوة العمل يقبض الثمن المتفق عليه فى اللحظة التى يبيعها فيها .

إننا نعلم الآن كيف تعين القيمة التى يدفعها مالك النقود إلى صاحب هذه السلعة الغريبة أى قوة العمل ، والقيمة الاستعمالية التى يحصل عليها الأول لا تبدو الا بالانتفاع أى باستهلاك هذه القوة . وصاحب المال يشترى كل ما يلزم لهذا الغرض كالمادة الأولية ويدفع ثمنها حسب قيمتها الكاملة . واستهلاك قوة العمل كما هو الشأن بصدد أية سلعة أخرى خارج حدود السوق أو نطاق التداول . لنخرج مؤقتاً مع صاحب المال ومالك قوة العمل من ذلك السوق الصاخب حيث يجرى كل شيء فى الظاهر وأمام جميع الناس ولنتبع الرجلين إلى ذلك المقر الخفى للانتاج حيث تواجهنا على عتبته العبارة الآتية : « ممنوع الدخول الا للعمل » . وهنا سنرى كيف يحدث انتاج رأس المال ، وسنهتدى أخيراً الى سر تحقيق الربح . إن هذا الميدان الذى يجرى داخله بيع قوة العمل وشراؤها إن هو فى الواقع إلا جنة حقوق الإنسان الكامنة ، ففيه فقط تسود الحرية والمساواة والملكية ومبادىء جيريمى بنتام . هناك الحرية لأن مشترى السلعة وبائعها يتعاقدان بمحض رغبتهما ، فهما يتعاقدان كأحرار ، واتفاقهما هو الذى يعبران به عن ارادتهما المشتركة بطريقة قانونية . وهنا المساواة لأن كلا منهما يدخل فى علاقة مع الآخر كما هو الشأن مع صاحب السلع البسيط ، ويبادلان المعادل بالمعادل . وهناك الملكية لأن كلا منهما يتصرف فيما هو ملك له .

= شلنين وأربع بنسات مع أن هذا المقدار يباع فى أماكن أخرى بسعر شلن وعشر بنسات (التقرير السادس عن الصحة العامة ، ١٨٦٤ ص ٢٦٤) . وقد حصل الطباعون فى بايسلى وكلسارتوك على الدفع كل أسبوعين بدلا من كل شهر وذلك بعد أن أضربوا عن العمل (تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٥٣ ص ٣٤) . ولاضرب مثلا آخر يؤيد قولنا ان العامل يقدم اعتاداً للرأسمالى ، ذلك أنه فى المناجم حيث يسود نظام دفع الأجور شهرياً يحصل العامل من الرأسمالى خلال الشهر على مبالغ على الحساب غالباً ماتكون على هيئة بضائع تباع له بأعلى من ثمنها بالسوق . وهذا ما يعرف باسم truck system . (وقد ذكرت لجنة استخدام الأطفال شيئاً من هذا القبيل فى تقريرها الثالث الصادر فى لندن سنة ١٨٦٤ ص ٣٨ رقم ١٩٢) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهناك يسود بتمام لأن كلا منهما يرعى مصلحته . والقوة الوحيدة التى تجمع بينهما هى حب الذات والكسب والمصالح الخاصة لكل منهما . كل ينظر إلى صالحه ، ولا يعنى أحد بما يجرى للغير . وبما أنهم يفعلون ذلك فإنهم جميعا ، وفق نظام مرسوم من قبل أو فى ظل عناية الهية حكيمة ، يعملون سوياً لما فيه صالحهم المتبادل ، وللصالح العام ولمصلحة الجميع .

وإذ نغادر مجال هذا التداول البسيط أو تبادل السلع الذى يمد « أنصار حرية التجارة » بآرائهم وبالمعيار الذى يحكمون به على مجتمع قائم على أساس رأس المال والأجور ، نظن أننا نستطيع أن نلمس تغييراً فى شخصية الممثلين . فذلك الذى كان من قبل صاحب نقود يسير أمامنا الآن كرأسمالى ومن ورائه صاحب قوة العمل كعامل . ويبدو على الأول الشعور بأهميته وبالجرأة والانكباب على العمل . أما الآخر فيتراءى جباناً متردداً كالرجل الذى يأتى إلى السوق ومعه جلده وليس له أن ينتظر سوى الدبغ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب الثالث

إنتاج فائض القيمة المطلق

عملية العمل وعملية إنتاج فائض القيمة

(١) عملية العمل

العمل هو استخدام قوة العمل ومن يشترى الأخيرة يحمل بائعها على العمل ، وبذا يصبح البائع عاملا أى قوة عمل عاملة . ولكى يتجسم عمله فى سلع يتعين عليه قبل كل شىء أن يجعل هذا العمل متمثلا فى قيم استعمالية أى فى أدوات قادرة على قضاء حاجات من نوع أو آخر . وعلى ذلك فالرأسمالى يحمل العامل على انتاج قيمة استعمالية أو أداة من نوع خاص. وانتاج القيم الاستعمالية أو الطيبات لا يتأثر من حيث طبيعته العـــامة بكونه يتم من أجل صاحب رأس المال وتحت اشرافه . وعلى ذلك يجب علينا أولا أن ندرس عمليـة العمل مستقلة عن الشكل المخصوص الذى قد تتخذه فى ظل أحوال اجتماعية خاصة .

والعمل عمليـة تجرى بين الإنسان والطبيعة يقوم فيها الانسان عن طريق نشاطه ببدء ردود الفعل المادية بينه وبين الطبيعة وتنظيمها والسيطرة عليهـا ، فهو يواجه الطبيعة كأنه احدى قواها ويحرك ذراعيه وساقيـه ورأسه ويديه لكى يختص نفسه بمنتجاتهـا فى شكل يلائم حاجياته . ولكنه اذ يطبق عمـله على العالم الخارجى ويغيره على هذا النحو انما يغـير طبيعته فى الوقت ذاته ، فهو ينمى القوة الـكامنة الراكدة فى داخـله ويخضع هـذه القوى الداخلية لسيطرته ورقابته ، ولا تعنينا الأشكال البدائية والغريزية من العمل التى نشترك فيها مع الحيوان . إن فترة هائلة من الزمن تفصل الأيام التى كان فيها العمل غريزياً بحتـاً عن العصر الذى يبدو فيه العامل فى سوق السلع بائعاً لما يملك من قوة العمل ، وعلينا أن ندرس العمل في ذلك الشكل الخاص بالنوع الإنسانى . يؤدى العنـكبوت عمليات شبيهة بتلك التى يقوم بها الغزال،

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والمهارة التى تبنى بها النحلة خليتها لتخجل الكثيرين من المهندسين المعماريين . ولكن الشىء الذى يميز أقل مهندس معمارى كفاءة عن أحسن النحل أن المهندس يرسم صورة الخلية فى ذهنه قبل أن يصوغ الأنموذج لها بالشمع . فعملية العمل تنتهى بخلق شىء كان عند بدء العملية موجوداً فى خيال العامل أى على صورة فكرية . فالعامل لا يحدث تغييراً فى الأشياء الطبيعية من حيث الشكل فحسب ، بل إنه فى الوقت نفسه يحقق فى الطبيعة التى توجد منفصلة عن ذاته الغرض الذى وضعه نصب عينيه أو الغرض الذى يتحكم فى أعماله والذى عليه أن يخضع إرادته له . وهذا الإخضاع للارادة ليس عملا مؤقتاً يحدث فى التو واللحظة ، ذلك أنه بغض النظر عن الإجهاد الجثمانى يجب أن تكون إرادته ذات الهدف المقصود والتى تظهر على هيئة انتباه ، قائمة بعملها خلال فترة العمل كلها . وأكثر من هذا ، فكلما قلت جاذبية العمل وطريقته وكلما قل استمتاع العامل بالعمل كشئ يتيح المجال لقواه الجثمانية والعقلية ، زادت حدة الانتباه الذى يوجهه العامل الى العمل .

والعوامل الأولية فى عملية العمل هى أولا العمل نفسه ، وثانياً المادة التى يتناولها العمل وثالثاً أدوانه . ويلقى العمل الإنسانى فى المادة التى يشتغل عليها فى التربة (وتشمل من الناحية الاقتصادية الماء) العذراء التى تمد الإنسان بضروريات الحياة أى بوسائل العيش الجاهزة(١) دون أن يدخل فيها نشاط تلقائى من جانب الانسان . فمادة العمل التى تهيئها الطبيعة تتكون من جميع الأشياء التى يقتصر العمل على فصلها عن العلاقة المباشرة التى تربطها ببيئتها ، ومن أمثلة ذلك السمك الذى يصاد ويبعد عن عنصره الطبيعى ، والخشب الذى يتساقط على الأرض فى الغابة البدائية ، وخامات المعادن . أما اذا كانت المادة التى يتناولها وليدة عمل سابق فإننا ندعوها المادة الخام ، ومن ذلك مثلا خامات المعادن التى توجد مصادفة بعد غسلها. إن كافة المواد الخام هى المادة التى يتناولها العمل ، ولكن لا نستطيع أن نقول العكس وهو أن كل مادة يتناولها العمل هى مادة خام . فمادة العمل إنما تصبح مادة خاماً إذا ما غيرها العمل بطريقة ما.

وأداة العمل شىء أو مجموعة أشياء يجعلها العامل بينه وبين مادة العمل وتقوم بمهمة

---

(١) ,, نظراً لكون المنتجات التى تخرجها الأرض بصفة تلقائية قليلة المقدار ومستقلة تماماً عن الانسان فانها تبدو كأن الطبيعة قدمتها بنفس الطريقة التى يعطى بها مبلغ صغير لشاب لحمله على العمل والنشاط وتكوين ثروة .

James Steuart, Principles of Political Economy Dublin edition. 1770, vol. 1., p. 116.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الموصل لنشاطه ، فهو يستخدم الخواص الميكانيكية والطبيعية والكيماوية للأشياء كوسيلة لفرض قوته على هذه الأشياء ولكى يجعل هذه الأشياء الأخرى تخدم أغراضه وغاياته(١) . واذا أسقطنا من حسابنا جميع وسائل العيش الجاهزة كالفاكهة وهو الغرض الذى من أجله تكفى أجهزة الجسم الإنسانى كأدوات عمل ، فإن الشيء الذى يشرف عليه العامل إشرافاً مباشراً ليس مادة وإنما أداته . وهكذا تصبح الطبيعة أداة لنشاطه يكمل بها أجهزة الجسم بأن يضيف قدراً إلى طوله أو بنيته . فالأرض كما أنها المخزن البدائى له كذلك هى المكان الأصلى للأدوات التى يستعين بها . مثال ذلك أنها تمده بالحجارة التى يتخذ منها سلاحاً ويستخدمها للطحن والعصر الخ ، وهى أداة عمل ولكن استخدامها على هذا النحو فى الزراعة يحتاج إلى جانبها عدداً من أدوات العمل الأخرى ، والزراعة تفترض مقدماً درجة عالية نسبياً من تطور قوة العمل(٢) فبمجرد أن تتقدم عملية العمل تقدماً معتدلا تطلبت أدوات عمل دقيقة الصنع . ففى أقدم الكهوف التى سكنها الإنسان أدوات وأسلحة . ومنذ فجر التاريخ الانسانى تجد الإنسان إلى جانب استعماله الأشياء الحجرية التى صنعها وقطع الخشب والعظام عرف أن يستفيد من خدمات الحيوانات المستأنسة على أنها أدوات عمل ، وهذه الحيوانات التى استأنسها العمل الانسانى وعدلها ورباها من أولى أدوات العمل البدائية(٣) وبرغم أننا نجد البدايات الأولى لأدوات العمل بين أنواع معينة من الحيوان الا أن استعمالها وصنعها مما يتميز به الجنس الانسانى ولهذا قال بنيامين فرنكلين إن الانسان «حيوان يصنع الآلات» ولا تقل مخلفات أدوات العمل أهمية فى دراسة الأشكال الاقتصادية والاجتماعية عن الحفريات فى دراسة تنظيم الأجناس المنقرضة . لا تتميز العصور الاقتصادية المختلفة بالفوارق

---

(١) « ... يتميز العقل بالدهاء كما يتصف بالقوة ويبدو هذا الدهاء بطريقة غير مباشرة فهو عن طريق الأفعال وردود الأفعال بين الأشياء وطبقاً لطبيعتها يستطيع بدون التدخل المباشر فى هذه العملية أن يجعل الأشياء تتحرك صوب الغايات التى يريد تحقيقها »

Hegel, Encyklopadie, prat. Logic, Berlin 1840, p. 382.

(٢) يعدد جانيه فى كتابه Theorie de l'économie politique, Paris 1819 السلسلة الطويلة من عمليات العمل السابقة للزراعة حسب المعنى الصحيح لهذه العبارة (وهو فى هذا يعارض جماعة الطبيعيين) .

(٣) يوضح ترجو أهمية الحيوانات المستأنسة فى المراحل المبكرة من الحضارة ، وذلك فى كتابه

Reflexions sur la formation et la distribution des richesses, 1776.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فيما يصنع فعلا بقدر ما تتميز بالاختلاف فى أدوات العمل[١] فليست أدوات العمل معياراً نقيس به تطور وتقدم قوة العمل الانسانية فحسب ، ولكنها تدل كذلك على العلاقات الاجتماعية التى كان يتم أداء العمل فيها . وأدوات العمل ذات الطبيعة الميكانيكية (وهى النوع الذى اذا نظرنا اليه بصفة كلية يصح تسميته الجهاز العظمى والعضلى للانتاج) تلقى على خواص ومميزات أى فترة من عصور الانتاج الاجتماعى ضوءاً أكثر مما تلقيه عليها أمثال الأنابيب والسلال والجرار الخ وهى الأدوات التى وظيفتها أن تكون الأوعية التى تحتوى على المادة التى يقوم العمل بأداء وظيفته عليها (وهذه الأدوات نصفها بوجه عام باسم الجهاز الوعائى للانتاج) ، ومثل هذه الأوعية لا تبدأ تلعب دوراً هاما حتى تظهر الصناعات الكيماوية إلى عالم الوجود[٢] . ولو شئنا التوسع لقلنا ان أدوات العمل ، الى جانب تلك الأشياء التى تستخدم لنقل العمل الى المادة اللازمة له بطريقة مباشرة ، تشمل كافة الأشياء اللازمة لمواصلة عملية العمل . فهناك أشياء مختلفة لا تدخل مباشرة فى عملية العمل ومع هذا لا تستطيع الأخيرة بدونها أن تواصل مهمتها على الوجه الصحيح . ومرة أخرى نقول إن الأرض أعم أداة عمل بهذا المعنى ما دامت تهيء للعامل المجال اللازم لاستخدام نشاطه . والورش والقنوات والطرق الخ تنتمى إلى هذا النوع كما تعد فى الوقت نفسه من أدوات العمل التى أنتجها عمل سابق .

وعلى ذلك يسبب نشاط الانسان بمعونة أدوات العمل تغييرات فى المادة التى يتناولها العمل وهى تغييرات تتم عن قصد خلال عملية العمل . والعملية تختفى فى المنتج ، والمنتج قيمة استعمالية هيأتها الطبيعة وجعلها تغيير شكلها ملاءمة للحاجات الانسانية ، وأصبح العمل داخلا فى مادته أى أنه صار ذا صورة مادية وصيغت مادة العمل وأتقنت . فذلك الذى ظهر فى العامل كحركة يبدو الآن فى المنتج كشىء مستقل أى « ككونية » بدلا من « صيرورة » فالعامل قد قام بالغزل ، والمنتج هو النسيج .

وإذا ما نظرنا إلى عملية العمل من حيث نتيجتها لأتخذ كلا أداة العمل ومادة العمل

---

(١) ان أدوات الترف هى أقل السلع أهمية من حيث الموازنة الفنية بين مختلف عصور الانتاج .

(٢) برغم قلة ميل المؤرخين حتى الآن الى عدم توجيه الاهتمام الى تطور الانتاج المادى الذى هو أساس لحياة الاجتماعية كلها وبالتالى التاريخ الحقيقى كله ، فان العصور السابقة للتاريخ تقسم طبقاً لنتائج البحوث العلمية لاالتاريخية على مايقال لها ، فقد قسمت تبعا للمواد التى كانوا يصنعون منها الأدوات والأسلحة ، وهذا هو السبب الذى من أجله نتحدث عن العصر الحجرى والعصر البرونزى والعصر الحديدى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مظهر أدوات انتاج[١] ، ولاتخذ العمل نفسه مظهر عمل المنتج[٢] . ولو أن القيمة الاستعمالية تنشأ من عملية العمل على هيئة منتَج ، الا أن قيما استعمالية أخرى ، وهى منتجات عمليات عمل سابقة ، تدخل فى عملية العمل الحالية على أنها أدوات إنتاج . وبهذا ليست المنتجات نتائج عملية العمل فحسب ، بل إنها فى الوقت ذاته شروط لازمة فيها .

واذا استثنينا الصناعة الاستخراجية (التى تجد المواد اللازمة لها مهيئة لها فى الطبيعة ، كما هو الحال بالنسبة الى التعدين وصيد الحيوان والسمك والزراعة حتى يمارسها الإنسان فى التربة العذراء) فإن جميع فروع الصناعة تشتغل بمادة تولدت من قبل عن عمل سابق أى بمادة ندعوها المادة الخام ، ومن هذا النوع البذور التى تستخدم فى الزراعة . الحيوانات والنباتات التى يعدها الناس منتجات طبيعية قد لا تكون منتجات العام السابق فحسب ، بل قد تكون فى شكلها الذى هى عليه منتجات عملية تحويل دامت أجيالا كثيرة تحت رقابة الانسان وبمساعدة عمله . وإذا استبعدنا مثل هذه الأمثلة فان أدوات العمل بوجه عام أى العُـــدد توضح فى معظمها آثاراً جلية لعمل سابق .

وقد تتخذ المادة الخام شكل المادة الأساسية للمنتَج أو تكون شيئاً إضافياً يستخدم فى إنتاجه . وقد تستهلك أدوات العمل المادة الاضافية كما هو شأن الآلة البخارية مع الفحم والآلة مع زيت التشحيم وحيوان الجر والحمل مع الدريس ، وقد تضاف المادة المساعدة الى المادة الخام لإحداث تغيير فى الأخيرة كما يضاف الكلورين الى التيل غير المبيض والكربون الى الحديد والأصبغة الى الصوف ، وقد تساعد المواد الإضافية على مواصلة العمل كما هو حال المواد التى تستخدم فى إضاءة الورشة وتدفئتها . ولكن التمييز بين المادة الأساسية والمادة الثانوية يختفى فى الصناعات الكيماوية اذ فيها لا تعود أى من المواد الخام المستخدمة الى الظهور كمادة أو جوهر المنتج[٣] .

وبما أن لكل شىء خواصاً عدة وبذا يمكن الانتفاع به بطرق مختلفة لهـــذا قد يكون نفس المنتج هو المادة الخام لعمليات عمل مختلفة جداً ، فالقمح مثلا مادة خام بالنسبة الى

---

(١) لاشك أنه يبدو من التناقض أن نصف سمكة لم نصطادها بعد كأنها أداة انتاج فى صناعة صيد السمك ومع ذلك لم يكشف أحد بعد كيف يصطاد السمك فى المياه التى لايوجد بها السمك !

(٢) هذه الطريقة فى تعريف العمل الانتاجى أى تعريفه من وجهة نظر عملية العمل وحدها ، تلائم تماماً الشكل الرأسمالى من الانتاج .

(٣) يطلق ستورش على المواد الخام الحقيقية اسم matters وعلى المواد الاضافية اسم material ويصف شربوليه الأخيرة بأنها instrumental matters

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الطحان وصانع النشاء ومقطر الويسكى ومربى الماشية الخ ، ولكنه على هيئة بذور يكون المادة الخام اللازمة لإنتاجه . وفى صناعة التعدين تجد الفحم منتجاً وكذلك أداة الانتاج ،

وفى عملية العمل قد يصلح المنتج أداة عمل ومادة خاماً ، ومن ذلك تسمين الماشية حيث الحيوان مادة أولية وفى الوقت نفسه أداة لانتاج السماد.

والمنتج ذو الشكل القابل للاستهلاك المباشر يمكن أن يصير برغم هذا مادة أولية لعمل منتج آخر فالكروم المادة الخام لعمل النبيذ . ومن جهة أخرى قد يمدنا العمل بمنتج فى شكل لا يصلح الا للاستعمال كمادة أولية ومثال ذلك القطن الخام والغزل الخ ، فبرغم أن مثل هذه المادة ذاتها منتج إلا أن عليها أن تمر خلال سلسلة كاملة من عمليات مختلفة ، وفي كل من هذه العمليات وفي ظل أشكال متغيرة على الدوام تؤدى هذه المادة دور الخام الى أن تخرج من آخر عملية فى السلسلة وقد صارت منتجاً تام الصنع صالحاً للاستهلاك الفردى أو لاستعماله كأداة من أدوات العمل .

من ذلك نرى أن مسألة كون القيمة الاستعمالية مادة أولية أو أداة عمل أو منتجات تتوقف تماماً على وظيفة هذه القيمة أو محلها فى عملية العمل . فاذا ما تغير محلها وجب وضعها فى طبقة أخرى من جديد .

وعلى ذلك حينما يدخل المنتج كأداة إنتاج فى عملية عمل جديدة فانه يفقد طابعه كمنتج ولا يصير أكثر من عامل فى تلك العملية . ان الغزال ينظر الى المغازل على أنها مجرد أدوات والى الكتان على أنه المادة التى يتناولها بعمله وهو الغزل . ومن المؤكد أنه ما من شخص يستطيع أن يغزل من غير مادة للغزل ومغازل ، فمن المفروض عند بدء عملية الغزل سبق وجود هذه الأشياء ، ولكن الغزال لا يعنيه أن الكتان والمغازل منتجات عمل سابق كما أن المعدة وهى مشغولة بعملية الهضم لا يهمها كون الخبز وليد عمل سابق من جانب زارع التربة والطحان والخباز الخ . وحينما يحدث خلال عملية العمل أن أدوات الإنتاج تلفت النظر الى ما تتميز من حيث كونها منتجات عمل سابق ، فاننا نجد حقاً أنها تفعل ذلك بسبب ما بها من نقائص ، فحينما يضطر المرء الى استخدام سكين بارد فان هذا يذكره على الدوام بمن صنعه، وحينما تستخدم الخياطة خيطاً يتقطع باستمرار فانها لا تنسى الغزال . ولكن بغض النظر عن هذه النقائص ففى المنتج التام الصنع يخفى العمل الذى به اكتسب هذا المنتج صفاته النافعة .

ليس من نفع فى الآلة التى لا تحقق أغراض العمل ، كما أنها تتعرض لفعل القوى الطبيعية المدمر فمثلا يصدأ الحديد ويفسد الخشب . وغزل القطن الذى لا يستعمل فى النسج أو عمل الجوارب قطن ضاع سدى . فيجب على قوة العمل أن تتناول هذه الأشياء وتهزها

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من رقادها الشبيه بالموت وتغيرها من قيم استعمالية كامنة راكدة إلى أخرى حقيقية متحركة ، فاذا ما أثيرت خلال عملية العمل لكى تؤدى وظائفها فانها تستهلك حقاً لتكون العناصر التى تتكون منها قيم استعمالية جديدة ، أو منتجات جديدة على استعداد للدخول فى مجال عملية الاستهلاك الفردى بصفتها وسائل عيش ، أو فى عملية عمل جديدة بوصفها أدوات إنتاج . لما كانت المنتجات القائمة شرطاً لازماً لعملية العمل لا مجرد نتائج هذه العملية ، فانا نجد من جهة أخرى أن الوظيفة الوحيدة التى يمكن بها لهذه المنتجات الناجمة عن عمل سابق أن تحتفظ بصفتها قيما استعمالية وتحققها إنما تكون باندماجها فى عملية العمل أى بأن نجعلها تتصل وتحتك بالعمل الحى .

والعمل عملية استهلاك لأنه يستهلك عناصره المادية من مادة وأدوات . مثل هذا الاستهلاك الانتاجى يختلف عن الاستهلاك الفردى من حيث أن الأخير يستهلك المنتجات على أنها وسائل عيش الفرد الحى بينما يستخدمها الأول كوسائل يتمكن بها العمل وحده أى قوة عمل الفرد الحى من أداء مهمته ، فالمستهلك نفسه هو منتَج أى وليد الاستهلاك الفردى بينما نتيجة الاستهلاك الانتاجى منتج متميز عن المستهلك .

وبقدر ما تكون أدوات العمل ومادته منتجات فان العمل يستهلك هذه المنتجات لينتج بها غيرها وكما أنه فى حالة البداوة لا يزيد المشتركون فى عملية العمل عن الإنسان والأرض كذلك تستخدم فى عملية العمل وسائل انتاج معينة تمدنا بها الطبيعة مباشرة أى وسائل ليست اتحاداً من المواد الطبيعية والعمل الانسانى .

بتحليل عملية العمل الى عواملها الأولية البسيطة نراها عبارة عن نشاط ذى هدف مقصود هو إنتاج القيم الاستعمالية ، أى ملاءمة المواد الطبيعية للحاجات الانسانية ، أو هى الشرط العام اللازم لاتمام التبادل فى المادة بين الانسان والطبيعة ، أو أنها الحالة التى تفرضها الطبيعة دائماً على الحياة الانسانية وبذا تكون مستقلة عن أشكال الحياة الاجتماعية أو بالأحرى مشتركة بالنسبة الى كافة الأشكال الاجتماعية . ولذا كان من لغو القول أن نمثل العامل كأنه موجود على اتصال بالعمال الآخرين ، وكان يكفى أن نصف الانسان وعمله فى جانب والطبيعة ومواردها فى الجانب الآخر . إننا حين نأكل الخبز لا نعرف من طعمه من زرع القمح ، وكذلك حين ندرس عملية العمل فانها لا تدلنا على الأحوال التى سارت فيها هذه العملية سواء كان ذلك تحت صوت مقدم العبيد أو تحت أنظار الرأسمالى ، أو سواء يؤدى الزارع عملية العمل بفلاحة مزرعته الصغيرة أو يذبح المتوحش حيواناً برياً بالحجارة(١) ولنرجع الآن الى

(١) بسبب هذه الحقيقة التى لا نزاع فيها استطاع الكرنل تودنز أن يقوم بهذا العمل المنطق الرائع وهو أنه =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

صاحبنا الذى سيكون رأسمالياً . لقد تركناه بعد أن اشترى فى السوق الطليقة كافة لوازم عملية العمل وهى أدوات الانتاج وقوة العمل الملاءمة لعمله كالغزل وعمل الأحذية أو ما إلى ذلك . والآن يأخذ فى العمل على أساس استهلاك السلعة التى اشتراها أى قوة العمل، وبعبارة أخرى يحمل العامل الذى يملك هذه القوة على أن يستهلك أدوات الانتاج بواسطة عمله . وبطبيعة الحال لا يطرأ تغيير ما على الماهية العامة لعملية العمل بسبب أن العامل يمارسها من أجل الرأسمالى بدلا من يقوم بها لنفسه ، كما أن الطريقة المخصوصة لعمل الأحذية أو الغزل ينتابها التغيير بسبب أن الرأسمالى تدخل عند مرحلة معينة من هـــذه العمليـات . على الرأسمالى أن يبدأ بأن يأخذ قوة العمل كما يجدها فى السوق ، وبذا يجب عليه أن يقنع بالعمل كما هو موجود فى الفترة السابقة مباشرة لقيـام الرأسماليين . إن التغييرات فى أسلوب الانتاج التى يسببها خضوع العمل لرأس المال لا تنشأ إلا فى مرحلة متأخرة ، ولا يمكن دراستها الآن .

ولو نظرنا الى عملية العمل على أنها العملية التى يستهلك بها الرأسمالى قوة العمل لوجدنا لها خاصيتين بارزتين :

فأولا يقوم العامل بعمله تحت إشراف الرأسمالى الذى يملك عمله . ويعنى الرأسمالى بأن يتم أداء العمل على وجـه صحيح . وأن تستخدم أدوات الإنتاج بطريقة ملاءمة ، والا يتبدد أى جانب من المادة الخام ، والا تضار أدوات العمل بحيث لا تستهلك إلا بالقدر الضرورى لإتمام عملية العمل .

وثانياً فالمنتج ملك لصاحب رأس المال لا للعامل أى المنتج المباشر . لنفرض أن الرأسمالى يشترى عمل يوم حسب قيمته ، ففى هذه الحال يصبح استعمال قوة العمل هذه ملكا له فى ذلك اليوم (كما يحدث عند استئجار حصان مثلا مدة يوم واحد) ان لمن يشترى سلعة الحق فى استعمالها ، وصاحب قوة العمل لايستطيع فى الواقع الا أن يعطى القيمةالاستعمالية لما باع وذلك بإعطاء عمله . ومنفذ اللحظة التى يدخل فيه ورشة الرأسمالى تصير القيمة الإستعمالية

= كشف أصل رأس المال فى الحجارة التى يرميها المتوحش ،،فى الحجرالأول الذى يلقيه على مايطارده من الحيوان ، وفى العصا التى يمسك بها ليسقط الثمرة التى تبعد عن متناول يده ، نرى تخصيص أداة ما بقصد المساعدة فى الاستحواذ على أخرى ، وهكذا نكشف عن نشأة وأصل رأس المال ،،

An Essay on the Production of Wealth, etc, p. p.70—71

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لقوته على العمل أى استعمالها ملكا للرأسمالى . وهذا الأخير إذ يشترى قوة العمل يدمج العمل كعميرة حية بعناصر المنتج العديمة الحياة (والتى هى ملك له كذلك) . وليست عملية العمل من وجهة نظره إلا استهلاك لقوة العمل التى اشتراها والتى لا يستطيع استهلاكها إلا إذا أمدها بأدوات إنتاج . إن عملية العمل تحدث بين أشياء اشتراها الرأسمالى وصارت متاعاً له ، وبذا يصير منتجها ملكا له شأنه فى ذلك شأن النبيذ الذى تنتجه عملية تخمير تتم فى قبو الرجل[1].

(٢) انتاج فائض القيمة

والمنتج الذى يملكه الرأسمالى قيمة استعمالية كالغزل والأحذية الخ . ولكن برغم أن الأحذية من أساس التقدم الاجتماعى وبرغم أن صديقنا الرأسمالى يعمل من أجل التقدم ، إلا أنه لا يصنع الأحذية لذاتها لأن المرء ينتج السلع لأنها مستودعات للقيمة التبادلية . إن لصديقنا الرأسمالى هدفين أولهما إنتاج قيمة استعمالية لها قيمة تبادلية ، أى أداة معدة للبيع وبعبارة أخرى سلعة . وثانيهما إنتاج سلعة تفوق قيمتها المجموع الكلى لقيم ما استهلك فى إنتاجها من السلع أى القيمة الكلية لأدوات الإنتاج وقوة العمل مما دفع ثمنه فى سوق السلع . إنه يريد أن ينتج سلعة لا قيمة استعمالية فحسب ، وقيمة إلى جانب القيمة الاستعمالية ، وفائض قيمة علاوة على القيمة .

ويتجه اهتمامنا الحالى إلى إنتاج السلع ، وواضح أننا لم نبحث حتى الآن سوى جانب واحد من العملية . وكما أن السلعة وحدة مكونة من القيمة الاستعمالية والقيمة كذلك يجب أن

---

(١) ,, يحدث الاستحواذ على المنتجات قبل تحولها الى رأس مال ، وهذا التحول لا يخرجها عن مجال الاستحواذ عليها ،، Cherbuliez : Riche ou Pauvre, Paris 1841, pp.53—54 ,, وان العامل اذ يبيع عمله مقابل كمية محدودة من ضروريات الحياة يتنازل عن كافة الحقوق فى نصيب من المنتج . وتظل طريقة امتلاك المنتجات كما كانت من قبل ولا تتغير عن طريق المساومة التى اشرنا اليها فالمنتج ملك خاص للراسمالى الذى يقدم المادة الخام وضروريات الحياة وهى نتيجة عنيفة من نتائج قانون الامتلاك ذلك القانون الذى مبداه الأساس العكس تماما وهو ــ العكس ــ الذى يقول ان لكل عامل الحق الوحيد له فى ملكية ماينتج ،، شرحه ص ٥٨ ــ ,, حينما يأخذ العمال اجوراً عن عملهم ... يصير الراسمالى المالك للعمل ايضاً لا الرأس المال وحده (ويراد بالأخير ادوات الانتاج) ,, فاذا كانت كلمة راس المال تشمل الأجور التى تدفع ــ كما هى العادة الشائعة ــ فمن السخف ان نتحدث عن العمل منفصلا عن راس المال . ان كلمة راس المال على هذا النحو الذى تستخدم به تشمل كلا العمل وراس المال ،،

James Mill ; Elements of Political Economy, 1821, p.p.. 70—71.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تكون عملية إنتاج السلعة وحدة من عملية العمل وعملية خلق القيمة . وعلى ذلك لننظر إلى عملية الإنتاج كعملية لإنتاج القيمة .

نعلم أن قيمة كل سلعة تتحدد بمقدار وقت العمل اللازم لإنتاجها فى ظل أحوال اجتماعية معينة . وتصدق هذه القاعدة على مايحصل عليه الرأسمالى من منتج نتيجة لعملية العمل ، وسنبدأ الآن بحساب العمل الذى صار ذا شكل موضوعى فى المنتج .

لنفرض أن المنتج غزل . وكان أول شىء لازم لعمل الغزل المادة الأولية ولتكن ١٠ أرطال من القطن ، ولتكن قيمة القطن فى السوق الحرة ١٠ شلنات . وفى ثمن القطن يتمثل مقدار متوسط العمل الاجتماعى اللازم لإنتاجه ، ولنفرض كذلك أن استهلاك المغزل (وسنستعمل هذه الكلمة للدلالة على أدوات العمل) يمثل قيمة قدرها شلنان . فإذا تطلب إنتاج كمية من الذهب ثمنها ١٢ شلنا ٢٤ ساعة عمل أو يومى عمل ، فإننا نبدأ إذن بافتراض وجود عمل يومين فى الغزل .

ويجب ألا تضللنا حقيقة كون القطن قد اتخذ شكلا جديداً وأن بعض مادة الغزل ضاعت دون علمنا بسبب الاستهلاك . فحسب قانون القيمة العام إذا كانت قيمة ٤٠ رطلا من الغزل مساوية لقيمة ٤٠ رطلا من القطن زائداً قيمة المغزل كله ، وبعبارة أخرى إذا كان نفس مقدار وقت العمل لازماً لانتاج السلع فى كل طرف من طرفى هذه المعادلة ، فإن ١٠ أرطال من الغزل تكون معادلا لعشرة أرطال من القطن زائداً المغزل . وفى الحالة التى نحن بصددها نفس مقدار وقت العمل الذى كان موجوداً من قبل فى القطن والمغزل نجده داخلا فى القيمة الاستعمالية وهى الغزل : فالقيمة كما هى وذلك سواء ظهرت على هيئة غزل أو مغزل أو قطن ، فالمغزل والقطن بدلا من وجودهما جنبا إلى جنب اتحدا فى عملية الغزل . لقد تغيرت أشكالها الاستعمالية ، ولكن قيمتها لم تتأثر بهذا أكثر مما لو تأثرت فى حالة ما إذا تحولت إلى معادل للغزل بواسطة تبادل بسيط بدلا من عملية العمل .

إن وقت العمل اللازم لإنتاج القطن وهو المادة الخام للغزل جزء من وقت العمل اللازم لإنتاج الغزل وبذلك يكون داخلا فى الغزل . وتنطبق نفس الملاحظة على وقت العمل اللازم لإنتاج ذلك الكسر من المغزل الذى لاغنى عن استهلاكه لعملية غزل القطن (١) .

---

(١) ان الذى يؤثر فى قيمتها ليس فقط العمل الذى يدل فى الحال على السلع ، بل وذلك الذى يدل على الأدوات والعدد والمبانى التى تساعد مثل هذا العمل » . Ricardo, op. cit., 16.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وعلى هذا حين نأخذ فى تعيين قيمة الغزل (أى قيمة وقت العمل اللازم لإنتاجه) فإن كافة عمليات العمل المختلفة اللازمة لانتاج القطن الخام والجزء المستهلك من المغزل والتى تمت فى أوقات مختلفة وأماكن مختلفة ، وكذلك وقت العمل الضرورى من بعد ذلك لعمل الغزل من القطن الخام والمغزل — نقول إن هذه جميعها يجب أن نعدها مظاهر مختلفة متتالية فى نفس عملية العمل الواحد .

إن جميع مايحتوى عليه الغزل من عمل إنما هو عمل ماض ، ولا يهم مطلقا أن العمل اللازم لآخر مرحلة فى العملية وهى الغزل الفعلى لم يتم أداؤه إلا من وقت وجيز جداً . فإذا كان بناء بيت يحتاج إلى كمية محدودة من العمل ولتكن ثلاثين يوما فإن المجموع الكلى لوقت العمل الذى يتجسم فى البيت لايؤثر فيه أن اليوم الثلاثين من أيام العمل جاء بعد اليوم الأول بتسع وعشرين . وعلى ذلك يمكن أن ننظر إلى وقت العمل الذى تتضمنه المادة الخام وأدوات العمل على أنه مجرد وقت عمل بذل فى مرحلة متقدمة أو سابقة من عملية العمل الفعلى والنهائى للغزل .

وعلى ذلك فقيم أدوات الإنتاج والقطن والمغزل التى يعبر عنها فى الثمن البالغ ١٢ شلناً عبارة عن عناصر داخلة فى تكوين قيمة الغزل أى قيمة المنتج .

ولكن لابد من تحقيق شرطين أولهما أن يكون القطن والغزل قد قاما بمهمتهما فعلا فى إنتاج قيمة استعمالية . ففى الحالة التى ندرسها لابد أن الغزل قد نشأ عنهما . إن القيمة يمكن أن تكون متجسمة فى أية قيمة استعمالية شئت ولكن يجب أن يكون ذلك فى قيمة استعمالية من نوع ما . وثانياً نفترض استهلاك ذلك المقدار فقط من وقت العمل الضرورى فى ظل أحوال الانتاج الاجتماعية القائمة . وعلى ذلك إذا كان رطل من القطن لازماً لغزل رطل من الغزل فلا بد أن رطلا من القطن فقط قد استهلك فى انتاج رطل الغزل ، وينطبق نفس الأمر على المغزل .

فإذا تراءى لصاحبنا الرأسمالى أن يستخدم مغازل ذهبية بدلا من الحديدية فمع هذا ففى قيمة الغزل المصنوع فى منشأته لاأهمية إلا لوقت العمل اللازم اجتماعياً ، ومعنى هذا وقت العمل اللازم لإنتاج المغازل المصنوعة من الحديد .

إننا نعلم الآن أى جزء من قيمة الغزل يتكون من أدوات الانتاج ومن القطن والمغازل ، وتبلغ هذه ١٢ شلنا أى قيمة عمل يومين . وعلينا بعد ذلك أن نبحث ذلك المقدار من القيمة الذى يضاف إلى القطن بواسطة عمل ذلك الذى يصنع الغزل . وفيما يختص بأغراضنا الحالية

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أن نبحث أمر هذا العمل من وجهة نظر جديدة تخالف تماماً نظرتنا حينما كنا ندرس مسألة عملية العمل إذ فى تلك الحالة كان همنا موجهاً إلى ذلك النشاط الذى له هـــدف معين ويرمى إلى تحويل القطن إلى غزل ، ورأينا إذ ذاك أنه فى حالة تساوى الأشياء الأخرى كلما زاد الغرض من العمل كلما حسن الغزل .

لقد كان عمل الغزال مختلفاً من حيث صفته عن الأنواع الأخرى من العمل الإنتاجى ووضح الفارق فى كلا الناحيتين الذاتية والموضوعية من حيث الغرض المخصوص من الغزل ، وطريقة العمل المخصوصة ، والطبيعة الخاصة لأدوات الإنتاج ، والقيمة الاستعمالية الخاصة للمنتج . فالقطن والمغازل أدوات للغزل ولكنها غير ذات فائدة أصلا لصنع المدافع . وبرغم هذا فلما كان عمل الغزال منبعاً للقيمة فإنه لا يختلف من أى ناحية عن عمل الشخص الذى يصنع المدافع ، ولا يختلف عن عمل زارع القطن وصانع المغزل وهما العملان اللذان تتضمنهما أدوات إنتاج الغزل. وبسبب هذا التماثل فقط يستطيع زرع القطن وصنع المغازل والغزل تكوين أجزاء مختلفة من نفس القيمة الكلية الواحدة وهى قيمة الغزل (وهذه الأجزاء تختلف فيما بينها من حيث الكم فقط) . ولا يعنينا بعد ذلك صفة العمل وماهيته وطابعه المخصوص ، وإنما الذى يعنينا هو كميته . وهذا مجرد عملية حساب فنفرض أن عمل الغزل عمل عادى أى عمل اجتماعى متوسط . وسنرى فيما بعد أن الغرض العكسى لايسبب أى اختلاف .

فى خلال عملية العمل يتغير العمل باستمرار من حالة الحركة إلى شىء يتخذ شكل أو جسم مادة ، ففى نهاية الساعة الواحدة تصبح حركات الغزل ممثلة فى كمية محدودة من الغزل أى كمية محدودة من العمل ، وبعبارة أخرى تندمج ساعة عمل فى القطن . وحين نقول ساعة عمل نقصد مايبذل الغزال من طاقة فى هذه الساعة لأن عملية الغزل المخصوصة تحسب هنا كبذل لقوة العمل بوجه عام ، ولا تحسب كعمل مخصوص يؤديه الغزال .

ومما له أهمية حاسمة فى بحثنا الحالى ألا يُبذل فى تحويل القطن إلى غزل وقت أكثر مما يلزم فى ظل الأحوال الاجتماعية السائدة . فإذا كان ١ رطل من القطن فى ظل متوسط أحوال إنتاج اجتماعية يتحول خلال ساعة عمل إلى ب من أرطال القطن فإن يوم عمل طوله ١٢ ساعة لايحسب كيوم عمل ذى ١٢ ساعة إلا إذا تحولت ١٢ ١ رطل قطن خلال ذلك اليوم إلى ١٢ ب رطل غزل ، إذ فى خلق القيمة لاأهمية إلا لوقت العمل الضرورى فى ظل أحوال اجتماعية معينة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولا يقتصر الأمر على العمل بل إن المادة الخام والمنتج يتخذان مظهراً مختلفاً تماماً عن المظهر الذى كان لهما حينما كنا ننظر إليهما فقط فى عملية العمل . وفيما يختص بفرضنا الحالى تنحصر أهمية المادة الخام في أنها تمتص كمية محدودة من العمل وبذا يتغير القطن الخام إلى غزل ، وتضاف إلى القطن الخام قوة عمل على شكل غزل . ولكن المنتج أى الغزل ليس الآن أكثر من مقياس للعمل الذى امتصه القطن . فإذا غزلنا ١ ⅔ من أرطال القطن فى ساعة واحدة كانت ١٠ أرطال من الغزل تمثل امتصاص ٦ ساعات من العمل . إن المقادير المحدودة من المنتج (وهى مقادير تتحدد بالتجربة) لا تمثل أكثر من مقادير محدودة من العمل أو وقت العمل المتجمد ، وليست سوى الصورة التى تتجسم فيها ساعة أو ساعتان أو يوم الخ من العمل الاجتماعى .

فى المثال الذى ضربناه العمل هو عمل الغزال ، والمادة الخام هى القطن ، والمنتج هو الغزل ، ولكن هذه الحقائق لاتهمنا الآن أكثر مما يهمنا كون المادة التى يتناولها العمل منتجاً وبالتالى مادة أولية . فإذا كان معدّناً فى منجم فحم بدلا من أن يكون غزالا كانت المادة التى يتناولها بعمله وهى الفحم مما هيأته الطبيعة ، ومع ذلك فمقدار محدود مما يستخرج من الفحم وليكن ذلك هندروديت مثلا يمثل إذ ذاك كمية محدودة من عمل سبق امتصاصه .

حينما يبعث قوة العمل فرضنا أن قيمتها فى يوم واحد ٣ شلنات وأن ذلك المبلغ ينطوى على عمل ٦ ساعات ، ومعنى هذا أن ٦ ساعات من العمل لازمة لإنتاج متوسط كمية وسائل العيش التى يتطلبها العامل يومياً .

فإذا كان صاحبنا الغزال يحول فى الساعة ١ ⅔ رطل من القطن إلى ١ ⅔ رطل من الغزل أمكن تحويل ١٠ أرطال من القطن إلى ١٠ أرطال من الغزل فى ٦ ساعات ، وبهذا تكون عشرة أرطال القطن قد امتصت فى عملية العمل ٦ ساعات من العمل . ونفس هذا المقدار من وقت العمل تمثله قطعة ذهبية قيمتها ٣ شلنات ، وعلى ذلك سبب الغزل إضافة قيمة قدرها ٣ شلنات إلى القطن .

لننظر الآن إلى قيمة المنتج الكلية وهو عشرة أرطال من الغزل ، ففى هذه الكمية يتجسم ٢ ⅓ من أيام العمل منها يومان فى القطن الخام والمغزل ونصف يوم امتصه القطن خلال عملية تحويله إلى غزل . وتحتوى قيمة ذهبية قدرها ١٥ شلن على هذا المقدار من وقت العمل ، وبهذا يكون مبلغ ١٥ شلناً ثمناً مناسباً للعشرة أرطال من الغزل ويكون ثمن رطل الغزل شلناً وست بنسات .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إن صديقنا الرأسمالى يعرف ما يفعل ، فقيمة المنتج مساوية بالضبط لقيمة رأس المال الذى قدمه من قبل ، ولم يطرأ أى تمدد فى القيمة التى دفعها . ولم ينتج فائض قيمة . أى لم تتحول النقود إلى رأس مال .

فثمن عشرة أرطال من الغزل ١٥ شلن وهذا المبلغ أنفق فى سوق السلع على العناصر التى تكون المنتج أى على عوامل عملية العمل . هذا الرأسمالى أنفق ١٠ شلنات على القطن الخام ، شلنين على مقدار مايستهلك من المغزل ، ٣ شلنات على قوة العمل . وزيادة قيمة الغزل إذا ما قورنت بقيمة القطن لاتساعده بأى حال من الأحوال لأن الزيادة تمثل فقط استهلاك المغزل والمقدار الذى أنفق على قوة العمل .

إن فائض القيمة لا يمكن أن ينشأ من مثل عملية الجمع البسيطة هذه للقيم الموجودة من قبل[١] هذه القيم متركزة الآن جميعاً فى شىء واحد ، ولكنها كانت بالمثل مركزة فى مبلغ ١٥ شلن قبل تقسيمه أجزاء لشراء ثلاث سلع مختلفة .

فى الحقيقة ليس فى هذه النتيجة أمر غريب . إن قيمة رطل الغزل شلن وست بنسات ، وعلى ذلك كان على الرأسمالى أن يدفع فى سوق السلع ١٠ شلنات ، فسواء اشترى المرء منزلا جاهزاً أو أمر ببناء منزل له فإن طريقه الحصول على المنزل لا تؤثر فى مبلغ النقود الذى خصص للاستيلاء على البيت .

ولما كان ذلك الرأسمالى مشبعاً بمثل الاقتصاد العامى قد يحدثنا أنه دفع نقوده لكى يحصل بذلك على قدر أكبر ، وجوابنا على ذلك أن طريق الجحيم قد يكون ممهداً بالنوايا الحسنة وأنه يستطيع أن « ينوى » الحصول على قدر أكبر من النقود بدون الدخول فى ميدان الإنتاج[٢]

---

(١) هنا لدينا الأساس الذى يقوم عليه مذهب الفيزيوكرات وهو المذهب الذى يقول ان العمل الزراعى وحده هو الانتاجى أو المنتج . وفضلا عن هذا فحجة الطبيعيين ثابتة بالنسبة للاقتصاديين الارثوذكس (وهى طريقة اضافة قيمة أشياء أخرى الى شىء واحد ومثال ذلك أن نضيف الى الكتان نفقة المحافظة على الغزال) ومعنى ذلك وضع طبقة على أخرى وفرض قيم عدة على قيمة واحدة — نقول ان هذه تترتب عليها زيادة متناسبة مع الأخيرة ... وكلمة ,, اضافة ،، صالحة جداً بالنسبة الى الطريقة التى يتكون منها ثمن منتجات العمل اليدوى لأن هذا الثمن ليس سوى المجموع الكلى لعدة قيم استهلكت وأضيفت ... والاضافة ليس هى المضاعفة ،،

Mercier de la Rivière, op. cit. p. 599

(٢) ومثال ذلك أنه فى السنوات ١٨٤٤ - ١٨٤٧ كان يسحب بعض رأس ماله من مشروع منتج لكى يضارب فى أسهم السكك الحديدية . وكذلك فى أيام الحرب الأهلية الأمريكية كان يغلق مصنعه ويلقى بماله فى عرض الطريق لكى يقامر فى بورصة القطن بليفربول .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وهو سيشترى فى المستقبل سلعاً جاهزة من السوق بدلا من أن يصنعها ، ولكن أين يجد السلع إذا حذا إخوانه الرأسماليون حذوه ؟ إنه لن يأكل النقود ، وحين نذكره بهذا يقول : « انظروا إلى مدى الحرمان الذى تعرضت له ، فقد كان فى استطاعتى أن أقضى وقتاً طيباً بالشلنات الخمس عشرة ، ولكنى عمدت إلى استهلاك النقود بطريقة إنتاجيه فاستخدمتها لعمل الغزل . حسناً هذا ! وجزاؤه الغزل بدلا من وخز الضمير . أما عن تمثيله دور البخيل فعليه ألا يفعل ذلك إذ رأينا مثل هذا التصرف لايؤدى إلى أية نهاية .

ومهما كان ذلك الحرمان داعياً للثناء فالرأسمالى لاينال أجراً على هذا مادامت قيمة المنتج الناتجة من عملية العمل مساوية للمجموع الكلى من قيم السلع التى استهلكت فى عمل ذلك المنتج . يجب عليه أن يقنع بما يعرفه من أن للفضيلة جزاءها ، ولكنه يغضب فيقول « ليس الغزل بذى نفع لى ، ولم أنتجه إلا كى أبيعه » — « حسناً ! إذن بعه . أو هناك سبيل أبسط من هذا وهو أن تعمل فى المستقبل على إنتاج الأشياء التى تقضى حاجاتك ، وهذا هو الدواء الذى أشار به عليك طبيبك ماك كولوخ Mc Culloch علاجاً للافراط فى الإنتاج » — هنا يشتد عناد صاحبنا فيتساءل : « أيستطيع العامل أن ينتج سلعاً من لاشىء ؟ ألم أزوده بالمواد التى بها وحدها يمكن أن يتخذ عمله صورة محسوسة ؟ بما أن الجانب الأكبر من المجتمع يتكون من أمثال هؤلاء المسرفين ، ألم أسد للمجتمع خدمة لاتقدر بما لدى من أدوات إنتاج وقطن ومغازل ؟ ألم أخدم العامل فى الوقت نفسه إذ زودته بضروريات الحياة ؟ ألا جزاء لى على هذه الخدمات ؟ حسناً ! . وماذا عن العامل ، ألم يؤد لك خدمة مقابل أخرى بأن حول قطنك ومغازلك إلى غزل ؟ » .

وفضلا عن هذا ليست المسألة هنا مسألة خدمات[1] . إن الخدمة هى مجرد النتيجة المباشرة

---

(١) عليك بالانتفاع من ذاتك على أحسن مانستطيع وأبرز ماتمتاز به ... ولكن من يأخذ اكثر او افضل مما يعطى مراب ولا يودى خدمة لجاره وانما يسيء اليه كما يفعل حين يسرق . ليس كل مايقال له خدمة ومنفعة بخدمة ومنفعة حقيقة لجار المرء . فالزانية والزانى يخدم كل منهما الآخر ويمنح كل منهما لذة للآخر . والفارس يسدى الى المجرم خدمة عظيمة اذ يساعده على ارتكاب السرقات فى الطريق الرئيسية العامة وعلى النهب يرتكبه بصدد الأراضى والبيوت . وانصار البابا يخدمون قومنا كثيراً من حيث انهم لايغرقونهم ولايحرقونهم ولايقتلونهم مرة واحدة او يتركونهم فى السجون حتى يهلكوا بل يسمحون للبعض منهم بالبقاء ويكتفون بطردهم والاستيلاء على مايملكون . ان الشيطان نفسه يسدى الى خدامه خدمة عظيمة يتعذر تقديرها ... وبعبارة واحدة ، ان العالم ملىء بالخدمات والمنافع العظيمة الزائفة يومياً .. Martin Luther An die Pfarrherm wider den Wucher zu predigen, etc., Wittenberg, 1540.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لقيمة استعمالية سواء سلعة أو عمل(١). ولكن هنا علينا أن نعنى بالقيمة التبادلية . لقد دفع الرأسمالى للعامل قيمة قدرها ٣ شلنات ، فأعطاه العامل معادلا مضبوطاً أى قيمة بقيمة بأن أضاف قيمة قدرها ٣ شلنات إلى القطن . هنا يتخذ صاحبنا موقف العمال فيقول « ألم أشتغل ؟ ألم أقم بمهمة الإشراف ؟ ألم أشرف على الغزال ؟ أليس هذا العمل كذلك ذا قيمة ؟ وهنا يحاول مقدّم العمال والمدير إخفاء ابتساماتهما إزاء هذا ينفجر صديقنا ضاحكا معلناً أنه يدع كل هذه الأقوال لأساتذة الاقتصاد السياسى الذين يؤجرهم لمثل هذا « أما من جهتى فأنا رجل عملى ، وبرغم أنى خارج ساعات العمل قد أتكلم أحياناً بدون تفكير ، إلا أننى فى العمل أدرك مايجب معرفته ».

لنمعن النظر فى المسألة ، كانت قيمة قوة العمل فى اليوم ٣ شلنات إذ كان يتجسم فيها عمل نصف يوم وبعبارة أخرى لأن وسائل العيش اللازمة يومياً لإنتاج قوة العمل كانت تساوى نصف يوم عمل . ولكن العمل الماضى المختفى فى قوة العمل ، والعمل الحى الذى تقوم به هذه القوة ، شيئان مختلفان تماماً والنفقة اليومية للمحافظة على قوة العمل وكذلك الانتاج اليومى لقوة العمل أمران مختلفان تماماً . فالأولى تحدد القيمة التبادلية لقوة العمل ، والثانى يعين قيمتها الاستعمالية . وبرغم أن عمل نصف يوم يلزم للابقاء على العامل خلال الأربعة وعشرين ساعة التى يتكون منها اليوم فان هذا لا يحول دون قيامه بالعمل خلال يوم العمل طه وطوله ١٢ ساعة . وعلى ذلك فقيمة قوة العمل والقيمة التى تخلقها قوة العمل فى عملية العمل حجمان مختلفان اختلافاً تاماً ، وهذا الفارق فى القيم هو ما كان فى ذهن الرأسمالى حين اشترى قوة العمل . كان من الضرورى بطبيعة الحال أن تكون لقوة العمل صفة نافعة بأن تستطيع عمل غزل أو أحذية الخ لأن العمل يجب أن يبذل بشكل نافع إذا أريد أن ينتج قيمة ولكن النقطة الحاسمة حقيقة أن هذه السلعة أى قوة العمل ذات قيم استعمالية من نوع خاص وهى كونها مصدر قيمة أو كونها قادرة أن تنتج قيمة أكثر مما لها ، وهذه هى الخدمة ذات الطابع الخاص التى يتوقعها الرأسمالى من قوة العمل . فى علاقاته مع قوة العمل تراه يتصرف وفقاً للقوانين الأبدية الخاصة بتبادل السلع . الحقيقة إن بائع قوة العمل ـ كأى بائع سلعة أخرى ـ يحقق قيمتها التبادلية ويتنازل عن ملكية قيمتها الاستعمالية ، وليس فى استطاعته الحصول على الأولى دون التصرف فى الثانية . إن القيمة الاستعمالية لقوة العمل أى العمل نفسه لا تصير ملكا لمن باعها شأنها فى

---

(١) نقد ما يلى فى كتابى Zur Kritik der palitischen Oekonomie, p. 14

,, ليس من الصعب ان نفهم أى خدمة ،، يجب ان تؤديها عبارات ,,خدمة ،، للاقتصاديين من طراز ج . ب . ساى ن . باستيا .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ذلك شأن القيمة الاستعمالية للزيت بالنسبة إلى الزيات الذى باعه ، ولكن صاحب النقود الذى يدفع قيمة قوة العمل فى يوم يصير مالكا للقيمة الاستعمالية لهذه القوة أى للعمل نفسه خلال ذلك اليوم . حقيقة يتكلف الابقاء على قوة العمل كل يوم عمل نصف يوم ولكن برغم هذا تستطيع قوة العمل أن تعمل طيلة يوم العمل ما يترتب عليه أن ننتج من القيمة فى يوم العمل ضعف قوة قيمة العمل فى اليوم ، وهذا أمر حسن بالنسبة إلى المشترى ولكنه ظلم للبائع .

لقد توقع صاحبنا الرأسمالى هذا كله ولذلك بدا عليه السرور والابتهاج . ففى الورشة يجد العامل أدوات الانتاج اللازمة لا لعملية عمل قدرها ٦ ساعات فحسب ولكن لعملية طولها ١٢ ساعة . فاذا امتصت ١٠ أرطال من القطن ٦ ساعات عمل وبذلك تحولت إلى ١٠ أرطال من الغزل ، فان ٢٠ رطلا من القطن تمتص ١٢ ساعة عمل وبذا تتحول إلى ٢٠ رطلا من الغزل . لنفحص منتج عملية العمل هذه التى أطلنا مدتها ففى ٢٠ رطلا من الغزل نجد ٥ أيام عمل منها ٤ فيما استهلك من القطن وجانب من المغزل ويوم واحد امتصه القطن خلال عملية الغزل ، والتعبير بالذهب عن هذه الأيام الخمسة هو ٣٠ شلناً أى جنيه واحد وعشر شلنات وهذا هو ثمن ٢٠ رطلا من الغزل . وهنا يساوى الرطل من الغزل كما كان الأمر من قبل شلناً وست بنسات ، ولكن مجموع القيم التى استهلكت فى عملية الانتاج يبلغ ٢٧ شلناً بينما قيمة الغزل ٣٠ ، فكأن قيمة المنتج تزيد بمقدار $\frac{1}{9}$ عن القيمة التى كان لابد منها لإنتاجه ، ونتيجة لهذا تحولت ٢٧ شلناً إلى ٣٠ أى أضيف فائض قيمة قدره ٣ شلنات . هكذا نجحت الحيلة أخيراً وتحولت النقود إلى رأس مال .

لقد حُلت كافة شروط المسألة ولم يحدث أى خرق لقوانين تبادل السلع . فقد تم التبادل بين المعادلات ، فالرأسمالى بوصفه مشترياً دفع القيمة الكاملة لكل سلعة من القطن والمغازل وقوة العمل ، ثم استهلك قيمتها الإستعمالية . وعملية استهلاك قوة العمل وهى عملية إنتاج السلعة فى الوقت ذاته ، أعطتنا منتجاً من ٢٠ رطلا من الغزل قيمتها ٣٠ شلناً . والرأسمالى الذى غادر السوق مشترياً يعود إليه بائعاً فيبيع ما معه من الغزل بسعر شلن ونصف للرطل أى بقيمته تماما ، ولكنه برغم ذلك يخرج من التبادل ومعه ثلاث شلنات أكثر مما كان معه حين دخل نطاقه . هذا التحول من نقود إلى رأس مال يحدث داخل نطاق التبادل وخارجه ويتم فى التداول وبواسطته لأنه يتحدد بشراء قوة العمل فى سوق السلع ، وهو يتم خارج التداول لأن التداول لا يهيء سوى الدافع الأولى لعملية إنتاج فائض القيمة وهى عملية تؤتى ثمارها فى ميدان الانتاج .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وبتحويل النقود إلى سلع هى العناصر المادية لمنتج جديد فى عملية العمل ، وبإدماج قوة العمل الحية بالمادة الميتة ، يحول الرأسمالى القيمة (العمل الماضى ، العمل الميت) إلى رأس مال . إلى قيمة تتمدد بذاتها ، إلى وحش سريع الحياة يبدأ فى « العمل » كأنما يتغذى جسمه على الحب .

وإذا كنا نقارن الآن بين عملية خلق القيمة وعملية خلق فائض القيمة لرأينا أن الثانية إن هى إلا الأولى قد أطلناها بعد نقطة معينة . وإذا استمرت عملية خلق القيمة إلى اللحظة التى يحل فيها معادل جديد لما دفعه الرأسمالى من قيمة قوة العمل فلن يكن لدينا سوى عملية بسيطة لخلق القيمة ، ولكن بمجرد أن نمد عملية خلق القيمة إلى ما بعد هذه اللحظة فإنها تصبح عملية لخلق فائض القيمة .

ولنأخذ الآن فى مقارنة عملية خلق القيمة بعملية العمل . إن الأخيرة عمل نافع ينتج قيما استعمالية ومن هذه الوجهة ننظر إلى الحركة من ناحية الكيف أى النوع ، والذى يعنينا إنما هو النوع الخاص للعمل وغايته ومحتواه . أما إذا كان الأمر متعلقاً بعملية خلق القيمة فاننا لا ننظر إلى عملية العمل إلا من ناحية مظهرها الكمى ، ولا يعنينا سوى وقت العمل أو مدى البذل المفيد لقوة العمل . وفضلا عن هذا فالسلع التى تدخل عملية العمل ترجع أهميتها إلى مجرد كونها مقادير محدودة من العمل المتجسم ، ولا يهمنا سواء كان هذا العمل متجسماً فى أدوات الإنتاج أو أن قوة العمل أضافته . فالعمل يقدّر حسب مدته ويتكون من كذا ساعات وأيام وما إلى ذلك .

ولكنه مهم نظراً لأنه العمل اللازم فى ظل الأحوال الإجتماعية السائدة لإنتاج القيمة الاستعمالية ، وهذا يتضمن أشياء كثيرة ، فقوة العمل يجب أن تؤدى وظيفتها فى ظل أحوال عادية . فاذا حدث فى ظل أحوال العمل السائدة فى المجتمع الذى ندرسه إن كانت أداة غزل بخارية هى الآلة السائد استعمالها فى العمل وجب علينا ألا نعطى العامل عجلة غزل قديمة الطراز مما يدار باليد ، كما لا ينبغى لنا أن نعطيه قطناً من صنف ردىء يتقطع باستمرار بدلا من قطن ذى جودة متوسطة ، لأنه لو فعلنا أى الأمرين لاحتاج العامل فى إنتاج رطل من الغزل وقتاً أطول مما يتطلبه المتوسط الاجتماعى ، ولكنه لن يحول هذا الوقت الزائد عن الحد اللازم إلى قيمة أو نقود . وعلينا أن نذكر أن الخواص العادية التى تتميز بها العوامل المادية لعملية العمل تتوقف على الرأسمالى لا على العامل . وثمت شرط ضرورى آخر وهو أن تكون لقوة العمل نفسها هذه الصفة العادية فيكون لنا فى كل حرفة خاصة المتوسط السائد من المهارة والدقة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والسرعة ، وقد اشترى صديقنا الرأسمالى فى سوق العمل قوة عمل متوسطة النوع . وأكثر من هذا يجب أن تشتغل قوة العمل بالحد المتوسط من الحدة أو الكثافة intensity فى ذلك المجتمع الخاص الذى نبحث أمره .

ويحرص الرأسمالى على ألا يحدث إبطاء فى العمل ولا تبديد للحظات . لقد اشترى استعمال قوة العمل لمدة محدودة ولا يريد أن يسلبه أحد حقوقه . وأخيراً (وهذه مسألة للرأسمالى فيها قانونه الجنائى الخاص به) يجب ألا يحصل تبديد فى المواد الخام ولا استهلاك لا مبرر له فى أدوات العمل ، لأن أى الأمرين ينطوى على بذل مقادير من العمل المتجسم أكثر من اللازم أى بذل لمقادير لا تتدخل فى المنتج أو قيمته (١) .

حينما حللنا الساعة كشفنا الفرق بين العمل الذى ينتج قيمة استعمالية وذلك الذى ينتج قيمة ، والآن نرى أن هذا الفرق يتحلل إلى تمييز بين مظهرين لعملية الإنتاج .

إذا نظرنا إلى عملية الإنتاج على أنها وحدة من عمليتى العمل وخلق القيمة لكانت عملية

---

(١) هذا أحد الظروف التى تجعل الانتاج بواسطة عمل العبيد كثير الكلفة ، وللقدماء صيغة حسنة التعبير عن الفارق بين العبد وغيره فقالوا انه أداة ناطقة تمييزاً له عن الحيوان الذى هو أداة شبه ناطقة وعن الجماد الذى هو أصم . ولكن العبد حريص أن يجعل الحيوان والآلة يدركان أنه من طبقة تخالفهما أى أنه انسان ، وهو يشعر برضاء ذاتى حين يقنع نفسه أنه مختلف . وذلك باساءة استعمال الحيوان وافساد الآلة . ولهذا من المبادىء العامة فى الانتاج بواسطة عمل العبيد أن أبسط الأدوات وأقلها اتقاناً هو الذى يستعمل اذ من الصعب افسادها لمجرد فساد تركيبها ووضعها . ففى بعض ولايات العبيد بالاتحاد الأمريكى والمتاخمة لخليج المكسيك ظل القوم حتى نشوب الحرب الأهلية يستخدمون محاريث مقتبسة من طراز صينى وهى محاريث تحفر فى الأرض كما يفعل الخنزير والحشرة ولكنها لاتعمل شقوقا أو تقلب التربة . وبهذه المناسبة عليك بكتاب The Slave Power تأليف J.E.Cairnes (لندن ١٨٦٢ ص ٤٦ — ٤٩) وكذلك كتب A Journey in the Seaboard States Olmsted يقول ,, لقد أروني هنا أدوات لا يمكن لرجل عاقل أن يرهق بها عمالا يدفع لهم أجورهم ، وان ثمنها المفرط وسوء صنعتها مما يجعل العمل أشق بمقدار ١٠ ٪ عنه فى حالة الأدوات العادية . وأسمع تأكيداً أنه نظراً لاهمال العبيد فان تزويدهم بأدوات أخف وأحسن ليس من حق الاقتصاد والوفر ، وأن الآلات الخفيفة الخالية من الحجارة والتى نزود بها عمالنا دائماً ونجدها تدر علينا الربح لا تدوم أكثر من يوم واحد فى أحد حقول القمح فى فرجينيا . وكذلك حين تساءلت عن سبب استخدام البغال مكان الخيول فى المزرعة كان السبب الأول والقاطع الذى ذكروه لى أن الخيل لا تحتمل سوء معاملة السود لها فتصاب بالعجز بينما تحتمل البغال الضرب والحرمان من بعض وجبات غذائها دون أن تصاب بأذى حقيقى مادى ، فضلا عن أنها لا تصاب بالبرد أو المرض اذا أهملت أو حملت من العمل أكثر من طاقتها . ولكن لا حاجة لى الى السير أكثر منه الى ثلاثة عرفتى حيث أشاهد معاملة للماشية لو وقعت من جانب عامل فى الشمال لما تردد الفلاح صاحب الماشية فى طرده فى الحال ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنتاج سلع ، وإذا اعتبرناها وحدة من عمليتى العمل وخلق فائض القيمة لكانت عملية إنتاج رأسمالى أوكانت الشكل الرأسمالى لإنتاج السلع . وأوضحنا أنه فيما يتعلق بعملية إنتاج فائض القيمة فلا أهمية لكون العمل الذى يختص به الرأسمالى عملا اجتماعياً متوسطاً أو عملا مركباً أى عملا حاذقاً أعلى حدة وكثافة من العمل غير الحاذق . إن العمل الأعلى درجة والأشد حذقاً والذى يساوى أكثر من العمل الاجتماعى المتوسط إن هو إلا مظهر قوة العمل التى تشمل نفقات أعلى فى التدريب أى مظهر قوة العمل التى تكلف إنتاجها قدراً أكبر من وقت العمل وهذا هو السبب الذى من أجله تكون قيمتها أعلى من قيمة قوة العمل البسيطة . وإذ تكون قيمة قوة العمل هذه أعلى فإن قوة العمل تبدو بمظهر عمل من نوع أسمى وبالتالى تصير خلال فترة معلومة من الزمن مجسمة فى قيم أكبر بما يتناسب مع ذلك . ومع ذلك فمهما كانت درجة الاختلاف بين عمل كل من الغزال والجواهرجى مثلا ، فإن الجزء الذى بواسطته يخلق الأخير ما يحل محل قيمة قوته على العمل لا يتميز من حيث الكيف عن ذلك الجزء الإضافى من العمل الذى تخلق بواسطته القيمة الفائضة . ففى عمل الجواهر كما فى الغزل لا يحدث إنتاج فائض القيمة إلا بفائض عمل كمى أى بإطالة نفس عملية العمل — والتى هى عملية صنع الغزل كما أنها عملية لعمل الجواهر (١) .

---

(١) الفارق بين العمل الأعلى من جهة والأبسط من جهة أخرى أى بين العمل ,,الحاذق،، و ,, غير الحاذق،، يرجع جانب منه الى الأوهام أو الى اختلافات لم تعد حقيقية وانما تعيش فى التقاليد والعرف . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فالسبب ايضاً راجع الى عجز طوائف معينة من الطبقة العاملة عن انتزاع قيمة ما يملكون من قوة العمل . وتلعب الصدف دوراً عظيماً هنا بحيث ان شكلى العمل احياناً يحل كل منهما محل الآخر . ومثال ذلك أنه اذا انحطت صحة الطبقة العاملة بحيث ان قوتهم الجثمانية تخور (وهو الأمر الذى نجده فى كافة البلدان التى بلغ فيها الانتاج الرأسمالى مبلغاً عالياً من التطور) ، فان الأشكال الدنيا من العمل والتى تتطلب بذلا كثيراً للعضلات تعد كأنها عمل حاذق وذلك عند موازنتها بالأشكال الأخرى من العمل والأعظم دقة ورقة والتى تهبط الى مستوى العمل غير الحاذق . خذ مثلا ضارب الطوب فى انجلترا وهو الذى يشغل مستوى عالياً بالنسبة الى غزال الحرير الدمشقى . ومن جهة أخرى فبرغم ان عمل قاطع القماش القطنى يتطلب مجهوداً جثمانياً عظيما كما انه غير صحى فى الوقت ذاته الا انه ينظر اليه كعمل غير حاذق . وكذلك ينبغى ان لا ننسى ان ما يقال له عمل حاذق لا يشغل مكاناً كبيراً فى ميدان العمل القومى ، فحسب تقدير لاينج Laing يبلغ عدد الذين يكسبون عيشهم من العمل غير الحاذق فى انجلترا وويلز ١١٫٣٠٠٫٠٠٠ . فاذا طرحنا من عدد السكان البالغ ١٨٫٠٠٠٫٠٠٠ اذا ذاك مليونا بمثل الفريق المهذب من الشعب ،، ، مليونا ونصف من الفقراء المساكين وابناء السبيل والمجرمين والعاهرات الخ ، ٤٫٦٥٠٫٠٠٠ تمثل الطبقة الوسطى لتبقت لنا الأحد عشر مليونا السالفة الذكر . ولكنه يجعل من اهل الطبقة الوسطى اشخاصاً

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ومن جهة أخرى ففى كل عملية لخلق القيمة يجب أن يرد العمل الحاذق إلى عبارات من توسط العمل الإجتماعى، أى يرد يوم من العمل الحاذق إلى سر يوم من العمل غير الحاذق [١] . وبذا نوفر على أنفسنا مشقة عملية لا حاجة بنا إليها ونبسط تحليلنا بأن نفترض أن العمل الذى يستخدمه الرأسمالى عمل اجتماعى غير حاذق ذو حد متوسط .

= يعيشون على فائدة استثمارات صغيرة ، والى جانب هؤلاء الموظفين ورجال الأدب والفن والمعلمون وامثالهم . ولكى يزيد من عدد الفريق العامل من الطبقة الوسطى تراه يدخل عمال المصانع الأحسن اجرا الى جانب ارباب المصارف الخ كما ان ضاربى الطوب من هذه الصفوف . انظر

S. Laing, National Distrees etc., London, 1844

„ ان الفريق الغالب فى الشعب عبارة عن الطبقة العظيمة التى ليس لديها سوى العمل العادى تعطيه لقاء الفداء „

James Mill in the article «Colony» Supplement to the Encyclopaedia Britannica, 1831.

(١) „ حينما نشير الى العمل كمقياس للقيمة فانه يتضمن بالضرورة العمل من نوع معين ... ومن السهل التأكد من نسبة الأنواع الأخرى اليه „

Outlines of Political Economy, 1832 p.p. 22.32.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل السادس

رأس المال الثابت ورأس المال المتغير

تساهم العوامل المختلفة التى تتكون منها عملية العمل بدرجات متفاوتة فى تكوين قيمة المنتج ، والعامل حين يصوغ مادة يضفى عليها قيمة جديدة وذلك ببذل مقدار محدود من العمل الإضافى بغض النظر عن الطبيعة الخاصة لعمله وهدفه وطابعه الفنى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تعود قيم وسائل الإنتاج المستهلكة أثناء عملية العمل إلى الظهور على هيئة العناصر التى تتكون منها قيمة المنتج فقيمة القطن الخام والمغازل تظهر من جديد فى قيمة الغزل . فكأن الاحتفاظ بقيمة وسائل الإنتاج يتم عن طريق نقلها إلى المنتج ويحدث هذا النقل أثناء تحويل وسائل الإنتاج إلى المنتج أى خلال عملية العمل فهذا النقل يسببه العمل ولكن بأية طريقة يتم هذا ؟

إن العامل لا يعمل شيئين مرة واحدة . أحدهما لكى يضيف بواسطة عمله قيمة إلى القطن ، وآخر لكى يحافظ على قيمة القطن القديمة أو بعبارة أخرى لينقل قيمة القطن (والمغزل الذى يشتغل به) إلى المنتج أى الغزل . وبدلا من هذا فانه يحافظ على القيمة القديمة بنفس العمل الذى يضيف به قيمة جديدة . ولكن لما كانت إضافة قيمة جديدة إلى المادة التى يتناولها بعمله والمحافظة على القيمة القديمة فى المنتج نتيجتين متميزتين يحققهما العامل فى وقت واحد وإن اشتغل مرة واحدة لا مرتين بينما يؤدى العمل ، فان الطبيعة المزدوجة للنتيجة يجب أن تكون مترتبة على ما هية عمله المزدوجة . ففى نفس الفترة الواحدة من الزمن عليه أن يخلق قيمة كما يتعين عليه كذلك أن يحفظ القيمة أو ينقلها . فبأى وسيلة يضيف العامل إلى الشىء الذى يتناوله بعمله وقت عمل وبالتالى قيمة ؟ من الواضح أنه لا يستطيع ذلك إلا عن طريق العمل بطريقة إنتاجية وبشكل مخصوص ، فالغزال بالغزل والنساج بالنسج والحداد بالحدادة . فاذا أمكن إضافة عمل وبالتالى قيمة جديدة بطريقة مقصودة كأن يكون ذلك بالغزل والنسج والحدادة فان وسائل الانتاج كالقطن والمغازل والغزل والنول والحديد والسنديان تصبح العناصر التى تكون منتجاً أو قيمة استعمالية

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

جديدة(١) ويختفى الشكل القديم لقيمتها الاستعمالية لكى يتجسم فى شكل جديد من القيمة الاستعمالية . ولكن حينما كنا نبحث عملية خلق القيمة رأينا أنه من حيث أن القيمة الاستعمالية تستهلك بقصد إنتاج قيمة استعمالية جديدة فان وقت العمل الذى كان لازماً فى الأصل لإنتاج القيمة الاستعمالية المستهلكة يصبح جزءاً من وقت العمل اللازم لإنتاج القيمة الاستعمالية الجديدة . بمعنى أن وقت العمل هذا ينقل من وسائل الانتاج المستهلكة الى المنتج الجديد وهكذا يحفظ العامل قيم وسائل الانتاج المستهلكة أو ينقلها إلى المنتج الجديد كأجزاء تتكون منها قيمة لا على أن هذا عبارة عن إضافة عمل ينظر إليه من وجهة مجردة ولكن على أنه عمل ذو صفة نافعة أى من حيث الشكل المخصوص الذى يتصف به هذا العمل الإضافى . ويستطيع العمل بوصفه مجهوداً إنتاجياً مقصوداً (كالغزل والنسج أو الحدادة) وبمجرد احتكاكه بوسائل الانتاج ، أن يرفعها من صفوف الأشياء الميتة بحيث تصير عوامل حية فى عملية العمل وأن يتحد بها لتكوين منتجات . إن العامل لا يستطيع أن يحول القطن إلى غزل إلا إذا كان نوع عمله الإنتاجى هو الغزل . إذ فى هذه الحالة فقط يستطيع أن ينقل قيم القطن والمغازل إلى الغزل أما إذا تصادف أن غير هذا العامل مهنته فصار نجاراً مثلا فانه يظل يضيف بواسطة عمله اليومى قيمة إلى المادة التى كان يشتغل عليها ، وعلى ذلك فهو يضيف قيمة عن طريق عمله فقط لا لأن هذا العمل عمل غزال أو نجار ، بل لأنه عمل اجتماعى ننظر اليه من الوجهة المجردة المطلقة . وهو يضيف مقداراً مخصوصاً من القيمة لا لأن لعمله غرضاً نافعاً من نوع مخصوص ولكن لأنه استمر وقتاً مخصوصاً . وهكذا يتضح أن عمل الغزال يضيف قيمة جديدة إلى قيم القطن والمغازل بصفته بذلا لقوة عمل إنسانية فى شكلها العام المطلق ، بينما ينقل عمله هذا قيم وسائل الإنتاج هذه إلى المنتج ويحافظ بذلك على قيمتها فيه وذلك من حيث شكله المادى النافع ذى الصفة المخصوصة . وهذا هو السبب الذى من أجله تتحقق نتيجة مزدوجة فى نفس الفترة الواحدة من الزمن . عن طريق إضافة مقدار من العمل تضاف قيمة جديدة فوق ذلك ، ولكن يحافظ على القيم القديمة لوسائل الانتاج فى المنتج وذلك بحكم نوع العمل الذى يضاف زيادة عن ذلك . هذا التأثير المزدوج لنفس العمل الواحد والمترتب على صفة العمل المزدوجة ، تبرزه مظاهر مختلفة .

---

(١) „ يخلق العمل شيئا جديداً مكان ما استهلك او انتهى „ .

An Essay on the Political Economy of Natios, London, 1821 p. 13

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لنفرض أن اختراعاً جديداً يمكن غزال القطن من أن يغزل في ٦ ساعات ما كان يغزله قبل ذلك فى ٣٦ ساعة فكأن عمله من حيث أنه مجهود نافع مقصود وإنتاجى قد زاد ستة أمثال ما كان عليه وبذا يصير المنتج أكبر ست مرات مما كان قبلا أى يصبح ٣٦ رطلا بدلا من ٦ أرطال . ولكن الأرطال الست وثلاثين تستنفد من وقت العمل نفس القدر الذى كانت تتطلبه الأرطال الست ، بمعنى أنه فى ظل الأحوال الجديدة يستوعب كل رطل من القطن سدس العمل وبذلك تكون القيمة التى يضيفها العمل إلى كل رطل سدس ما كانت عليه قبلا . ومن جهة أخرى نرى أن القيمة المنقولة من القطن إلى المنتج الكلى الجديد ستة أمثال ما كانت عليه من قبل ، فبغزل ست ساعات تكون قيمة المادة الأولية التى تنقل ستة أمثال ما كانت عليه برغم أن ما يضاف من القيمة الجديدة إلى كل رطل من المادة الأولية عبارة عن السدس وذلك بمقارنتها بما كان يضاف فى ظل الأحوال القديمة . وهذا يرينا الاختلاف الأساسى بين صفتى العمل اللتين تجعلانه فى نفس العملية الواحدة المتصلة يحفظ قيمة من جهة ويخلق قيمة من جهة أخرى . فكلما طال الوقت اللازم لغزل وزن معلوم من القطن ، زاد مقدار القيمة الجديدة التى تضاف إلى القطن ، ولكن كلما عظم وزن القطن المغزول فى فترة معلومة من وقت العمل زاد مقدار القيمة الجديدة المحتفظ بها فى المنتج الجديد .

لنفرض الآن ثبات إنتاجية الغزل بمعنى أن غزل رطل من القطن يتطلب نفس القدر من وقت العمل الذى كان يتطلبه من قبل . وسنفرض مع هذا أن قيمة القطن التبادلية تغيرت بحيث يساوى الرطل سدس أو ستة أمثال ما كان يساويه قبلا . ففى أى الحالتين يضيف الغزال فى فترة معلومة نفس المقدار من وقت العمل أى يضيف نفس القيمة بمعنى آخر إلى ذات المقدار من القطن ، وفى أى الحالتين كذلك سينتج فى نفس الوقت نفس الكمية من الغزل . وبرغم هذا فالقيمة التى ينقلها من القطن إلى الغزل تكون فى إحدى الحالتين سدس ما كانت عليه قبلا وفى الحالة الأخرى ستة أمثالها . وبالمثل يحدث ذلك إذا ما صارت أدوات العمل أعلى أو أرخص بينما تظل تؤدى نفس القدر من الخدمات في عملية العمل .

وكذلك إذا لم تتغير الأحوال الفنية لعملية العمل وقيمة وسائل الإنتاج فإن الغزل يستهلك فى فترة معلومة من الغزل نفس الكمية من المواد الأولية والآلات كما كان يفعل من قبل . وبهذا لا تتغير قيمة وسائل الإنتاج التى تستهلك ، وتتناسب القيمة التى يحتفظ بها فى المنتج تناسباً مباشراً مع القيمة الجديدة التى يضيفها بمعنى أنها فى أسبوعين ضعفها فى أسبوع . وبعبارة أخرى نقول إنه يضيف ضعف القيمة كما يستخدم فى الوقت ذاته ضعف المادة الأولية

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التى لها ضعف القيمة الأولى ويبلى من الآلات ضعف ما كان يحدث من قبل مع كون قيمة هذه الآلات الضعف الآن . وهكذا إذا ظلت أحوال الإنتاج دون تغيير نلاحظ أنه كلما أضاف العامل عن طريق عمل جديد مقداراً أكبر من القيمة ، كلما احتفظ بمقدار أكبر من القيمة غير أنه لايحتفظ بقيمة أكبر بسبب أنه يضيف قيمة أكثر ، وإنما يرجع ذلك إلى أنه يضيف القيمة الجديدة فى أحوال ثابتة لم تتغير ومستقلة عن عمله .

ويجوز القول إن العامل يحتفظ دائما بالقيم القديمة بنفس النسبة التى يضيف بها قيما جديدة . فسواء ارتفع ثمن القطن من شلن إلى اثنين أو هبط من شلنين إلى شلن فالعامل يحفظ فى المنتج فى الساعة الواحدة نصف قيمة القطن التى يحتفظ بها فى ساعتين مهما كان مدى تغير قيمة القطن . وفضلا عن هذا إذا طرأ على إنتاجية عمله تغيير بالزيادة أو النقص فإنه يغزل فى ساعة واحدة مقداراً من القطن يزيد أو يقل عما كان يغزله من قبل وبذلك يحتفظ في منتج ساعة واحدة بمقدار أكبر أو أصغر من قيمة القطن حسبما تكون عليه الحال . وكذلك القيمة التى يحتفظ بها فى ساعتى عمل تظل ضعف ما يحفظه منها فى ساعة عمل واحدة . وبغض النظر عن الصور الرمزية البحتة التى تمثل القيمة فليس للقيمة وجود إلا فى قيمة استعمالية أى فى شىء (والإنسان نفسه إذا اعتبرناه مجردة الصورة التى تتجسم فيها قوة العمل عبارة عن جسم طبيعى أى شىء ولو أنه شىء حى واع ، ويكون العمل نفسه المظهر الخارجى الذى ينم عن قوة العمل) . لهذا إذا فقدت أداة عمل منفعتها فقدت قيمتها . أما السبب الذى من أجله لاتفقد وسائل الإنتاج قيمتها حين تفقد قيمتها الإستعمالية ، فراجع إلى أن قيمتها الاستعمالية تنتقل بحكم عملية العمل إلى المنتج حيث تظهر فيه على هيئة قيمة استعمالية جديدة ، ومعنى هذا أن القيمة الاستعمالية لا تنعدم وإنما تفقد شكلها الأصلى . وبينما يكون من الضرورى وجود القيمة على هيئة قيمة استعمالية أو أخرى فليس من المهم مطلقاً نوع القيمة الاستعمالية التى توجد فيها ، وهذا واضح من دراسة تحولات السلع . ويترتب على هذا أنه خلال عملية العمل تنقل وسائل الإنتاج قيمتها إلى المنتج وذلك فقط إلى جانب قيمتها الاستعمالية المستقلة ، بالقدر الذى تفقد به قيمتها التبادلية فكأن كل ما تتنازل عنه للمنتج إنما هو القيمة التى تفقدها بصفتها أدوات انتاج . غير أنه من هذه الوجهة يختلف سلوك مختلف العوامل الموضوعية فى عملية العمل .

يختفى الفحم فى توليد البخار ، والزيت فى تشحيم الآلات ، والصبغات وسواها من المواد الإضافية ولكنها تبدو على هيئة صفات للمنتج . فالمادة الأولية والإضافية هى الجوهر الأساسى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

للمنتج ولكنها تغير شكلها ، وعلى هذا تفقد المواد الأولية والاضافية أشكالها المستقلة التى دخلت بها فى نطاق عملية العمل على هيئة قيم استعمالية . ولكن الحال خلاف هذا بالنسبة إلى أدوات العمل . فالعدد والآلات والمبانى والأدوات وما إليها تظل ذات شأن فى عملية العمل طالما احتفظت بأشكالها الأصلية بمعنى أنها تدخل اليوم عملية العمل بنفس الشكل الذى كان لها بالأمس . وكما أن أدوات العمل تحتفظ خلال عملية العمل بالشكل المستقل الذى تبدو به وهى تواجه المنتج ، فإنها تظل كذلك محتفظة بهذا الشكل بعد فنائها . فجثث الآلات والعدد والمصانع والورش الخ . تظل موجودة ومنفصلة عما تساعد على خلقه من المنتجات فإذا تدبرنا حالة إحدى أدوات العمل منذ دخولها نطاق الإنتاج إلى اليوم الذى تخرج منه ، لألفينا أن العمل خلال هذه الفترة يستهلك قيمتها الاستعمالية تماماً ، وأن قيمتها التبادلية تنتقل بتمامها إلى المنتج . فلو كانت آلة غزل مثلا تدوم ١٠ سنوات ثم تبلى بعدئذ فإنها تنقل إلى المنتج جميع قيمتها خلال عملية العمل التى تدوم ١٠ سنوات ، وبناء على هذا تنقضى حياة أداة عمل معلومة فى التكرار المتصل لعدد أكبر أو أصغر من عمليات العمل فكأن فى الإمكان أن نشبه حياتها بحياة الإنسان .

ففى ختام كل يوم يدنو المرء ٢٤ ساعة من نهايته ولكنا لانستطيع بمجرد النظر إليه أن نعلم عدد الأيام التى أفناها من حياته . وبرغم هذه الصعوبة تستطيع شركات التأمين إدراك متوسط الأعمار ويدر عليها هذا الاستنتاج أرباحاً طيبة . وبالمثل نستطيع أن نعلم عن طريق التجربة متوسط حياة أداة عمل ما ، ولتكن نوعاً مخصوصاً من الآلات . لنفرض إذن أن قيمتها الإستعمالية أثناء عملية العمل تدوم ٦ أيام فقط ، فمعنى هذا أن تفقد فى المتوسط سدس قيمتها الاستعمالية كل يوم من أيام العمل وبذا تنقل إلى المنتج اليومى سدس قيمتها . هذه هى الوسيلة التى يحسب الناس بها بلى الآلات ، ومقدار ما تفقده أدوات العمل من القيمة الاستعمالية وما تنقله من القيمة الى المنتج يوماً بعد يوم .

يتضح إذن أن ما تنقله أداة العمل من القيمة إلى المنتج لا يمكن أن يزيد عما تفقده منها خلال عملية العمل عن طريق إفناء قيمتها الإستعمالية . فلو لم تكن لها قيمة تفقدها ولو لم تكن وليدة العمل الإنسانى لما كان فى وسعها أن تنقل أية قيمة الى المنتج . إنها تساعد على خلق القيمة الاستعمالية دون خلق القيمة التبادلية ، ومن هذا النوع كافة أدوات الإنتاج التى تهيئها الطبيعة دون معونة الإنسان ، ومن أمثلة ذلك الأرض والهواء والماء وخامات الحديد التى لم تستخرج والخشب الكائن فى الغابات البكر وغير ذلك .

وثمت ظاهرة طريفة أخرى تتراءى لنا . لنفرض أن لدينا آلة تساوى ١٠٠٠ جنيه وتبلى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى ١٠٠٠ يوم ، ففى هذه الحالة تنقل الآلة كل يوم $\frac{1}{1000}$ من قيمتها إلى المنتج اليومى . وبرغم تناقص حيوية الآلة يوماً بعد يوم فإن الآلة بكليتها تظل مشتركة فى عملية العمل وحينئذ نرى أن عاملا واحداً فى عملية العمل أى أداة معينة من أدوات الإنتاج يدخل كله فى هذه العملية بينما يدخل بصفة جزئية فى عملية خلق القيمة . والفارق بين عمليتى العمل وخلق القيمة تعكسه هنا العوامل المادية فى كل منهما على اعتبار أن نفس وسائل الإنتاج فى نفس عملية الإنتاج تحسب بكليتها كأحد عناصر عملية العمل ، بينما تحسب من جهة أخرى وإلى حد جزئى كعامل فى خلق القيمة(١).

ومن جهة أخرى قد تشترك إحدى أدوات الانتاج بأكملها فى خلق القيمة وإن كانت تدخل تدريجا في عملية العمل . لنفرض أنه فى غزل القطن يتبدد ١٥ رطلا فى كل ١١٥ رطل فبرغم أن هذه النسبة وهى ١٥ ٪ عادية ولاتنفصل عن متوسط غزل القطن فإن قيمة هذه الأرطال الخمس عشرة تدخل فى تكوين قيمة الغزل شأنها فى ذلك شأن قيمة الأرطال المائة التى هى الجوهر الفعلي للغزل . إن قيمة الأرطال الخمس عشرة الاستعمالية لابد من اختفائها قبل إمكان صنع المائة رطل من الغزل ، وعلى ذلك ففناء هذا القدر من القطن شرط لازم لإنتاج الغزل ، ولهذا السبب ذاته يضفى قيمته علي الغزل . وينطبق نفس الأمر على كافة مخلفات عملية العمل على الأقل من حيث أن هذه المخلفات لا تستخدم لتكوين منتجات جديدة لكى تصبح بذلك قيماً استعمالية جديدة ومستقلة . والانتفاع بهذه الفضلات التى لولا ذلك لصارت منتجات مبددة . من الأمور التى نشاهدها فى المصانع الضخمة المشتغلة بعمل الآلات فى منشستر حيث نجد أن مقادير كبيرة من المتخلف من الحديد المستعمل فى صنع الآلات الهائلة الحجم يؤخذ فى المساء إلى مسبك الحديد ليعود ثانية علي هيئة سبيكة من هذا المعدن .

إن وسائل الإنتاج تفقد قيمتها على هيئة قيمتها الاستعمالية القديمة خلال عملية العمل وبهذا القدر وحده تنقل قيمتها إلى الشكل الجديد للمنتج . وواضح أن الحد الأقصى لما تفقده من القيمة فى عملية العمل يتحدد بواسطة القيمة الأصلية التى كانت لها حين دخلت فى عملية العمل . وبعبارة أخرى يحدده مقدار وقت العمل الذى استخدم فى إنتاج هذه الأدوات . وتبعاً لهذه لا تستطيع أدوات الإنتاج (مهما كانت منفعة نوع معلوم من المادة الأولية

---

(١) يمكن الآن ان نتقبل امر الاصلاحات التى نجريها فى ادوات العمل والالات والمبانى الخ ، لأن الالة =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.